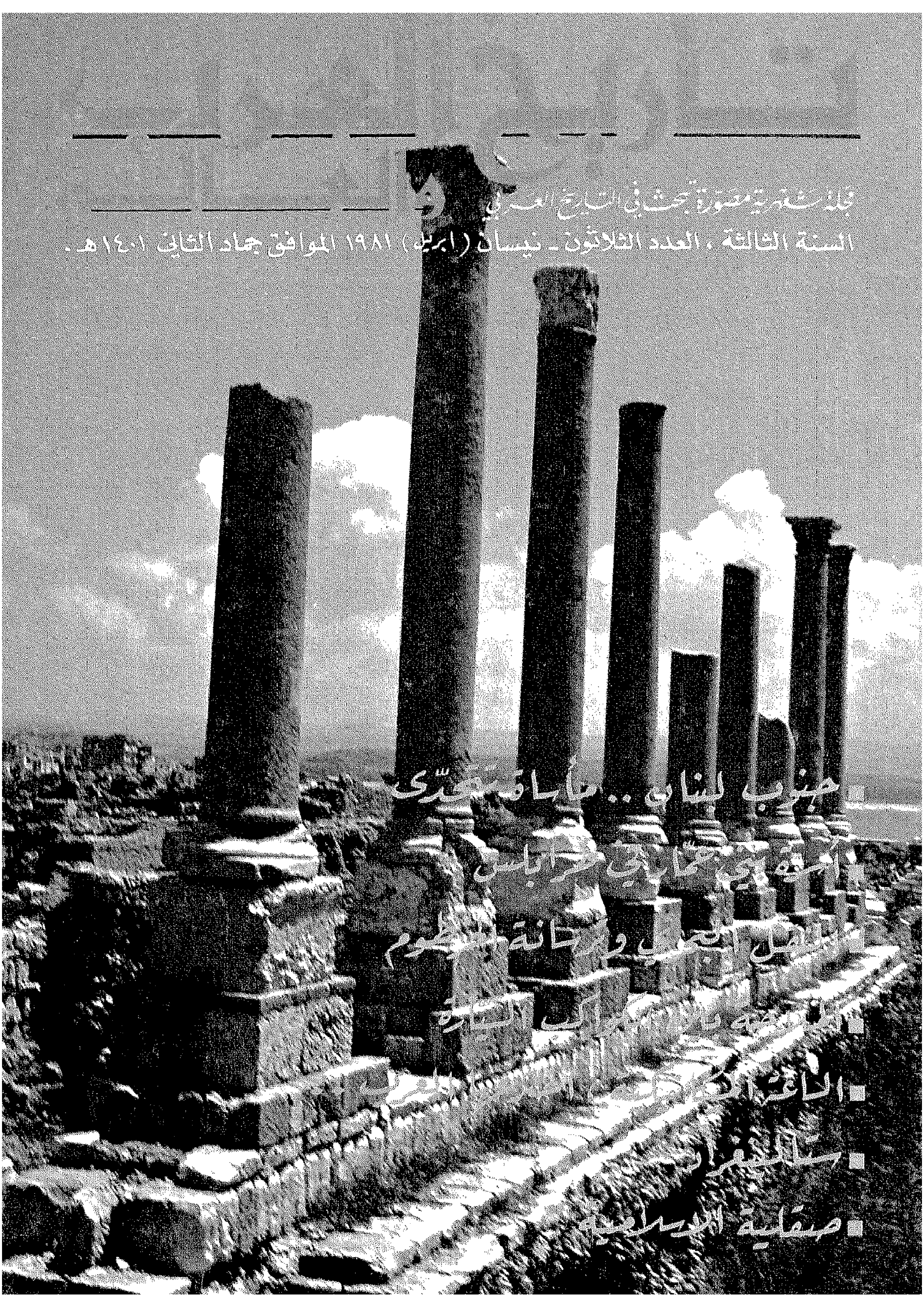
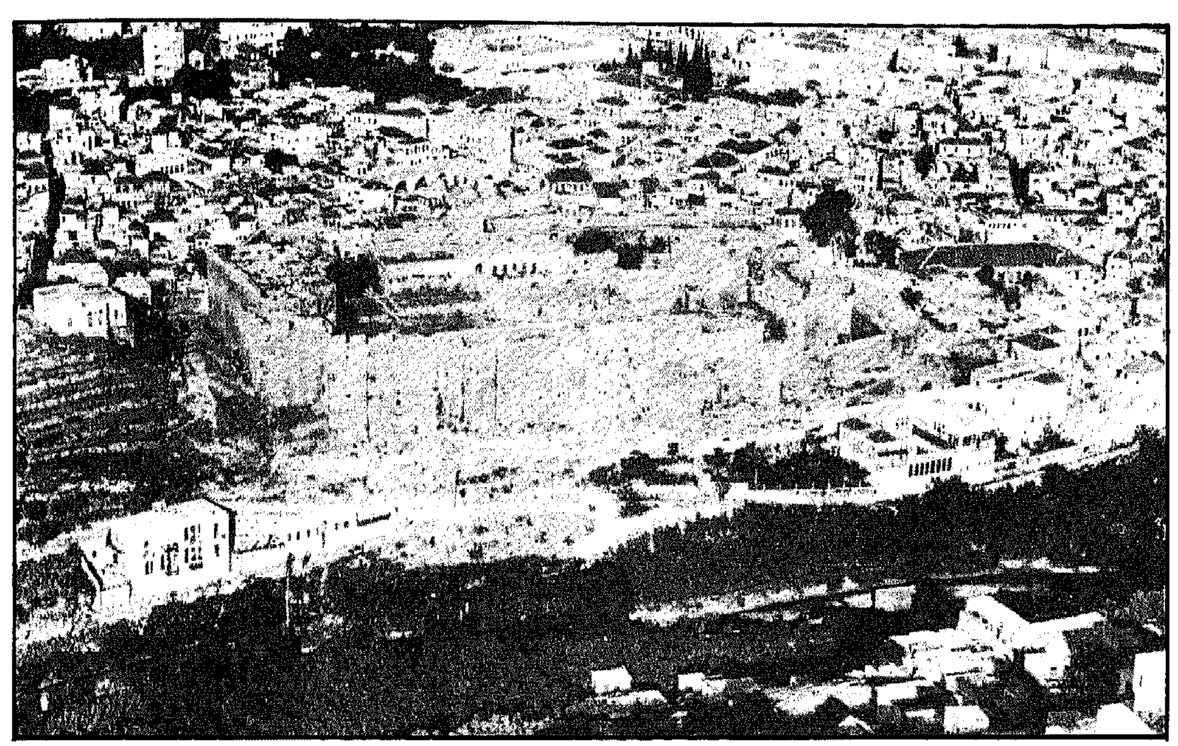
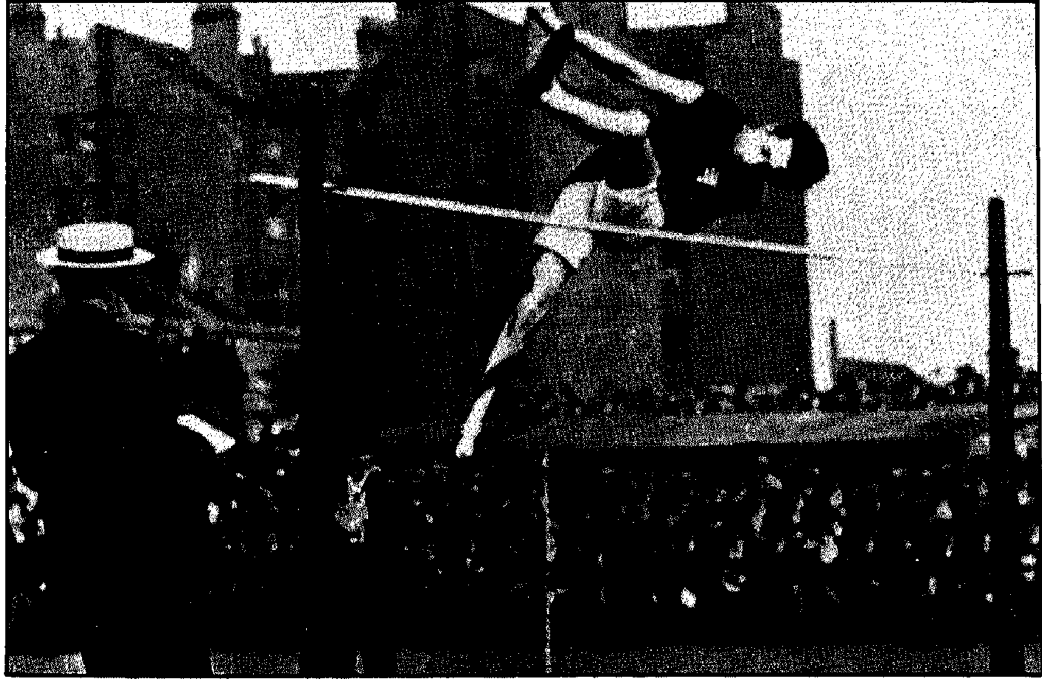

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي
السنة الثالثة ، العدد الثلاثون ـ نيسان (ابريل) ١٩٨١ الموافق جماد الثاني ١٤٠١هـ .
جنوب لبنان .. مأساة وتحدّى
صقلية الإسلامية

الماضي الذي سيأتي في عددنا المقبل



أسرة بني عمار في طرابلس (٢)



الألعاب الرياضية في الشعر والتاريخ

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الثالثة ، العدد الثلاثون ـ نيسان (ابريل) ١٩٨١ الموافق جماد الثاني ١٤٠١ هـ .

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

رئيس التحرير : فاروق البربير

المستشار : د . أنيس صايغ

المدير المسؤول : محمد مشموشي

الإنتاج : مطبعة المتوسط ش.م.ل. ● التوزيع : الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات

ثمن النسخة

لبنان :	٥ ل.ل.	سوريا :	٦ ل.س
العراق :	٨٠٠ فلس	تونس :	١ دينار
السعودية :	٨ ريال	الكويت :	٧٠٠ فلس
الأردن :	٥٠٠ فلس	أبوظبي :	٨ درهم
دبي :	٨ درهم	قطر :	٨ ريال
		عدن :	٨ شلنات
البحرين :	٨٠٠ فلس	المغرب :	٦ درهم
مسقط :	٨٠٠ بيزة	بريطانيا :	جنيه استرليني
فرنسا :	١٠ فرنكات	اميركا :	٣ دولارات

الإشتراكات

(بما فيها أجور البريد الجوي)

في لبنان : للأفراد	٧٥ ل.ل.
للمؤسسات والدوائر الحكومية	٢٠٠ ل.ل.
في الوطن العربي : للأفراد	١٠٠ ل.ل.
للمؤسسات والدوائر الحكومية	٢٥٠ ل.ل.
خارج الوطن العربي : للأفراد	١٥٠ ل.ل.
للمؤسسات والدوائر الحكومية	٣٠٠ ل.ل.

تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية أو بريدية .

ص.ب : ٥٩٠٥ ـ بيروت ، لبنان . بناية أبو هليل ـ شقة ١١ . شارع السادات ـ تلفون : ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM
SADATE ST. ABOU HLEIL
BLG. P.O.B. 5905
TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

Vol. 3, No. 30 April 1981
ANNUAL SUBSCRIPTION
$ 75 (INCLUDING $ 25 FOR
ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS,
INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد



صور: جنوب لبنان
(راجع المقالة ص٤٢)

■ المقالات الواردة توزع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب. تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■



قلعة سانت جيل طرابلس
(راجع المقالة ص٣).

الموضوع — الصفحة

● المقالات والدراسات تُرسَل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة: ص. ب ٥٩٠٥ في بيروت.

● المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبِّر بالضرورة عن آراء المجلة.

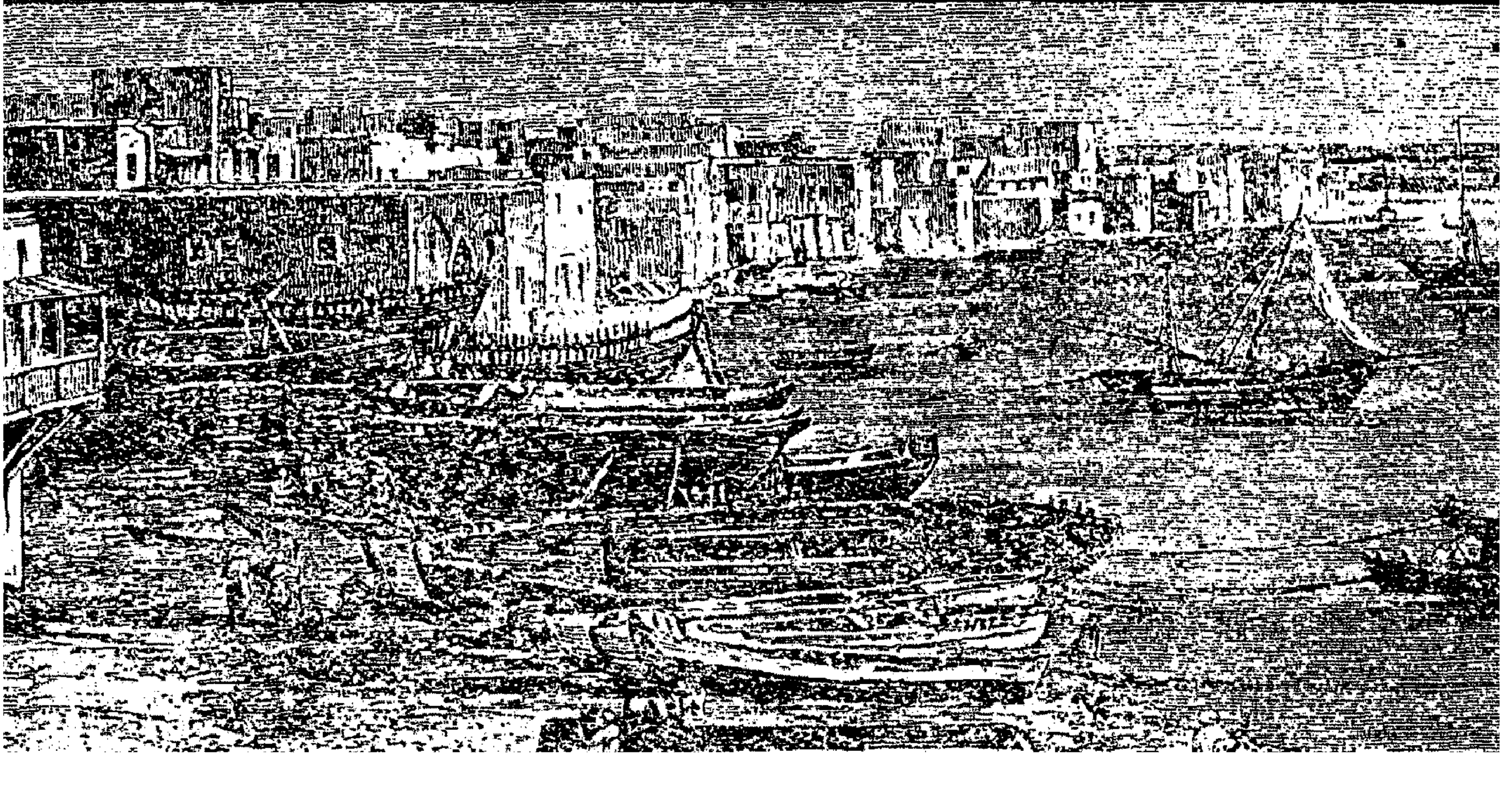
● المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تُنشر.

من تاريخ الأسرات الحاكمة في لبنان

اسرة بني عمار في طرابلس

وعلاقاتها بالسلاجقة والفاطميين والصليبيين في القرن ٥ هـ = ١١م.

د. عمر عبد السلام تدمري



في عددين سابقين من المجلة(*) تناولنا بالبحث تاريخ «أسرة بني أبي عقيل في مدينة صور» و«أسرة عيسى بن الشيخ في صيدا وجنوب لبنان»، وفي هذا البحث نتعرف على أسرة ثالثة من الأسرات الحاكمة في تاريخ لبنان الوسيط، هي أسرة بني عمار التي أسست إمارة على ساحل الشام وجعلت طرابلس عاصمتها في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري= الحادي عشر الميلادي. وتعتبر من أهم الأسر الحاكمة في تاريخ لبنان بحضورها السياسي والثقافي، على طول الشريط الساحلي الممتد من جبلة شمالاً إلى جونية جنوباً.

(*) العدد ١٦ ص٩ والعدد ٢٣ ص٢٣.

د. عمر عبدالسلام تدمري أستاذ في قسم التاريخ كلية الآداب - فروع الشمال - الجامعة اللبنانية.

التعريف بأسرة بني عمار:

إن القول الفصل في تحقيق الأرومة التي انحدرت منها أسرة بني عمار لم يجزم بها حتى الآن، فقد ظهرت هذه الأسرة على مسرح الأحداث في طرابلس خلال القرن الخامس الهجري، إلا أن هناك أسرة أخرى تحمل الاسم نفسه، وكانت في بلاد المغرب بشمال افريقية، ونطالع أخبارها منذ بداية النصف الثاني من القرن الرابع الهجري. وتخلط المصادر التاريخية المعاصرة بين الأسرتين بشكل يعتقد معه الباحث أنهما أسرة واحدة، وذلك للتشابه الكبير في أسماء أفراد البيتين، إلا أن إرجاع أصل أحد هذين البيتين إلى أرومة عربية من بني طيء، والقول بأن شيخ البيت الآخر هو كبير قبيلة كتامة المغربية وشيخها وسيدها، يدعو إلى التأمل فعلاً فيما اذا كان بنو عمار الأفارقة يمتون بصلة القرابة لبني عمار الطرابلسيين. فسلسلة نسب بني عمار تنتهي عند «المقريزي» بأبي يوسف الطائي[1] والطائيون بطن من الدواسر، احدى قبائل بادية نجد، ويذكر «الألوسي» انهم من أشهر قبائل الزيدية في بلاد قعطبة بجنوبي شبه الجزيرة العربية، وأنهم فرقة من بني سعيد، إحدى عشائر سورية الشمالية[2].

وقد اعتنق بنو عمار في بلاد المغرب والشام المذهب الشيعي، وعندما قامت الدولة الفاطمية تولى شيوخ قبيلة كتامة مراكز قيادية في مصر والشام، فكان منهم «أمين الدولة أبو محمد الحسن بن عمار بن أبي الحسين»[3] الذي نطالع اسمه للمرة الأولى في حوادث سنة ٣٥١هـ. أثناء غزو المسلمين لجزيرة صقلية، حيث كان يقود جيش المعز لدين الله الفاطمي هناك، وظهر بشكل بارز على مسرح الأحداث في عهد «العزيز بالله» فكان من أجل كتّابه، ويلقب بأمين الدولة، وهو أول من لقب في دولة المغاربة[4] ولما أفضت الخلافة إلى «الحاكم بأمر الله» ردّ إليه الأمور والتدبير في سنة ٣٨٦هـ. وقال له: أنت أميني على دولتي، ولقبه وكناه، وكان الناس على اختلاف طبقاتهم يترجلون له. وهو الذي فتح الطريق لأبناء قبيلته لينتقلوا إلى الشام، حيث أرسل القائد «أبا تميم سليمان ابن جعفر بن فلاح الكتامي» إلى دمشق، فقام أبو تميم هذا بوضع أخيه «علي بن جعفر ابن فلاح» والياً على طرابلس سنة ٣٨٦هـ[5].

غير أن المصادر التاريخية التي بين أيدينا لا تتحدث عن تاريخ بني عمار في طرابلس الشام ولا عن كيفية مجيئهم إليها لأول مرة، إذ تنقطع أخبار الأسرة المغربية بعد قتل شيخها «الحسن بن عمار» سنة ٣٩٠هـ. ولا نقف على أخبار أسرة بني عمار الطرابلسية الا في الربع الأول من القرن الخامس الهجري، حيث نطالع اسم أحد أفراد هذه الأسرة: «الأمير الوزير رئيس الرؤساء خطير المُلْك أبي الحسن عمار ابن محمد»، وكان يتولى ديوان الانشاء في مصر، وقتل في سنة ٤١٢هـ[6].

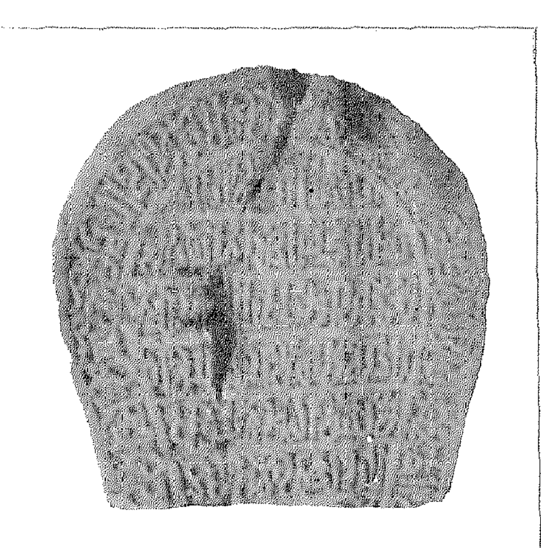
ثم نطالع ذكراً لاثنين من أسرة بني عمار في طرابلس، هما: «أحمد بن محمد بن عمار» المعروف بأبي الكتائب، و«عبدالله بن محمد ابن عمار» المعروف بالقاضي الجليل أبي طالب. وقد صنف لهما «أبو الفتح الكراجكي» المتوفى بصور سنة ٤٤٩هـ. بعض الكتب في الفقه[7]. وجدير بالذكر أن الباحث المدقق يواجه عملاً مضنياً عند تتبع أسماء أفراد أسرة بني عمار حسب ترتيبهم لاضطراب تلك الأسماء واختلافها الواضح في المصادر، بحيث أن أية دراسة حول تسلسل أسمائهم ستظل محاطة بالغموض أو الشك، كما اختلف المؤرخون المحدثون في تحديد بداية حكم بني عمار في طرابلس! ونحن نرجع تاريخ ولايتهم إلى سنة ٤٢٤هـ. حيث كان «أمين الدولة أبو طالب عبدالله بن محمد بن عمار» يحكم المدينة من قبل الدولة الفاطمية على سبيل الولاية، فجمع بين منصبي: الوالي والقاضي، وفي ذلك يقول المقريزي: «إن الدولة قد حولت الثغر في أيدي بني عمار على سبيل الولاية، فلما جاءت الشدائد تغلبوا عليه، ثم جاءت الدولة الجيوشية فخافوا مما قدموه، فلم يرموا أيديهم في يده ولا وثقوا بما بذل لهم من الصفح عن ولائهم»[8].

وفي الواقع، ان استقلال بني عمار في حكم طرابلس عن الدولة الفاطمية لم يكن المحاولة

الأولى في تاريخ المدينة، بل ان محاولتين سبقتا إلى ذلك، ولكن لم يكتب لهما النجاح، إذ كانت الأولى على يد «مختار الدولة بن نزال» الذي كان يطمع في الاستقلال بطرابلس مدعوماً بالامبراطورية البيزنطية، ولقيت محاولته فشلاً ذريعاً حول سنة ٤٢٤هـ. وكانت المحاولة الثانية بتدبير أفراد أسرة عرفوا بأبناء أبي الفتح، وهي من الأسرات ذات التاريخ الغامض في طرابلس، وقد لعب «أمين الدولة بن عمار» دوراً أساسياً في إفشال حركتهم، وأبقى على ولاء المدينة للحكم الفاطمي إلى أن استقل هو بحكمها.

أبناء أبي الفتح:

وينفرد «سبط ابن الجوزي» من بين جميع المؤرخين المعاصرين بالحديث عن حركة أبناء أبي الفتح الانفصالية، فيقول انهم تغلبوا على طرابلس وخرجوا بها عن طاعة المستنصر بالله الفاطمي، في وقت غير محدد، فجاءها الأمير «حصن الدولة حيدرة بن منزو بن النعمان الكتامي»، لاعادتها إلى السيطرة الفاطمية في سنة ٤٥٧هـ. وعندما وصل إليها خرج إليه قاضيها أمين الدولة بن عمار - وكان في خدمة سلطان مصر - فأظهر الولاء له، وأطلعه على حقيقة الوضع داخل المدينة، واتفق معه على التخلص من بني أبي الفتح بطريقة لا تتعرض فيها طرابلس لخطر الحرب والدمار، وكان ابن عمار قد أشار على أبناء أبي الفتح أن يبعثوا معه أحدهم لمقابلة حصن الدولة، ويبدو أنهم استجابوا لذلك، وحين وصل أحد أبناء ابي الفتح إلى معسكر حصن الدولة أولاه الثناء الجميل على مبادرته بالخروج إليه، وكان يهدف خداعه بذلك وخداع إخوته ليخرجوا إليه، فيتاح له دخول طرابلس بدون قتال. غير ان ابن أبي الفتح لم يقع في الفخ، وظهر له أن القاضي ابن عمار خدعه بالخروج معه، وكتب إلى اخوته بذلك. وعمل حصن الدولة على استمالته وتطمينه بأن نادى به أميراً على طرابلس، وبعث إلى اخوته بما تطيب به نفوسهم، وسألهم الخروج اليه. وكان كتاب أخيهم قد وصل اليهم ووقفوا منه على حقيقة الأمر، فامتنعوا عن الخروج، وأخذوا أهبتهم للحرب.



كتابة كوفية من عصر بني عمار في طرابلس
س١: يا أيها النبي انّا أر
س٢: سلناك شاهداً ومبشراً
س٣: ونذيراً وداعياً إلى الله
س٤: بإذنه وسراجاً منيراً
س٥: وبشر المؤمنين
س٦: بأن لهم من الله
س٧: فضلاً كبيراً

وهنا نرى القاضي ابن عمار يقوم بالدور الهام الذي سهل لحصن الدولة دخول طرابلس، فقد استطاع أن يتفق مع جماعة من أحداث البلد على الصلح، وان يستأمن ثمانية وعشرين رجلاً من قادة المقاتلة إلى جانبه. ولا يخفى على المهتمين بدراسة تاريخ بلاد الشام في العصر الوسيط الأهمية البالغة التي كانت لجماعات «الأحداث» ودورها الخطير في توجيه الأمور السياسية والعسكرية والاجتماعية في المدن الرئيسية، إذ كانت بمثابة الحرس الشعبي المسلح أو الميليشيات المسلحة المسؤولة على الأمن الداخلي في المدينة، وهذه ظاهرة انتشرت وبشكل واضح في دمشق وحلب وصور وطرابلس وغيرها من بلاد الشام في العصر الوسيط. ولذا فان انضمام «الأحداث» إلى جانب ابن عمار أضعف من قوة بني أبي الفتح، ووقع الخُلْفُ بين أهل البلد، وبادرت مجموعة إلى فتح الأبواب، ونادى الأهالي بشعار المستنصر بالله. وهكذا دخل حصن الدولة طرابلس، وقام على الفور باعتقال بني أبي الفتح، وقيدهم وبعث بهم إلى صور بعد أن عاملهم بالمكروه. ثم طلب

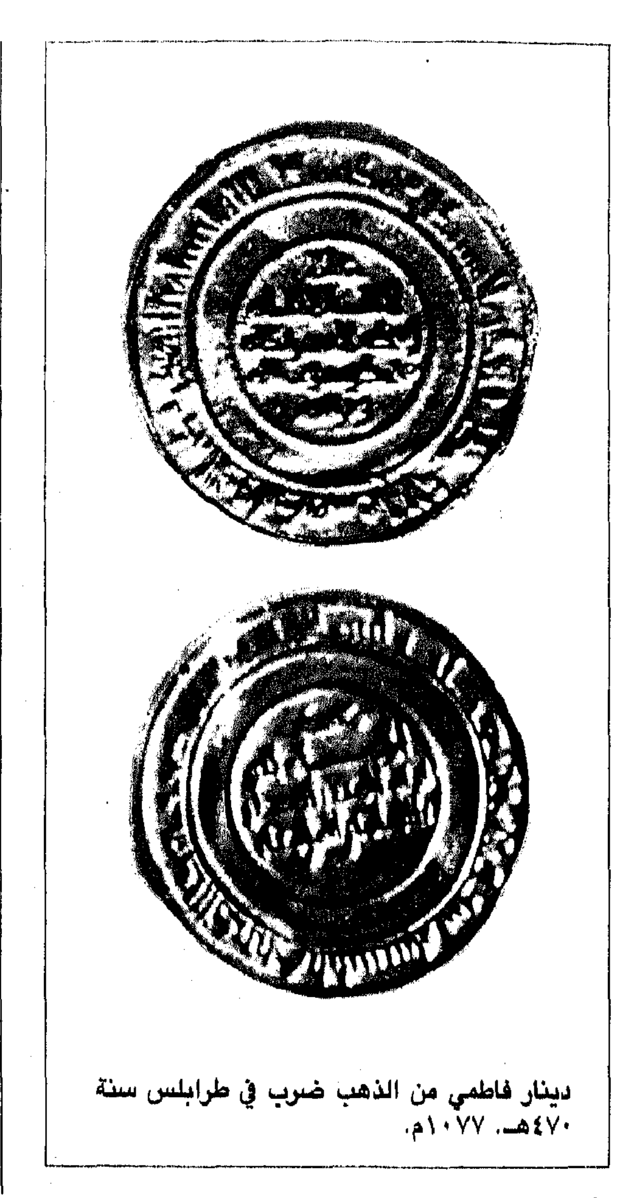
المال الكثير من أهل البلد، وفرض عليهم مائة ألف دينار عقاباً لهم على طاعتهم لبني أبي الفتح وخروجهم عن طاعة خليفة مصر. ومنع الذين استأمنوا إليه من أهل البلد ومقاتلتها من الاقامة بالمدينة، وأمرهم بالانسياح في الشام، ولما كانوا يطمعون في أن ينالوا أجراً لقاء موقفهم ومساعدتهم له على دخول المدينة، فقد طلبوا منه العطايا والخلع، فلم يبد حصن الدولة اعتراضاً على مطالبهم أول الأمر ووعدهم بجميع ما طلبوه، فركنوا إلى ذلك، وعندما حل الليل قبض عليهم وصلبهم مع الذين كانوا يعاونون بني أبي الفتح[٩]، وبذا استقر أمر طرابلس لفترة قصيرة من الولاء للفاطميين، ثم حكمها أمين الدولة عقيب سنة ٤٥٧هـ./١٠٦٦م. بشيء من الاستقلال الذاتي، ونستدل على ذلك من توسطه بين الخليفة المستنصر وبين محمود ابن نصر بن مرداس صاحب حلب في سنة ٤٥٩هـ. ونجاح وساطته بينهما[١٠]. ولو لم يكن أمين الدولة يتمتع بشخصية مرموقة، وباستقلال ذاتي في الحكم، لما أتيح له أن يقوم بدور الوسيط بين الخصمين.

وكان محمود بن نصر قد قصد طرابلس في سنة ٤٥٦هـ. وبصحبته ملك الغز «هرون ابن خان التركماني» ولم يفصح «ابن القلانسي» عن سبب توجه محمود وابن خان إليها، ولكن من الواضح أنهما مكثا هناك بعض الوقت قبل العودة إلى محاصرة حلب. فهل دخلا طرابلس وقاما بتجنيد جيش من الغز، حيث كان لابن خان والغز دور كبير في تمكين محمود من دخول حلب؟. إنه إذا صح ذلك ففيه اشارة ودليل إلى وجود تركمان آنذاك في منطقة طرابلس وشمالي لبنان. وهذا يعني أن بعض الغز كانوا قد دخلوا ساحل الشام قبل دخولهم حلب. ويرى بعضهم ان دخول محمود المرداسي مع ابن خان إلى طرابلس كان له علاقة بتسوية الأمور مع الخلافة الفاطمية عن طريق «ابن عمار» قاضي طرابلس، وبعقد قرض أو أخذ مبلغ من المال يؤمن طريق التجارة القادمة إلى ميناء طرابلس من شمالي الشام، والتي هدد الأتراك الغز الذين توغلوا في جنوبي حلب أمنها وطرقاتها


دينار فاطمي من الذهب ضرب في طرابلس سنة ٤٦٣هـ. ١٠٧١م.

وثرواتها، فجاء ابن خان يتعهد بحمايتها، وان هذا المسعى قد نجح بسرعة[١١]. ونحن نقول انه ليس هناك ما يقطع بالسبب المباشر والحقيقي لدخولهما طرابلس، ولكن يبدو أنهما ساعدا على خروجها من يد الحكم الفاطمي ووضعا عليها حكاماً من قبلهما أعلنوا عصيانهم على الدولة الفاطمية، ونرجح أنهم هم أبناء أبي الفتح الذين سبق الحديث عنهم.

ورغم أن أمين الدولة كان له الفضل في التوسط بين الخليفة الفاطمي ومحمود المرداسي، فان هذا الأخير قام بنفسه وحاصر طرابلس ٤٦٠هـ./١٠٦٨م. ولما لم يتحقق له دخول طرابلس فقد اكتفى بأخذ الأموال منها وعاد إلى حلب[١٢].



دينار فاطمي من الذهب ضرب في طرابلس سنة ٤٧٠هـ. ١٠٧٧م.

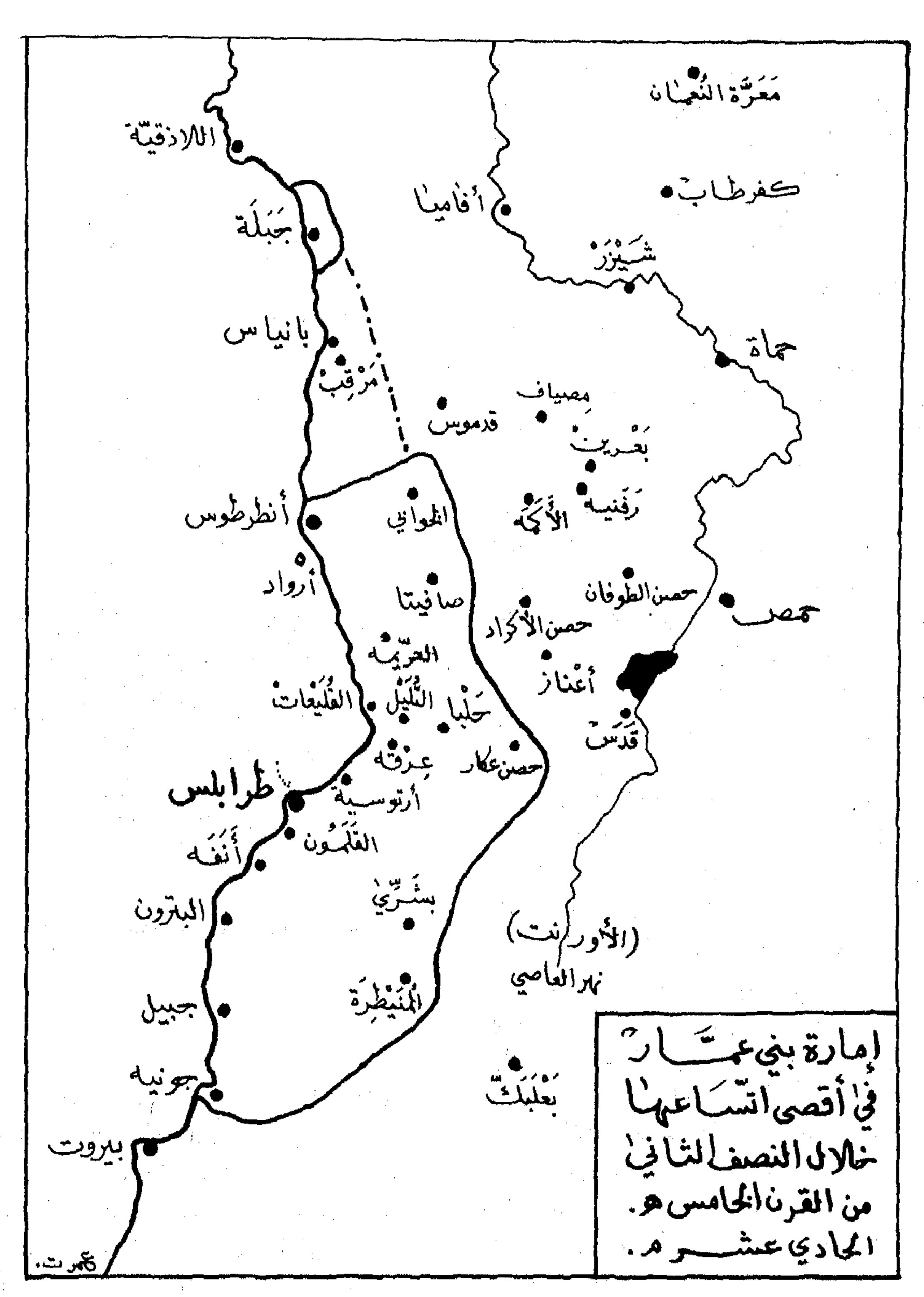
أمين الدولة مؤسس إمارة بني عمار:

شهدت مدن الشام وفلسطين أحداثاً متلاحقة حول منتصف القرن الخامس الهجري كان من جرائها إضعاف النفوذ الفاطمي وانحساره عن معظم المناطق، فقد حدث في سنة ٤٦٢هـ./١٠٧٠م أن استولى القفي مختص ابن أبي الجن على دمشق، وطرد منها أمير الجيوش بدراً الجمالي. وكان القاضي محمد بن أبي عقيل قد استولى على صور سنة ٤٥٥هـ. واستولى القاضي أمين الدولة بن عمار على طرابلس واستقل بها بعيد سنة ٤٥٧هـ. وخرج ناصر الدولة الحسن بن حمدان في جماعة من قواد الأتراك وأمراء مصر على المستنصر بالله وملك الرملة والساحل في سنة ٤٦٢هـ. ولم يبق لأمير الجيوش في الشام وفلسطين سوى عكا وصيدا. بل ان صيدا نفسها خضعت لفترة من الوقت لنفوذ قاضي صور عندما قام بالاستقلال عن الفاطميين، وقد استناب على قضائها «ابن أبي العيش الجمحي الأطرابلسي» المتوفي سنة ٤٦٠هـ.(١٣)

وهكذا انحسر النفوذ الفاطمي عن معظم بلاد الشام، وأسقطت الخطبة للمستنصر من منابر دمشق وصور وطرابلس والرملة وغيرها. وبذلك كانت مدن الشام تعلن استقلالها عن الدولة الفاطمية. واستبد أمين الدولة بأمر طرابلس، وخلع طاعة أمير الجيوش، وتغلب على مدينة جبيل وضمها إلى نفوذه، ووضع بذلك النواة الأولى لقيام إمارة بني عمار المستقلة. وأعقب أمين الدولة حركته هذه بخطوة أخرى هي تقربه من السلاجقة الأتراك ليدعم موقفه في طرابلس، ولذا نرى السلطان السلجوقي «ألب أرسلان» يسيّر، وهو عند حلب في سنة ٤٦٣هـ.، بعض عساكره مع أحد كتابه «ابن جابر بن سقلاب الموصلي» إلى طرابلس لتقرير أمرها. وقد تخلف عن «ألب أرسلان» بعد رحيله عن حلب جماعة كبيرة من التركمان الذين عرفوا بـ «الناوكية» فنزلوا الشام، وأقام قسم منهم عند طرابلس(١٤). ولربما كان ذلك نتيجة اتفاق تم بين أمين الدولة والسلاجقة. وعندما تعرض محمود بن نصر للخطر البيزنطي أرسل يستنجد بهم، فهبوا لنجدته بقيادة مقدمهم «قرلو»، واستطاع بمساعدتهم صد البيزنطيين عن حلب.

وفي هذه الأثناء لجأ إلى طرابلس الأمير سديد الملك علي بن المقلد بن منقذ هارباً من محمود بن نصر، وأقام عند صاحبها أمين الدولة ابن عمار، فعرض محمود على أمين الدولة ثلاثة آلاف درهم ورقية من أجل القبض على ابن منقذ، فلم يظفر به(١٥).

ووسط هذه الأنواء الشديدة التي كانت تعصف ببلاد الشام، كان أمين الدولة يضع الخطوط العريضة لقيام إمارة طرابلس المستقلة بسياستها الحيادية بين الدولة الفاطمية والدولة السلجوقية. واستطاع أن يحافظ على حكم طرابلس رغم انفصاله عن الفاطميين وتعرضه لأطماع صاحب حلب. ومع ذلك لم يمنع إصدار



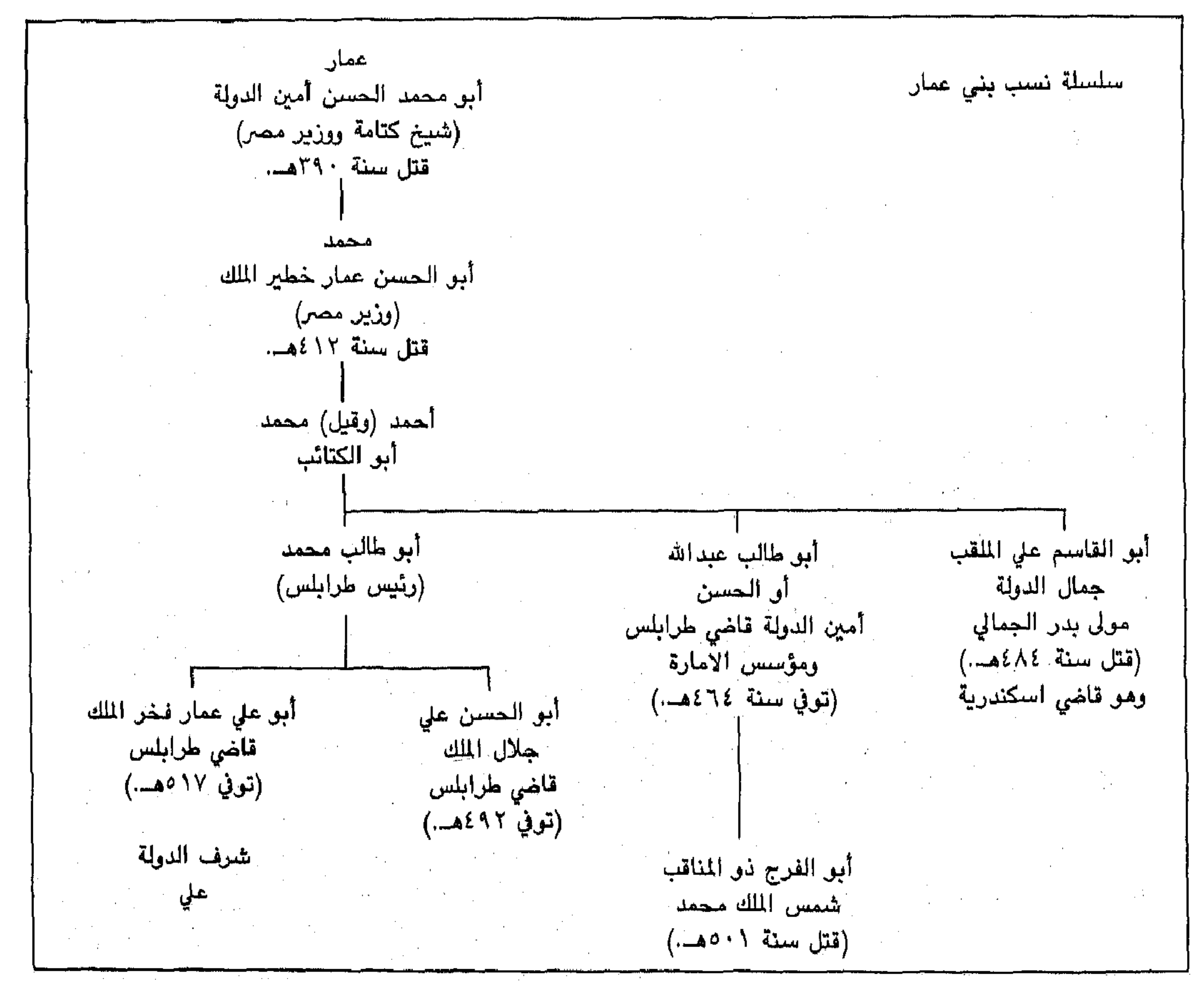
النقود التي كانت تضرب بطرابلس، وهي تحمل اسم الخليفة الفاطمي المستنصر بالله، فقد وصلنا دينار ذهبي ضرب في عهده بطرابلس سنة ٤٦١هـ. وآخر في سنة ٤٦٣هـ. كما استطاع أمين الدولة أن يحمي طرابلس من الغز والناوكية التركمان، حتى توفي في شهر رجب سنة ٤٦٤هـ.

أمين الدولة، القاضي الفقيه:

كان أمين الدولة رجلاً عاقلاً فقيهاً، سديد الرأي، ومن فقهاء الشيعة. كما كان كاتباً مجيداً، ألف كثيراً من الكتب النفيسة[١٦]. ولم يصلنا من هذه المؤلفات شيء، سوى اسم كتاب واحد بعنوان: «ترويح الأرواح ومفتاح السرور

والأفراح» المنعوت «جراب الدولة». واسم هذا الكتاب ورد عند «ابن الفرات»، ونسبته إلى أمين الدولة تستدعي التأمل، فقد ورد اسم هذا الكتاب منسوباً إلى «أحمد بن محمد بن علوية السجزي» ويكنى أبا العباس، ويعرف بجراب الدولة، من أهل سجستان وكان طنبورياً ومن الظرفاء المتطايبين في أيام المقتدر بالله العباسي (٢٩٥ - ٣٢٠هـ) وأدرك دولة بني بويه، ويلقب بالريح، سمى نفسه جراب الدولة لأنهم كانوا يفتخرون بالتسمية في «الدولة». قال «ابن النديم»: له من الكتب كتاب «النوادر والمضاحك في سائر الفنون والنوادر»، وسمى هذا الكتاب «ترويح الأرواح ومفتاح السرور والأفراح» وجعله فنوناً، وهو كتاب كبير[١٧]. وقال «ياقوت»: لم يصنف مثله اشتمالاً على فنون الهزل والمضاحك. وجاء في «كشف الظنون» كتاب بعنوان «مفتاح السرور والأفراح» غير منسوب لأحد. وذكر المرحوم الدكتور «سامي الدهان» انه لم يقع على ذكرى الكتاب منسوباً لابن عمار وانه وقع على كتاب بهذا الاسم في «ذيل تاريخ الأدب العربي» لكارل بروكلمان - ١/٥٥٩ - وينسب إلى «جراب الدولة» وهو مخطوط محفوظ في مكتبة باريس الأهلية برقم (٣٥٢٧).

وذكر «ابن خلدون» كتاباً بعنوان «جراب الدولة» نقل منه ما كان يحمل إلى بيت المال ببغداد أيام المأمون من جميع النواحي، وجد بخط «احمد بن محمد بن عبدالحميد»، وهو يعدد غلات السواد، مثل: كور دجلة وحلوان والأهواز وفارس وكرمان ومكران والسند وسجستان وخراسان وجرجان وهمذان وأذربيجان وأرمينية ودمشق والأردن وفلسطين ومصر وافريقية واليمن والحجاز، وغيرها من سكر وزيت وتمر وثياب وعسل، وغيره[١٨]. وموضوع هذا الكتاب موضوع جليل ونافع يبحث في اقتصاديات الدولة العباسية، فأين هو من موضوع كتاب «جراب الدولة» في المضاحك



والنوادر الذي نسب إلى ابن عمار قاضي طرابلس الفقيه الجليل؟

إن من الغريب - كما يقول الدكتور مصطفى جواد - أن ينسب «ابن الفرات» كتاب «ترويح الأرواح» في الفكاهة والهزل والباطل إلى قاض وأمير ذي ديانة متينة، ولا شك ان هذه الرواية يعتريها الاضطراب ويشوبها النقص حيث جمعت بين اسم الكتاب ولقب مؤلفه وجعلتهما اسماً لكتاب القاضي ابن عمار، وهذا من أشنع الغلط[19].

ونحن نرجح ان اسم كتاب ابن عمار «جراب الدولة» ويبحث في اقتصاديات الدولة الاسلامية وارتفاع الواردات، وهذا يتناسب مع مكانة القاضي الجليل والأمير الفقيه. ومن جهة أخرى، اتخذ أمين الدولة دار علم له جمع فيها ما يزيد على مائة ألف كتاب وقفاً[20]. وكان يرسل المراسلات إلى أقطار البلاد ويبذل الأثمان الباهظة، ويجلب الكتب النادرة لهذه المكتبة، ويهتم بالعلم ويحنو على العلماء، ويستميل طلاب العلم إلى عاصمته. حتى توفي سنة ٤٦٤هـ. وأثنى عليه المؤرخون فقال سبط ابن الجوزي: «القاضي أمين الدولة الحاكم على طرابلس والمتولي عليها، كان عظيم الصدقة، كثير المراعاة للعلويين، تفرد بذلك في زمانه ولم يدانه أحد من أقرانه».

واقتفى كل من جلال الملك وفخر الملك آثار أمين الدولة في الحفاظ على استقلال إمارة بني عمار وحيادها بين الفاطميين والسلاجقة، لتتصدى فيما بعد للهجمة الصليبية التي اجتاحت ساحل الشام في العشر الأخير من القرن الخامس الهجري، وتتبوأ مدينة طرابلس المكانة العلمية الأولى في ذلك الوقت بفضل مكتبتها ودار علمها التي كانت أروع مكتبات الدنيا، حسب شهادة «ستيفن رنسيمان»[21]. ■

هوامش

(١) إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين - الخلفا - المقريزي - تحقيق د.جمال الدين الشيال - ج٢/٤٧ (الحاشية)، القاهرة ١٩٤٨.

(٢) عشائر الشام - وصفي زكريا - ج٢/٢١٢، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب - القلقشندي - ص٤٠٥ - تحقيق ابراهيم الأبياري - طبعة مصر.

(٣) وفيات الأعيان - ابن خلكان - ج٢/٢٠١ - تحقيق د.إحسان عباس - طبعة بيروت، الاشارة إلى من نال الوزارة - ابن منجب الصيرفي - تحقيق عبدالله مخلص - ص٣٦ طبعة المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة ١٩٢٤.

(٤) ذيل تجارب الأمم - الروذراوري - نشره آمدروز - ج٣/٢٢٢.

(٥) ذيل تاريخ دمشق - ابن القلانسي - ص٥٦.

(٦) الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية - ابن أيبك - تحقيق د.صلاح الدين المنجد - ص٣١٥ - القاهرة ١٩٦١.

(٧) الغدير في الكتاب والسنة والأدب - العاملي النجفي - ج١/١٥٥ - بيروت ١٩٦٧.

(٨) إتعاظ الحنفا - ج٣/٧٨ - القاهرة ١٩٧٣.

(٩) مرآة الزمان - سبط ابن الجوزي - ج١٢ق١/١٠٢ و١٠٣ (المخطوط).

(١٠) مرآة الزمان - ج١٢ق١/١٠٩، النجوم الزاهرة ٥/٧٩.

(١١) دخول الترك الغز إلى الشام - د.شاكر مصطفى - ص٢٤٣ (من المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام).

(١٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير - ج٩/٢٣٤.

(١٣) تاريخ دمشق - ابن عساكر - (المخطوط) - ج٣٩/١١.

(١٤) مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية - د.سهيل زكار - ص١٥٤.

(١٥) زبدة الحلب - ابن العديم الحلبي - ج٢/٣٥.

(١٦) الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة - ابن شداد - نشره د.سامي الدهان - ص١٠٨ - دمشق ١٩٦٢.

(١٧) الفهرست - ابن النديم - ص١٥٣ - نشره غوستاف جلوجن - بيروت ١٩٧٢.

(١٨) مقدمة ابن خلدون - ج١/١٧٩ و١٨٠ - طبعة دار إحياء التراث العربي ببيروت.

(١٩) مقالة بعنوان «دار العلم في طرابلس» للدكتور مصطفى جواد - نشرت في دائرة المعارف الاسلامية الشيعية ١٢/١٣٢.

(٢٠) تاريخ ابن الفرات - تحقيق د.قسطنطين زريق - ج٨/٧٧.

(٢١) تاريخ الحروب الصليبية - ستيفن رنسيمان - تعريب د.السيد الباز العريني - ج٢/٣٨٠ بيروت.

علم الآثار ومدنيّة الخليج القديمة

د. نقولا زيادة

كان أهل البلاد والرحالون عندما ينتقلون في أنحاء الخليج العربي ويزورون جزره يشاهدون الكثير من التلال الصناعية في تلك الأماكن. وقد عدّت هذه التلال بألالاف. وكان الرأي السائد هو أن هذه هي «تلال مدافن». وقد قام اثنان من الأجانب، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بحفر سطحي لبعض هذه التلال في البحرين فثبت لهما انها كانت مدافن. ولكن أين كان يسكن القوم الذين دفنوا موتاهم في هذه التلال؟

ليس في الروايات العربيّة ما يشير إلى شيء من ذلك، لأنّ اولئك «السكان» كان قد ران عليهم صمت لمدة لا تقل عن ألفي سنة. والصمت لا يفسر الأحداث ولا يزوّد التاريخ بقصة. ولكن متى أخرجت الأرض كنوزها يعود الصوت، أو على الأقل الصدى، إلى المكان،

قطع من الجرار الفخارية تعود إلى الحقبة الثانية ٢٠٠٠ ق.م.





رأس ثور نحاسي وجد في معبد بربر.

وعندها يمكن للتاريخ أن يتكلم. والتاريخ هنا كان لا بدّ أن يعتمد على ما يقوم بـه الرفش والمعول،وعلى حل رموز الكتابات.

وهذا ما حدث بالضبط. إذ أنه لّما خرجت الآجرات بالالاف من أرض الرافدين وحُلّت رموز الكتابة الاسفينية ظهرت أساطير دينيـة، مثل قصة غلغامش، ثم ظهرت آجرات عليها فواتير ومراسلات تجارية تذكر إسم «دلمون» و«ما كان» (أوما غان) وتعين المواد التجارية التي كـانت تنقـل من بعيـد – من الجنـوب – إلى أرض الرافدين. ففي سنة ١٨٨٠ كتب رولنصون يقول بأنه يجب أن نفهم جيّداً بأنّه في جميع الألواح الأشـورية، من أقـدم العصور إلى آخـر عهد الدولة الأشورية، ثمّة إشارات تشير باستمرار إلى جـزيرة تقـع إلى جنوب أرض الـرافـدين وتسمى «نيـدوكي» باللغـة الأكدّيـة و«تلقون» أو «تلمون» باللغة الأشورية. وبنوع من الحس الباطني أضاف رولنصون إلى أنّ تلمون هذه قد تكون البحرين. ولما عرفت قصة غلغامش للعالم ظن البعض أن المكـان الذي قصـده البطـل للحصـول على العشبـة المانحـة الخلـود هـو البحرين أو ما حولها.

وعلى كل فقد عثر المنقبون على نقش يرجع إلى سنة ٢٥٢٠ ق. م. من أيام «أور – نانشي» ملك لاغاش مسجّل فيه أن سفن دلمون حملت إلى الملك خشباً من بلاد نائيـة. وهذه أقـدم وثيقة عُثِرَ عليها إلى الان التي يظهر فيها إسم دلمون.

على أن الذي ظل ناقصاً هو الحفر والتنقيب في الخليـج العربي، في شطـآنه وجـزره، لعل الرفش والمعول يخرجان معلومات جديدة. وهذا مـا حـدث منـذ شتـاء ١٩٥٣ وحتى ١٩٦٥. والقسم الأكبر من أعمال الحفر التي تمت إلى الأن قامت بها البعثة الدنمركية الأثرية. لكنّ إدارات الآثار في بعض الدول العـربية هنـاك أخذت تشارك بعض المشاركة في العمل.

والأماكن التي قام فيها التنقيب أو المسح الأثري إلى الآن في الخليج العربي هي، من الشمال إلى الجنوب، جزيرة فيلكة والكويت نفسها، وفي البحرين في قلعة البحرين وقرية بربر، وفي سواحل المملكة العربية السعودية في تاروت وثج والعقير والظهران وأماكن أخرى متعددة، وفي قطر وفي أبوظبي في جزيرة أم النار ومدينة العين وفي دبة في شبه الجزيرة عند المنقلب إلى مسقط وعمان. وقد كان التنقيب والحفر في البحرين - في قلعة البحرين وقرية بربر - أوسع نطاقاً وأعمق. ولذلك فالصورة التي عندنا الآن عن حضارة البحرين ومدينتها أوفى من الصور المجتزأة الأخرى.

وقد اتضح من أعمال الحفر الأثرية في الخليج أمور كثيرة، لعله من الخير أن نضعها هنا ملخصة.

١ - ثبت للباحثين أن قلعة البحرين تمثل حضارة ومدنيّة امتدت من حول سنة ٣٠٠٠ ق. م. إلى نحو ٣٠٠ ق. م. وقد حفرت البعثة الدنمركية خمس مدن كانت تبني الواحدة منها على أنقاض الأخرى وفي مكانها على العموم.

وقد وضع جوفري بيبي جدولاً موقتاً لعصور هذه المدن الخمسة كالآتي:

(أ) المدينة الأولى - مجهولة تاريخ الإنشاء والأصل.

(ب) المدينة الثانية - أنشئت حول ٢٣٠٠ ق. م.

(ج) المدينة الثالثة - أنشئت حول سنة ١٧٥٠ ق. م. واستمرت إلى نحو ١٢٥٠ ق. م.

(د) المدينة الرابعة من حول ١٠٠٠ ق. م. إلى نحو ٥٠٠ ق. م.

(ه) المدينة الخامسة - بين ٥٠٠ ق. م. و ٢٥٠ ق. م.

٢ - إن حضارات مختلفة في درجاتها ومن حيث مصادر التأثير بها نشأت في فيلكة وتاروت (السعودية) وأم النار (أبوظبي) في الوقت نفسه، وأن لم تظهر أعمال الحفر الأولى بعد فيما إذا كانت جميعها قد استمرت إلى نحو ٣٠٠ ق.م.، لكن فيلكة وثج كان في كل منهما مدنيّة في القرن الثالث ق.م.



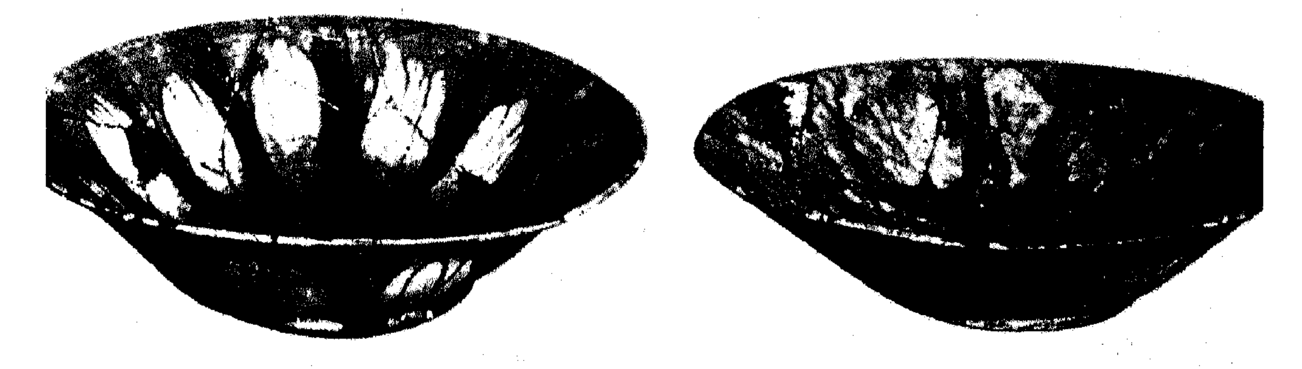
تمثال صغير وجد قرب مذبح معبد بربر

٣ - إن قيام الحضارة والمدنيّة في المناطق المشار إليها كانت تعاصر، على نحو ما ذكرنا من قبل، المدنيّة المتقدمة في سومر (جنوب العراق) وحوض السند.

٤ - إن بلاد «ماكان» (أوماغان) التي كانت تصدّر النحاس إلى أرض الرافدين قد تكون عمان وما إليها.

٥ - إن مملكة دلمون كانت ملء السمع التجاري لمدة تزيد عن ألفي سنة (٢٥٠٠ - ٥٠٠ ق.م.) كانت منطقة واسعة، ولعل مدينة دلمون كانت تقوم في البحرين، وإليها عزيت الرقعة أو المملكة بكاملها.

٦ - يبدو أن سكان جنوب العراق من السومريين والبابليين كانوا في فجر التاريخ يعتقدون أن الالهة كانت تقضي الكثير من وقتها في دلمون حيث كانت تكثر المياه الحلوة والخضرة؛ وكان السكان لذلك يعتبرون دلمون أرضاً مقدسة.



آنية مزخرفة تعود إلى القرن التاسع ق.م. (حفريات معبد بربر).

٧ – كانت السفن، على ما يبدو، تحمل من بلاد السند الأخشاب والقطن والعاج والعقيق الأحمر واللازورد، كما كانت سفن «ماكان» (أوماغان) تحمل النحاس. وكل ذلك يمر بالبحرين وفيلكة في طريقه إلى بلاد الرافدين. ولعل كثيراً من هذه السفن كان في الواقع ملك أهل الخليج ومصنوعاً فيه.

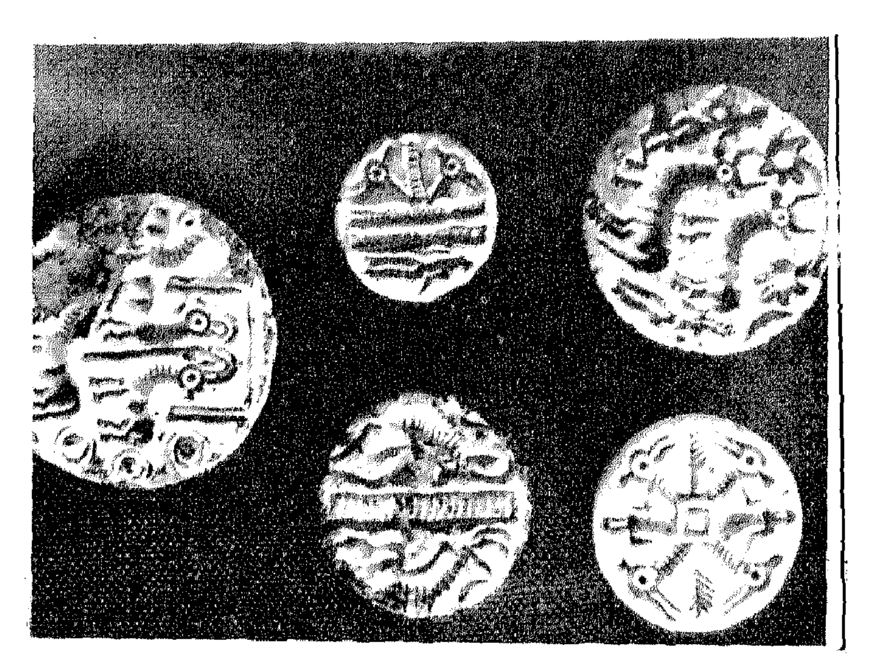
يبدو من الدراسات المختلفة والمقارنة أن هذه التجارة العالمية (بين جنوب العراق والسند) أخذت بالتأخر بدءاً من حول سنة ٢٠٠٠ ق. م. لكنها أصيبت بضربة قوية لما قضي على المدنيّة السندية (حول سنة ١٦٠٠ ق. م.) وانتهى أمرها بعد ذلك بنحو قرن. ومن هنا تعطلت السوق المورّدة إلى العراق، وتناقصت تجارة



نماذج من فخار العُبيد الملون، من موقع الدوسرية.

Saudi Arabian Antiquities Ministry of education

خمسة اختام وجدت في فيلكه.



الترانزيت عبر الخليج العربي، وضعف مركز دلمون (البحرين؟) التجاري. ومع أن المنطقة عاد إليها نشاطها فيما بعد إلّا أن السند لم تكن طرفاً فيه. بل كان الأمر مرتبطاً بالجزء الشمالي من الخليج العربي. وعلى كل فلم يكن النشاط التجاري على نحو ما كان عليه في العصور التي سبقت ذلك.

وفي أبان ازدهار دلمون ونشاطها كان لتجارها وكالات تجارية (حول سنة ٢٠٠٠ ق. م.) في مدن جنوب العراق مثل لاغيش واور.

* * * *

وهكذا فقد نُفِض الغبار عن بعض المواقع في الخليج العربي، فكان أن ظهرت حضارات الأقوام التي استوطنت أجزاءه من العصور الحجرية إلى قيام مدن ومدنيّة متقدمة نشيطة فعّالة.

وبذلك انتهى الوقت الذي كان الناس فيه يظنون أن أقطار الخليج العربي تاريخها ابن الأمس القريب. أن أصواتاً تسمع الآن واضحة،وصور الحياة أخذت تبين.

ومتى نشط الرفش والمعول والبحث — على أيدي أبناء البلاد أنفسهم في المستقبل القريب — ستتضح الصورة أكثر فأكثر، وتزداد الأصوات الآتية من الماضي البعيد قوة، وعندها يمكن أن يكتب التاريخ الصحيح.

إن الخطوة الأولى قد خطاها التاريخ وما تبقى فالوقت كفيل بانجاحه.

■

صقلية الإسلامية على مفترق من التاريخ

د. ابراهيم بيضون

كانت صقلية الميدان الأهم لعمليات الصراع الاسلامي - الأوروبي في القرن العاشر الميلادي. فهي بحكم موقعها الاستراتيجي الفريد، كانت تستأثر باهتمام الأطراف المتنافسة وتصيب مصالحها بصورة أساسية ومباشرة. ولذلك فان أبرز ملامح تلك المرحلة، حتى بعد استسلام الجزيرة للسيادة الأغلبية، هي فقدان الاستقرار السياسي، الذي حال بينها وبين اتخاذ شخصيتها الاسلامية المستقلة، بالمقارنة مع الأندلس التي نعمت بفترات مديدة من الهدوء والاستقرار.

لم يستطع الفاطميون بما كان لديهم من قوة بحرية متطورة، أن يعوّضوا الفشل الأغلبي في تحقيق حكم مركزي في الجزيرة التي آلت السلطة الفعلية فيها إلى الأسرة الكبيرة بزعامة الحسن بن علي. غير ان الفاطميين لم يتخلوا عن دورهم الطليعي في التصدي للدولة البيزنطية وانتزاع المبادرة في الصراع على النفوذ في البحر المتوسط. وكانت صقلية في طليعة الأهداف التي تطلع إليها الفاطميون لخدمة استراتيجية الجهاد، الركن البارز في عقيدتهم السياسية والدينية، أو كما عبر عنه المستشرق ريزيتانو [١] بقوله: «انها الميدان الذي استطاع الفاطميون أن يؤدوا فيه حق الجهاد، حيث لم يتهيأ مثيل له في أيام دولتهم»[٢].

ولكن الفاطميين اجتذبتهم هموم الشرق الاسلامي، وسخونة المنطقة الشامية بصورة خاصة، المهددة بالاحتلال البيزنطي، في وقت كرست فيه الخلافة العباسية فشلها الذريع إزاء هذه الأخطار وحماية حدودها وثغورها المكشوفة. فكان انتقالهم إلى مصر، الخطوة العريضة في هذا الاتجاه الذي أغرقهم في شؤون المنطقة وذلك على حساب دورهم الذي أخذ في التقلص منذ ذلك الوقت في غربي البحر المتوسط.

وهكذا فان صقلية الاسلامية لم تستطع تثبيت اقدامها طويلاً والتغلب على التحديات التي جابهت صمودها واستمرارها، من متغيرات السياسة الفاطمية إلى مقاومة الأطراف المعنية على أرضها أو المحيطة بها. فقد وحد الشعور بالخوف، على مصير القارة الأوروبية المهددة مرة

د. ابراهيم بيضون أستاذ في قسم التاريخ كلية الآداب - الجامعة اللبنانية - بيروت.

أخرى من الجنوب، بين مواقف القوى التقليدية والمستجدة، ممثلة بالبيزنطيين في الشرق والكارولنجيين في الغرب «والجمهوريات» التجارية في ايطاليا التي وظفت مصالحها حيناً في ذلك الصراع، ولكنها كانت تعبث أخيراً في قناة التكتل الصليبي الأوروبي برعاية البابوية، التي شعرت بأن لها دوراً أكثر أهمية عليها أن تمارسه، وهو يتعدى التأثير على المؤمنين وتحريك عواطفهم إلى تكوين قوة ذاتية لها نفوذها السياسي إلى جانب تأثيرها الديني[٣].

لقد كان من العسير جداً الاحتفاظ بهذه الجزيرة المهمة في ظل سيادة من اللامركزية الاسلامية، يمثلها الفاطميون، خاصة بعد انشغالهم بحرب البيزنطيين على جبهة الشام وتقلص نفوذهم على سواحل المغرب، بما يمثله ذلك من أثر بالغ الخطورة على صقلية، التي فقدت الغطاء الدفاعي المتوفر لها على يد البحرية الفاطمية. فاضطرت إلى البحث عن مصادر جديدة للحماية، لم تكن على المستوى المطلوب. ولعلها وجدت أن آخر ورقة في يدها، هي اللجوء إلى امير افريقية القوي آنذاك، المعز ابن باديس، لانقاذها من خطر البحرية البيزنطية التي استعادت بعض تفوقها منذ النصف الأول من القرن الحادي عشر.

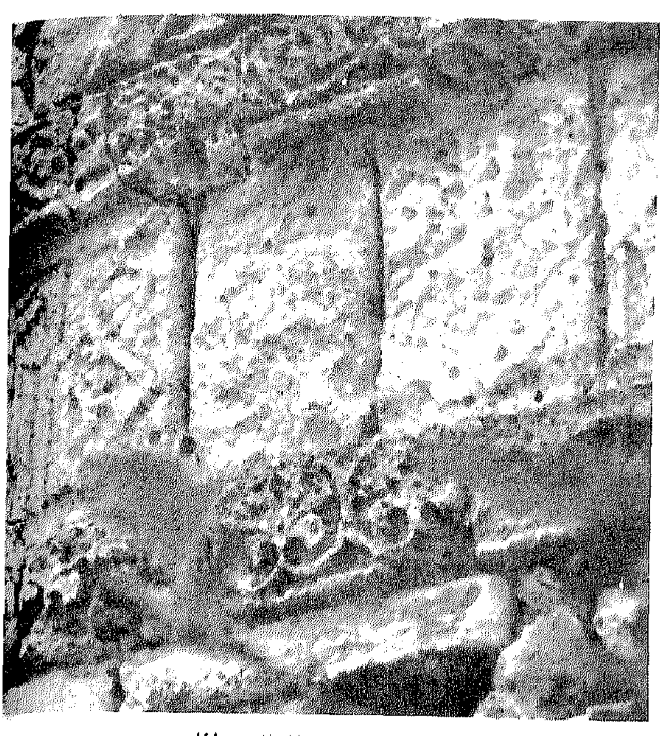
ولكن ابن باديس[٤] رغم نجاحه في الاحتفاظ بالجزيرة، الا أن ذلك لم يكن سوى تدبير مؤقت ومحاولة أخيرة للابقاء على هويتها الاسلامية. فسرعان ما عاودتها بعد غيابه[٥] هجمات البيزنطيين، واشتعلت فيها نيران الحرب الأهلية التي عجلت بدورها في عملية السقوط المرتقبة. ولم يكن ذلك على أيدي البيزنطيين كما يتبادر إلى الذهن، لأن قوة جديدة، ظهرت على ساحة الصراع في شبه الجزيرة الايطالية وامتد طموحها إلى صقلية، حيث كانت تراقب ما يجري على أرضها من اضطرابات. ذلك ان النورمان الذين استقروا حيناً في غرب فرنسا بعد تحولهم إلى المسيحية، راودتهم فكرة التوسع في هذه المنطقة والاسهام في متغيراتها الهامة.

ولم يظهر هؤلاء النورمان فجأة على المسرح السياسي في أوروبا. فهم أصلاً من قبائل الشمال

في هـذه القارة، حيث اتخـذوا من ذلـك أول أسمائهم وعرفوا بالشماليين (NORSMENS). ويبدو ان اسمهم الآخر الذي غلب عليهم وهو «النورمان» (NORMANDS)، مشتق من هذه الكلمة. وكان أول ما اشتهروا به هو احترافهم للبحـر ونزوعهم إلى المغـامـرة، حيث شهـدت سواحل انكلترا وفرنسا وكذلك اسبانيا العربية، اغـاراتهم الصاعقـة عـلى مـدى قـرنـين من الزمن[٦]. ويبدو أن النجاح أكثر ما حالفهم في فرنسا الكارولنجية، فاضطر الامبراطـور شارل الثالث إلى منحهم احدى الاقطاعات الغـربية، اتقـاء لهجماتهم العنيفـة[٧] وقد عـرفت هذه المنطقة حيث استقروا إلى الآن بـالاسم الذي يحملون وهو نـورمنديـاً (NORMANDIE). وكـان ذلـك القـرار في مصلحـة الامبـراطـور الكارولنجي الذي توسّل الافـادة من خبرتهم القتالية، لا سيما في البحر، وتطويعهم للدفاع عن بلاده تحت راية المسيحية. وما لبث هؤلاء أن أصبحـوا بعد وقت قصـير درع البابـوية القوي، فكانت تحرضهم بين الحين والآخر على مهـاجمـة السـواحـل الاسـلاميـة في المغـرب واسبانيا[٨].

غير أن النورمان الذين حافظوا عـلى روح المغـامـرة في نفـوسهم حتى بعـد اعتنـاقهم المسيحيـة، رفضوا الاستمـرار بعيداً في هـذا الدور، الذي يجعل منهم أداة في أيدي القوى الأوروبية الأخرى. فقد حرصوا على أن تظل لهم تلك الشخصية المتميزة والمستقلة، دون أن تسقط من ذلك اشتراكهم كجنود مرتزقة لحساب بعض المدن الايطالية، حيث أخذت شهرتهم في الحرب طريقها إلى الذيـوع في حوض البحـر المتوسط الغربي[٩].

وكان لاحتدام الصراع على شبه الجزيـرة الايطالية، لا سيما الأجزاء الجنوبية منها، قد جذب النورمان إلى اتخاذ مراكز نفوذ لهم في هذه المنطقة التي خبـروا عن كثب أوضاعهـا المضطربة. فهاجروا إليها في دفعات متواصلة وعملوا في خدمة أصحاب الطموح من الزعماء وكبار الاقطاعيين. ومع ازدياد عددهم ومن ثم تأثيرهم في موازين القوى المتنافسة على شبه الجزيرة، حققوا أول نجاحاتهم في اقامة منطقة

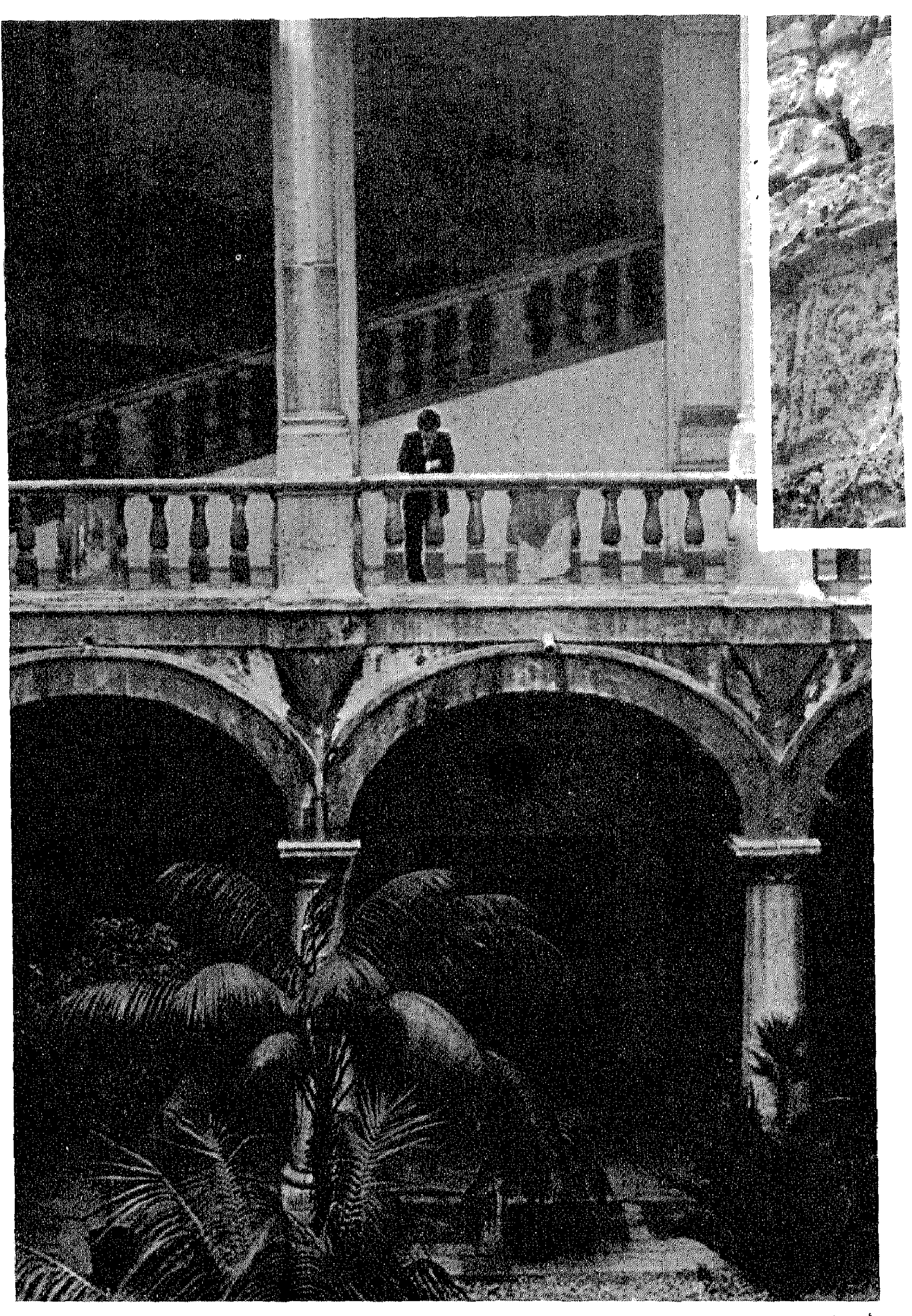


حـوافي لتزيين الحمامـات «كـافـالا ديانا».

نفوذ لهم في مدينة أفرسا (AVERSA) وذلك في سنة ١٠٣٠م. ومن هناك أخذوا يتطلعون إلى صقلية القريبة التي كانت آنذاك موزعة الولاء بين عدة أطـراف دون أن يتمكن أحدهـا من حسم الأمور لمصلحته.

وفي تلك الأثناء ظهر زعيم النورمان روجار الأول (ROGERO1) متلهفاً لاجتياح الجزيرة ومنتظراً الفرصة المواتيـة لتحقيق هدف كـان هاجسه منـذ ان استقر بـه المقام في جنـوب ايطاليا. وكان على «صقلية الاسلامية» ان تنتظر مصيرها المحتوم بعد فشل المحاولات اليائسة لانقاذها، فتركت في النهاية وحيدة في وجه الغزو النـورماني المـدعـوم من البـابـويـة. ولم تؤد المسـاعدات العسكـرية التي قـدمتها الجبهـة الاسلامية المفككة على الساحل الافـريقي إلى انقاذ الموقف والحؤول دون انهيار المقاومة في الداخل.

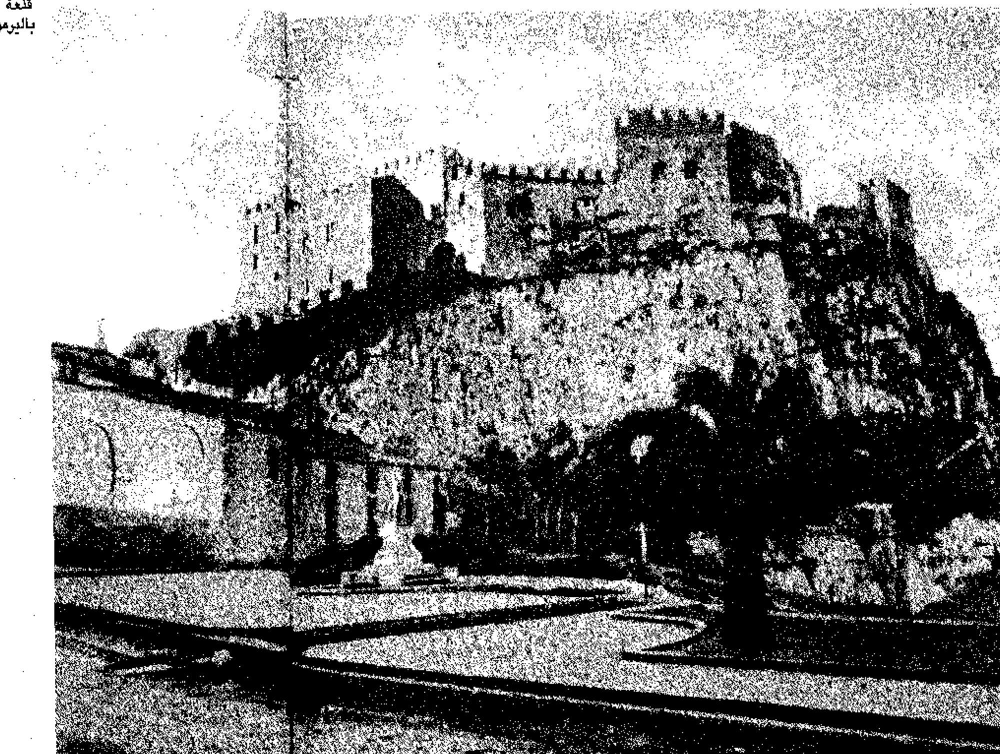
لقد كان الخطر الذي أحدق بصقلية عظيماً حقاً، كما يصفه أحد المؤرخين المعاصرين[١٠]. ولكن صمودها في المقابل كان رائعاً ومقاومتها كانت بطولية. فقد تكتلت ضدها المدن الايطالية إلى جانب النورمـان، وحشدت قـوات بحريـة



أحد قصور بالرمو حيث تبدو الهندسة العربية في بنائه

ضخمة حول العاصمة (بالرمو)، التي قاومت بشراسة مدة خمسة شهور متواصلة[11]. كذلك كان شأن المدن الأخرى التي تطلبت الكثير من الجهد ومن الوقت قبل أن تستسلم الجزيرة نهائياً، بعد عشرين عاماً من القتال الصعب (١٠٧٢ - ١٠٩١م).

وعلى عكس ما كان يحدث عادة في أعقاب الاحتلال العسكري، فإن صقلية النورمانية لم تقطع صلتها بماضيها العربي الاسلامي، ولم تنجرف في تيار التعصب الديني الذي بدأ آنذاك يجتاح اسبانيا لبضعة قرون لاحقة. فقد أعجب النورمان إلى حد كبير، بالمستوى الحضاري الذي بلغه أسلافهم في صقلية وحرصوا على التعامل معهم بروح إيجابية وعقل مفتوح. وتميزت الفترة اللاحقة من تاريخ الجزيرة بالهدوء والاستقرار، متجلياً خلاله التعاون بين النورمان والعرب بصورة تثير الدهشة. ولم يقتصر ذلك في النطاق المحلي فقط، بل تعداه إلى خارج الجزيرة حيث قامت علاقات ودية بينهم وبين الفاطميين وغيرهم من القوى الفاطمية في المغرب[12]. وكان رائد هذه السياسة الانفتاحية روجار الثاني (ROGEROII) الذي كان متأثراً



قلعة كاكامو - باليرمو (صقلية)

بالاسلام ومتعطشاً للثقافة العربية[13]، مما أتاح لصقلية في عهده ان تأخذ دورها المتميز في اطار العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب.

ولقد أثمرت جهود روجار ومن ثم ابنه غليام الثاني (GUILLAUME II) في خلق مجتمع متطور في صقلية يبيح حرية المعتقد والعبادات فكانت احدى المعابر الحضارية المهمة لانتقال الفكر العربي الاسلامي إلى أوروبا، حيث كان تأثيره شاملاً وجامعاً لكل معالم الحياة في الجزيرة، سواء في مجال الادارة أو الضرائب أو العادات الاجتماعية، فضلاً عن الثقافة.

وكانت اللغة العربية احدى ثلاث لغات متداولة في ذلك العهد إلى جانب اليونانية واللاتينية.

ولكن ملوك النورمان لم يكونوا جميعاً متنورين ومنفتحين على ثقافة العرب شأن الثلاثة الاوائل إذ أن الرحلة التالية من تاريخ صقلية تأثرت بالموجة الصليبية التي اجتاحت أوروبا في ذلك الحين، وتمحورت بشكل خاص حول اسبانيا، المحطة الحضارية الاخرى التي أقامها العرب على تخوم القارة من الغرب. وكانت موجة مضادة تحت راية الموحدين في المغرب الاقصى فقد تزامنت مع خروج صقلية النورمانية إلى دائرة التطرف، والقيام بحملات اضطهادية استهدفت بقايا المسلمين في الجزيرة، فانتهوا من حياتها إلى الأبد. ولكنهم سيبقون في تاريخها تراثاً عظيماً مجذراً، أنار الظلمات في أوروبا وألحقها بركاب المد الحضاري الذي أدركته بعد لهاث طويل.

■

الهوامش

(١) أستاذ التاريخ الاسلامي في جامعة بالرمو.
(٢) من بحث ألقاه في المؤتمر التاريخي الأول في بيروت آذار ١٩٧٥.
(٣) د. عاشور: أوروبا العصور الوسطى ص٢٢٨.
(٤) راجع: مجلة الرسالة المصرية، عدد ١٣٢ ص٤٨، (٦ - ١ - ١٩٣٦).
(٥) توفي المعز بن باديس سنة ٤٥٤هـ. النجوم الزاهرة ج٥ ص٧١.
(٦) مجلة الرسالة المصرية عدد ١٢٤ ص٤٨ (١٩٣٦/١/٦).
(٧) د. عبدالمنعم ماجد: العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ص ١٢٠ - ١٢١.
(٨) أرنست باركر: الحروب الصليبية ص١٦. ترجمة د.السيد الباز العريني.
(٩) د. عاشور: أوروبا العصور الوسطى ص ٢٢٩.
(١٠) لويس: القوى البحرية والتجارية في البحر المتوسط ص ٢٧٣.
(١١) د. احسان عباس: العرب في صقلية ص ١٣١.
(١٢) ماجد: العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ص ١٢٦.
(١٣) أماري (Amari): مكتبة صقلية العربية ص١٥.

ترسانة الخرطوم البحرية

(١٨٢١ - ١٨٩٦)

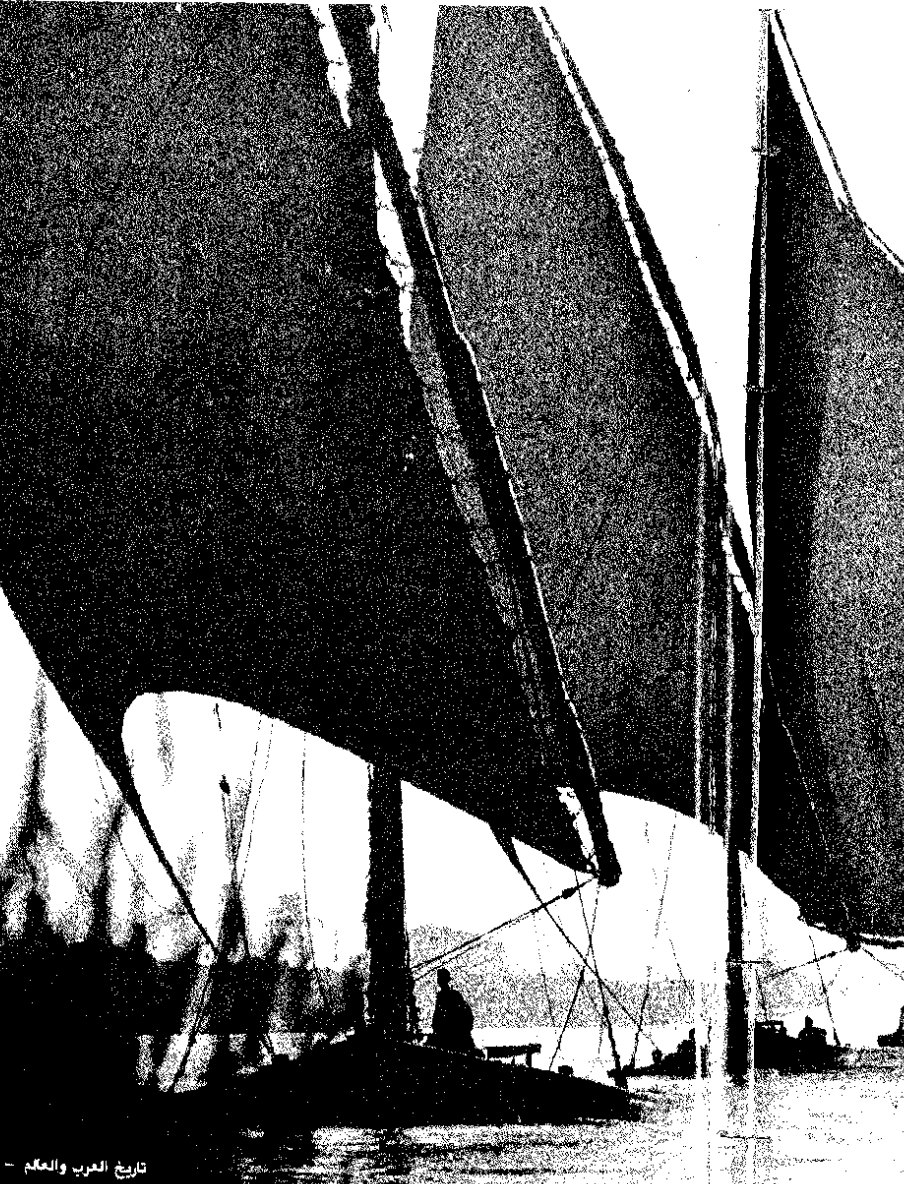
خديجة زروق

عثرت أثناء قراءتي لمجموعات الوثائق المحفوظة بدار الوثائق المركزية - وفي مجموعة المهدية بالذات - على أوراق خاصة بترسانة الخرطوم التي كنت قد قرأت عنها في كتاب (تاريخ الخرطوم) للدكتور أبوسليم فعمدت إلى تقليبها ووجدت أنها تعالج موضوعاً شيقاً وهاماً رغم ما يشوبها من نقص.. وقد اتضحت لي أهمية الموضوع أكثر عند مناقشتي للدكتور أبوسليم بشأنها إذا إتضحت أمامي رؤياً وتصور أوسع للموضوع.. فهو يرتبط بجوانب كثيرة هامة وحيويّة وأولها الجانب التجاري...

فالتجارة أرتبطت بالنقل النهري منذ أن بدأت البواخر تمخر عباب النيل، كما أنها إرتبطت، أيضاً، منذ بدايتها بعنصر الجلابة.. وكان لهذا الثنائي - التجارة والجلابة - اليد الطولى في نقل المؤثرات العربية والاسلامية إلى

الوثائق - العدد الخامس ١٩٧٥ - تصدرها دار الوثائق المركزية (السودان).





أقاصي البلاد.. بجانب هذا فان توسع التجارة قد ساعد كثيراً على انتشار الطرق الصوفية حتى ان أصحاب هذه الطرق أتخذوا مراكزهم على طريق القوافل التجّارية حيث يقدمون للتجار الطعام والحماية والبركة مقابل ما يحصلون عليه من هبات. كما أن التجّار في تنقلهم كانوا ينقلون أخبار هذه الطرق ومذاهبها المختلفة وأخبار أصحابها حتى أصبحوا بمثابة أجهزة دعاية وأعلام...

لا يعرف الشيء الكثير عن النقل النهري في السودان في العهود القديمة حتى سقوط مملكة سنار عام ١٨٢١...ولا يعني هذا أن حياة سكان السودان في تلك الفترة لم ترتبط بالنهر أو تتصل به في شيء لأن الأرتباط بالنهر بدأ منذ القدم خاصة عند سكان المناطق التي تقع على النيل.. ويذكر الطيب محمد الطيب كمثال، النوبة في شمال السودان حيث تعكس رسوماتهم ذلك بوضوح..كما يقول أيضاً أن الفرنج كانت لهم غزوات نهرية ضدّ بعض القبائل ويوضح أن الرحلات النهرية في البداية كانت ترتبط بالصيد حيث كانت الرحلة تستغرق أسبوعا كاملاً.. ثم دخلت جوانب اخرى منها نقل الركاب وبضائعهم كما يذكر أيضاً أنه كان للبحر آداب ونظم توضح العلاقة بين صاحب المركب والريّس والنوتية..[١].

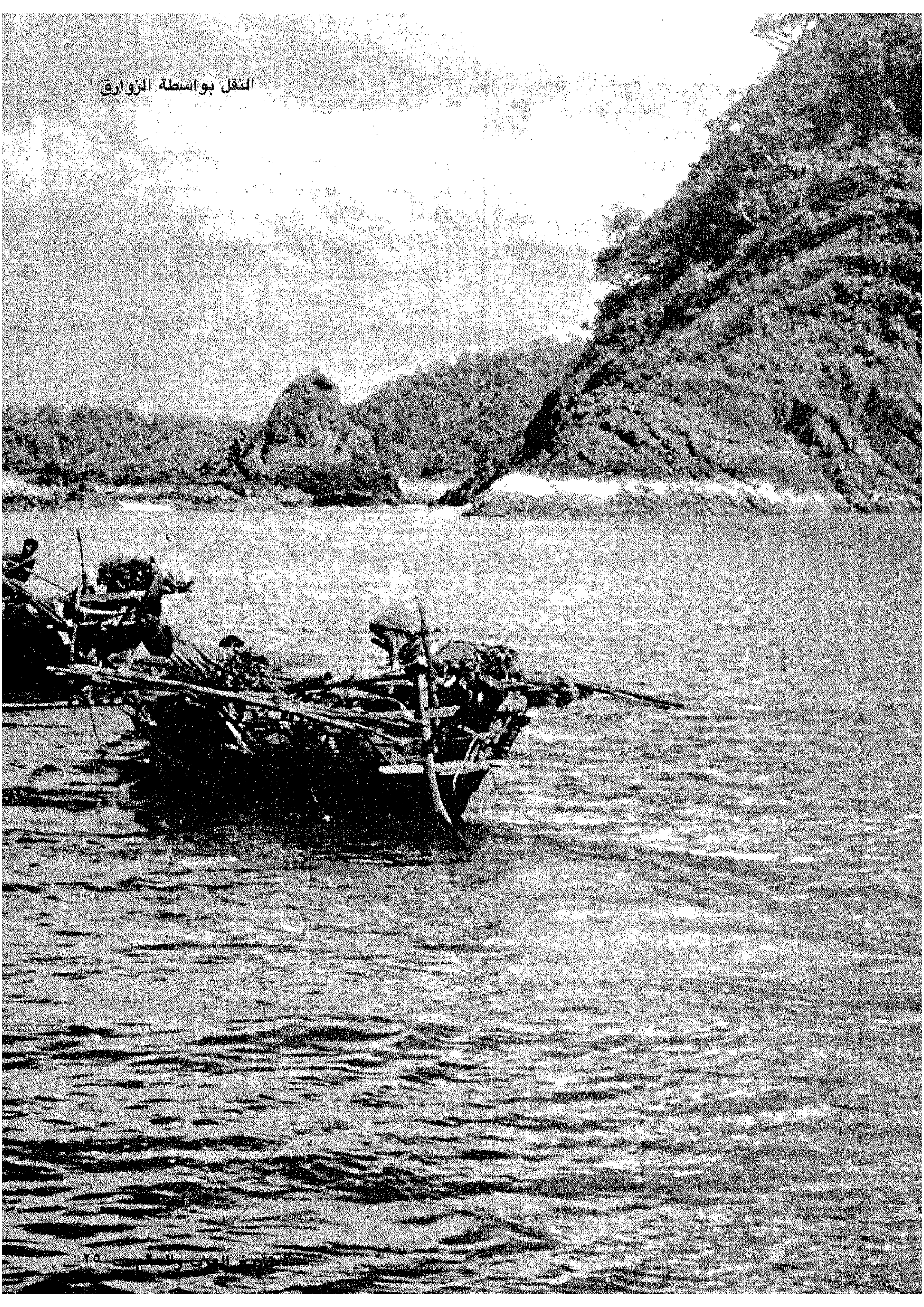
ومن المرجّح أن النقل النهري في العهود القديمة أقتصر على المراكب الشراعية البدائية التي تكفي لعبور النهر من جانب إلى آخر دون أن تكون له أي أهمية تذكر في مجال التجارة وذلك نسبة لضعف الحركة التجارية في ذلك الوقت نتيجة لضعف التجارة نفسها..

وبدخول الأتراك المصريين إلى السودان في عام ١٨٢١ بدأ النقل النهري يدخل طوراً جديداً يمكن أن يقال عنه أنه ثورة إذا ما قورن بسابقه.. فقد أدخل الأتراك طرازاً جديداً من المراكب لم يعهده الأهالي من قبل كما أنهم أول من أدخل السفن البخارية في السودان وجلبوا منها اشكالاً وأحجاماً مختلفة للتجارة ونقل الركاب والاستكشاف. وقد كانت رغبتهم في التوسع هي أساس أهتمامهم بالنقل خاصة وأنه السبيل الوحيد الذي يمكن الاعتماد عليه في وقت كانت الدواب هي سبيل المواصلات....

وقد برز اهتمام الأتراك بالنهر في فرق الاستكشاف التي بعثوا بها ومن أشهرها بعثة صموئيل بيكر الى افريقيا في عام ١٨٦٩م. وبعثات سليم قبطان الثلاث في عام ١٨٣٩م، ١٨٤٠م، ١٨٤١م. ولقد نجح الأتراك في بسط نفوذهم في مناطق امتدت حتى حدود يوغندة.... ويمكن أن نلمس الاهتمام بالنهر منذ عام ١٨٢١م. حين حاول بعض مهندسي حملة الفتح عند غزو السودان، فتح مسار للسفن في الشلال الثاني[٢] وبالرغم من فشل المحاولة إلاّ أنها أثبتت إهتمامهم بالنقل لايجاد مناطق نفوذ جديدة. وبدأ الأتراك يتجهون إلى توسيع صناعة المراكب والسفن في الأماكن التي يتواجد بها شجر السنط بعد أن أثبت فعاليته في هذا الضرب من الصناعة فأقيمت مراكز في سنار والكاملين وبربر ودنقلا، وجلبوا لها العمال المهرة من المصريين ومن مختلف الجنسيات كما بدأ يفد إليها الكثير من السودانيين للعمل في صناعة المراكب وقد كان منهم والد الأمام المهدي...

وبعد أن أتسعت صناعة المراكب وأنتشرت أنشأ الأتراك قاعدة مركزية في الخرطوم عند المقرن على ضفةالنيل الأزرق بعد حوالي كيلو ونصف غرب الخرطوم وقد عرفت بترسانة الخرطوم البحرية وكان يعمل بها مهندسون وفنيون وعمال من جنسيات مختلفة كما أوضحت سابقاً... وقد كان مدرب الترسانة الأيطالي وتلامذته هم الذين اشتركوا في الدفاع عن الخرطوم عندما حاصرها المهدي وبعد سقوطها وانتصار المهدي أنضموا لخدمته.. أما مدير الترسانة فكان مصرياً ويدعى حسين بيه ظهران..

ولقد كانت أدارة المطبعة الحكومية ملحقة بالترسانة وهي تتكون من المطبعة ومخزن كبير للورق وورشة تجليد للكتب والدفاتر.. وقد طبع فيها الأتراك كل مستلزمات الحكومة من المطبوعات.. ويسكن عمال الترسانة ومعظمهم من السّود – منطقة تعرف بالمنجرة قرية من الترسانة وفي جانب منها تقوم صناعة مراكب الأهالي وقد ظلت المنطقة آهلة بسكانها حتى رحّلوا بعد الاستقلال.. ومن الملاحظ أن عمال



النقل بواسطة الزوارق

الترسانة المهرة جلهم من المصريين.. وقد وصف Sandis في كتابه «Royal engineers in egypt & Sudan» عمال مركب (الناصر) عند حملات استرداد السودان وهي تخطي الشلال، بأنهم مصريون يرتدون الطربوش وقد كان تخطي الشلال في ذلك الوقت من أخطر التحديات التي تواجه البحارة..

الجمهورية العربية المتحدة
وادى حلفا
بورسودان
السودان
ام درمان
الخرطوم
وادمدني
الابيض
ملكال
جوبا
اوغندة

ومن الواضح أن عملية صنع البواخر لم تكن من مهام عمال الترسانة في البداية فقد كانوا يستجلبون أجزاء الوابور عبر الصحراء من كورسكو وسواكن بالجمال ثم يقومون بتركيبها.. كما يعملون أيضاً على صيانة الوابور عندما يحدث بها عطب ويعتبر العبابدة والبشاريون العمال الأساس في تزويدهم بهذه الأجزاء نسبة لما عرفوا به من بأس وشدة تحمل [٣].. وقد كانت باخرة الأسماعيلية التي رافقت صمويل بيكر في رحلته، أول سفينة تصنع بالسودان وكان ذلك في كندكورو بالجنوب في عام ١٨٧٥.. وأهتم الأتراك كثيراً بتوسيع النقل النهري لربط أجزاء البلاد المختلفة وقاموا بمسح شامل لمعرفة المياه الصالحة للملاحة وخاصة على البحر الأحمر حيث ميناء سواكن وأن كان نشاطها قد اقتصر على نقل الحجاج من وإلى جدة نتيجة لضعف تجارة البحر الأحمر السودانية....

ويذكر هيل أن أول باخرة مخرت باب النيل أبحرت من ميناء الأسكندرية عام ١٨٢٨[٤] إلّا أننا لا نعرف بالضبط تاريخ أول باخرة سودانية ومن المرجح أن ذلك يرجع إلى عام ١٨٥٠ حين حاول تاجر من ساردينا إنشاء شركة بواخر ذكر أنه يريد بها تطوير منطقة جنوب السودان غير أن محاولته لم تر النور..

والبواخر النيلية لعبت دوراً هاماً في حصار الخرطوم فقد كانت الحمم التي ترسلها وهي في وسط الماء بعيداً عن متناول يد الأنصار السبب الأساسي في صمود المدينة وقد فطن الأنصار لأهميتها فاستولوا عليها مباشرة بعد سقوط الخرطوم.. ورغم الدمار الذي أصاب الخرطوم أثناء حروب الأنصار فقد ابقوا على الترسانة.. وقد نقلت من مكانها القديم على المقرن إلى مكان الكنيسة الكاثوليكية حيث أضيفت إلى بيت المال العمومي بالقرب من النهر وذلك لتسهيل عملية شحن وتفريغ البضائع.. وقد أوصلت بخط تلغرافي مع بيت الخليفة مما يوضح أهميتها بالنسبة للدولة... وقد كان خال الامام المهدي طه محمد أول من تولى إدارتها بعد فتح الخرطوم.

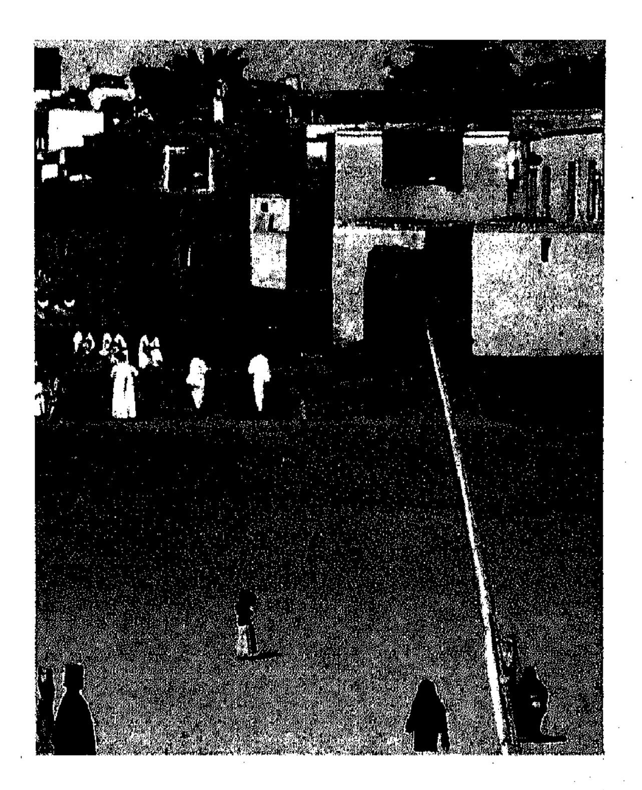
وتوضح المكاتبات الصادرة عن الترسانة



الزوارق الشائعة لاجتياز الترع والمياه الضحلة.

وتقاريرها عن سفريات البواخر أن اسماء الوابورات وبعض إصطلاحات الوظائف التركية قد أبقي عليها في المهدية رغم أن هذاالعهد كان يعير بعزم شديد كل النظم والاصطلاحات التركية.. ومن الوظائف التي ظلت سائدة: عنوان الوابورات النهرية، وعطشجي الوابور وباشيعطشجي وغيرها من الاصطلاحات.. ومن أسماء الوابورات: السلمية والتوفيقية والصافية.. ويدل هذا على أن موظفي الترسانة وعمالها الذين عملوا في التركية قد أعيدوا إلى الخدمة في هذا المرفق وسبق أن ذكرت في صفحة سابقة أن عساكر الترسانة الذين اشتركوا في مقاومة حصار الخرطوم قد أنضموا لخدمة المهدي بعد سقوط المدينة كغيرهم من الطابعين والمجلدين..

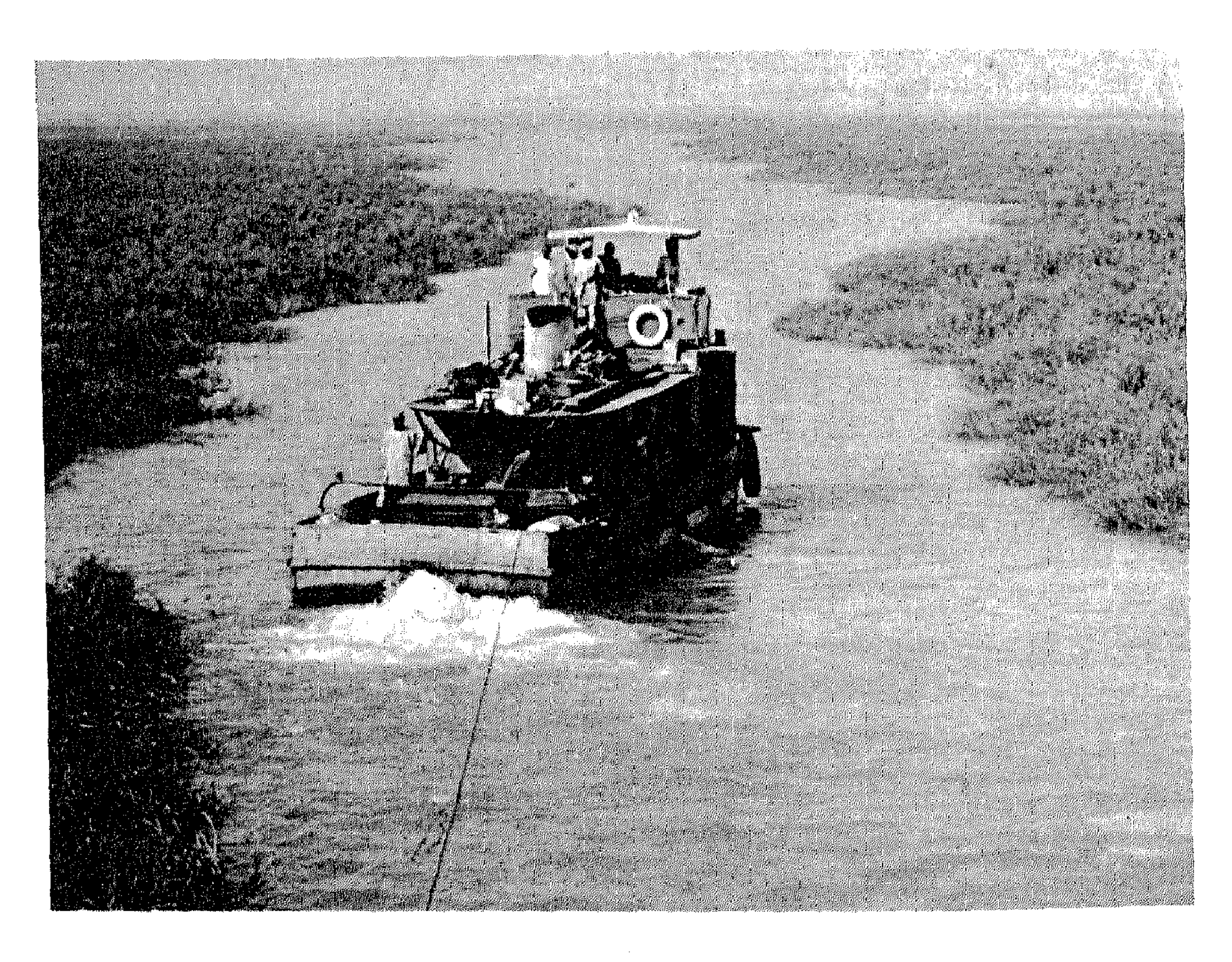
وقد كانت البواخر في رحلاتها المختلفة يتبعها عدد من المراكب والفلوكات وتستعمل المراكب لحمل المؤن من عيوش وغلال وغيره لتزويد المسافرين أو لنقله إلى المكان الذي تقصده الباخرة وفي بعض الأحيان كانت هذه المراكب تحمل عائلات الأنصار والجهادية المرافقة لهم في سفريتهم إلى الفلوكات فقد كانت تقوم بجلب الحطب المستعمل كوقود للوابور من الغلبات وذلك لأن حجم الفلوكة يساعدها على السير



داخل الغلبة لجمع الحطب... وكان العمال الذين يقومون بجمع حطب الوقود يعرفون بخدم الوابور وهم الذين يتولون أيضاً مهمة «توليع الوابور» كما ورد في أوراقهم[٥] وشحن وتفريغ المؤن وتوزيعها وذلك لأن الوابورات لا يمكنها أن ترسو في المياه الضحلة.. وقد لاحظت حسب الزمن المثبت في سجلات سفريات الوابورات أن الوابور بعد تزويدها بحطب الوقود تقف حوالي الساعتين ثم تبدأ في التحرك مما يوضح أن هذا هو الزمن الكافي لتسخين ماكيناتها.. ولا أدري أن كان هناك نوع خاص من الحطب يستعمل بهذه الوابورات قد وجدت في دفتر سفريات وأبور الصافية[٦] في المكان الخاص بالملاحظات أنه لم يوجد صنف الحطب مما أضطرهم لاستبداله بحطب الطندب الأخضر ولكنه لم يشر بوضوح إلى الصنف المقصود كما أنه لم يسمه.. لكنه على أي حال نوع من الحطب الثقيل..

أيضاً بجانب خدم الوابور أو العمال نجد في زمن المهدية ما يسمون بعسكر الوابور وهم مجموعة الجهادية والانصار الذين يرسلون في مهمة حربية، ثم السواري وهم مسؤولون عن حفظ الجبخانة وتوزيعها على المحاربين كما يوجد أجزجي خاص بالوابور وغالباً ما يقوم أيضاً بدور الطبيب من علاج ووصف للدواء وتوزيعه.. وهذا يوضح لنا جانباً من مهمة النقل النهري في عهد المهدية وهو الجانب الغالب والمهم - الجانب الحربي لمواجهة أعداءالمهدية ودحرهم ولتصفية نفوذ أعوانهم في عقر دارهم ولعل مراقبة عسكرية لمعرفة تحركات الأعداء وإفساد مخططاتهم.. كذلك نقل المؤن للمحاربين ونقل الجنود، وهي مهام كلها ترتبط بالحرب.. هذا بجانب نقل البريد وتوصيل رسالة شفوية هامة لأحد الأعيان.. ويعكس هذا بوضوح أن التجارة لم تكن من المهام الملحة للنقل النهري كما في العهد التركي حين كانت للخرطوم أهمية عظيمة في تحريك السفن التجارية والشراعية حاملة الأصناف المختلفة للتجارة لجميع مدن السودان وذلك لأن المجتمع المهدوي قد انصرف بكلياته إلى الدين والتقشف وزهد في ترف الحياة ثم أن التجارة نفسها أرتبطت بالاهواء السياسية ولذلك فكثيراً ما كان الخليفة عبد الله يقفل باب التجارة بين السودان ومصر... وهذا إلى جانب خطورة التجارة نفسها على أمن الدولة لارتباطها بالتجسّس وتهريب السلاح.. ومن الطريف أنه يوجد بالوابور حلاق خاص بها وهو في الغالب صاحب رتبة عسكرية.. وفي دفتر صادر الترسانة[٧] خطاب يطلب فيه تعيين حلاق آخر لأن الحلاق المرافق للوابور قد جُرح في أحد الأشتباكات.. ويوضح هذا أيضاً طول رحلة الوابور في كثير من الأحيان.. وطول الرحلة وقصرها مرتبط بعوامل خلاف الحرب وما يتبعها من مهام.. فهو يرتبط باعتدال الريح أو عدم حدوث عطب بالوابور، توفر صنف الحطب الصالح للوقود إذ أنه في كثير من الأحيان يكون البديل غير جاف مما يضطرهم إلى إنتظار وابور قادم للتزوّد منها.. كذلك ترتبط سرعة الوابور بالتيار.. فإن كانت الوابور تسير في إتجاه معاكس للتيّار نجد أن هذا يحدّ من سرعتها بعض الشيء هذا بجانب إعتراض سيرها بكمين للأعداء..

وقد حاولت تتبع سفرية أحدى الوابورات وهي وابور الصافية[٨] وكانت قد بدأت رحلتها من ميناء أمدرمان أو البقّعة[٩] كما كانت تسمى في ذلك الوقت إلى جهة فاشودة على النيل الأبيض وقد استغرقت هذه الرحلة حوالي الثلاثة أشهر ولم اتمكن من معرفة المدة



بالضبط نسبة لأن الأوراق التي تبين تاريخ إقلاع الوابور من ميناء أمدرمان ساقطة، وما وجدته يوضح تاريخ قيامها من ودّ الزاكي وهو ٤ محّرم سنة ١٣١٣[١٠] ووصولها إلى فشودة في ٢٩ ربيع الثاني سنة١٣١٣[١١] وهذا يعني أن زمن الرحلة من أمدرمان إلى ودّ الزاكي غير مثبت.. والجدير بالذكر أن مهمة رحلة هذه الوابور كانت لجلب الغلال والعيوش من تلك الجهة لتوزيعها على المحاربين... ويوضح تاريخ الرحلة أنها كانت أبان أحداث إعادة السودان..

وكانت الترسانة في العهد التركي من أكثر المصالح تنظيماً وذلك لأهتمام الأتراك وعنايتهم بمسألة النقل النهري وحين جاءت المهدية إحتفظت بمعظم عمالها وموظفيها ولذلك وجدت بعض الدفاتر المختومة من المديرية والتي ترصد وتسجل عليها تحركات الوابورات وسفرياتها كما يسجل بها إسم الوابور ورئيسها وزمن ومكان وتاريخ تحرك الوابور، كذلك المراسي التي ترسو بها وهي كثيرة ومن أشهرها أم درمان، الدويم، فاشودة، الكاملين، مدنى، سنجة وغيرها.. كذلك يسجل زمن وتاريخ إقلاعها من كلّ مرسى أو ميناء كما تكتب ملاحظات عن ما يحدث للوابور من عطب وتأخير للمؤن أو تفريغها أو إشتباك مع الأعداء حتى تنتهي الرحلة.. هناك أيضاً سجل خاص بعمال الوابور وهو بمثابة ملف الخدمة المعروف في المصالح المختلفة الآن غير أنه لا يوجد ملف منفصل لكل عامل أو موظف إنما هو ملف واحد شامل لهم جميعاً ويكتب فيه إسم الشخص وجنسيته أو القبيلة التي ينتمي لها والوظيفة سواء إن كان عطشجي أو باشعطشجي أو وكيل مهندس[١٢] كذلك يسجل إن كان قد نقل من وابور آخر أو نقل إلى وابور آخر ويتمّ أيضاً تسجيل أسماء العوائل المرافقة لهم.. وإجراءات التسجيل هذه تتم عند كلّ سفرية وذلك لمراجعة الكشف بعد نهاية الرحلة لمعرفة من هرب ومن ترك الخدمة.. وفي أعلى الصفحة الأولى من الدفتر يكتب إسم الوابور وإسم ريّسها وإن لم يكن لها ريّس

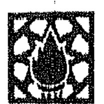
يثبت ذلك أيضاً.. بجانب هذا هناك سجل خاص بالرواتب الشهرية وصرفها من بيت المال العمومي الذي تتبع له الترسانة، والرواتب التي تصرف لهم عينية ونقدية ويحددها الطيب محمد الطيب بنسبة ريال للعامل وثلاث ريالات للخادم، أما الريّس فله نسبة من الربح العمومي، وكان ذلك في فترة التركية وحتى منتصف المهدية(١٣).

كذلك هناك سجل خاص بعساكر الوابور وعوائلهم لصرف المؤن وتوزيع السلاح لهم ومعرفة من يقتل أو يجرح منهم.. والطريف في الأمر أن من بين عمال الوابور بعض النساء العاملات وأسماؤهن مسجلة في دفاتر الخدمة وقد كتب أمامهن نفس الملاحظات التي تسجل أمام العاملين من الرجال. حتى التنقلات من وابور إلى الآخر وترك الخدمة والهروب.. وقد أثبتت بعض حالات الهروب وسط العاملات.. إلّا أنني لاحظت وجود كلمة «آدية» أمام جميع العاملات بدلاً من الجنس أو القبيلة وكنت أظن أن المقصود بها أنثى ولكنني وجدتها أمام بعض الرجال مما يرجح أن المقصود بها رقيق أو مملوك وأعتقد أنه، وإن كانت وظيفة هؤلاء النسوة غير مسجلة كالرجال في دفاتر الخدمة، إلّا أنه من الواضح أنها تقتصر على إعداد الطعام للذين على ظهر الوابور..

ولم تدخل الدولة المهدية تطوراً يذكر على النقل النهري حتى بدأت الاستعدادات لاستعادة السودان.. فبنيت وابورات عبارة عن مدرعات قوية أثناء الحملة على الخرطوم في سنة ١٨٩٨، متوسط سيرها حوالي ٦ أميال في الساعة وتسير على عمق قدمين من الماء منها «السلطان» «والملك» «والشيخ» وبعضها بُني عند الحملة على دنقلا في سنة ١٨٩٦ «كالظافر» و«الناصر» وسرعتها ١٠ أميال في الساعة. هذا بجانب الوابورات القديمة التي بنيت في العهد التركي والتي جدّدت أثناء حصار الخرطوم وبعضها عبارة عن وابورات صغيرة منها «التوفيقية» «والزبير» التي بناها غردون في حصار الخرطوم وبعد فتح المدينة ركبها الإمام المهدي وسماها «الظاهرة» ويذكر نعّوم شقير في كتابه «تاريخ وجغرافية السودان» أنه كان بالسودان حوالي عشرون وابور في العهد الثنائي إذ أن بعض الوابورات قد تعطلت في أحداث الثورة المهدية كما أن بعضها قد غرق في الشلالات كوابور «أمبابة» الذي غرق في شلال السبوقة، «والمنصورة» الذي أرسله غردون مع نصحى باشا لملاقاة الحملة الأنجليزية الآتية لأنقاذه وقد غرق من جهة شندي..

وهكذا فقد كان للنقل النهري سواء كان بالمراكب أو بالوابورات أهمية عُظمى في ذلك الوقت.. حتى بدأت سُبل المواصلات الحديثة وتطور النقل وبدأت أهمية المراكب والبواخر عامة تنحسر شيئاً فشيئاً حتى كادت أن تتوارى وتندثر..

■



الهوامش

(١) الطيب محمد الطيب – (مقالات عن المراكب) – مجلة الحياة عام ١٩٦٨م.
(٢) ريتشارد هيل – (الموصلات في السودان) (Transport in Sudan)
(٣) المعروف أن طرق الصحراء في ذلك الوقت لم تكن مأمونة..
(٤) رتشارد هيل: «المواصلات في السودان» Transport in Sudan
(٥) مهدية / ٤ / ٣ أوراق ترسانة الخرطوم – دار الوثائق المركزية..
(٦) مهدية: ٤ / ٣ / ٣.
(٧) مهدية: ٤/ ٣/ ٢ – دار الوثائق.
(٨) مهدية: ٤/ ٣/ ١.
(٩) كانت منطقة ينزل بها المهدي تسمى بالبقعة كالجزيرة أبا مثلاً.
(١٠) يوافق ٢٧/ يونيو/ ١٨٩٥
(١١) يوافق ١٩ / أكتوبر / ١٨٩٥
(١٢) توضح هذه الوظائف إحتفاظ الدولة المهدية باصطلاح الوظائف التركية.
(١٣) أنظر مقالاته بمجلة الحياة.

الملاحة بين الكواكب السيارة

نقولا شاهين

كان من بين النتائج التي أسفرت عنها الملاحة بين الكواكب السيارة تجديد النشاط في علم «الميكانيكا الفضائية» وهو فرع الفلك والفيزياء يعالج حركة الأجسام في مجال الجاذبية. ففي عام ١٦٨٧م، كان العالم «اسحق نيوتن» قد وضع المعادلات الكاملة للحركة في مجال الجاذبية، مبيناً أن القوانين التجريبية الثلاثة التي وضعها «كبلر» عن ظاهرة حركة الكواكب السيارة، مستخلصة من هذه المعادلات. وبالرغم من الأسماء العديدة التي رافقت تطور هذا الفرع من علم الفيزياء، فان هناك مسألة بقيت بعيدة عن حل نظري يعتمد عليه في تصميم القذائف، وهي حدس حركة جسم يتعرض لقوى جاذبية، ناشئة عن مجالين أو أكثر في الوقت نفسه.

وبعد مرور نحو قرن على دراسات «نيوتن»، قام العالم الفرنسي «جوزيف لويس لاكرانج» بتطوير طريقة تقريبية لمعالجة هذه المسألة. ففي حوالي عام ١٨٤٥م تم التوصل بهذه الطريقة إلى اكتشاف فرق مقداره واحد في المائة من الدرجة لكل قرن بين ما قررته الحسابات وما بينته التجارب في حركة الكوكب السيار «عطارد».

وكان من نتائج هذا الفرق البسيط أنه جاء بعد قرن تقريباً يثبت إلى حد ما نظرية النسبية العامة لـ «آينشتاين». وفي حال تطبيق نواميس «الميكانيكا الفضائية» وقواعدها على الملاحة بين الكواكب السيارة، فلا بد من اتخاذ إجراءات دقيقة للغاية، مع العلم ان العمليات الحسابية المعنية تقوم بها الأجهزة الحاسبة الالكترونية.

على أن النظريات التي ترافق تصميم مسار المركبات الفضائية التي تنطلق بين الكواكب السيارة، يمكن شرحها عن طريق وسائل أقرب كثيراً إلى الواقع الحقيقي، ولما كان من الصعب معالجة أكثر من مجال جاذبي في وقت واحد، لجأ العلماء إلى تقسيم النظام الشمسي إلى ثلاث مناطق، يتحكم في كل منها مجال جاذبي واحد. ففي المنطقة الأولى تتحكم جاذبية الأرض وحدها بالمركبة، وفي المنطقة الثانية حيث تجتاز المركبة معظم مجال الجاذبية الأرضية، تتحكم فيها جاذبية الشمس وحدها، وفي المنطقة الثالثة تتحكم في المركبة جاذبية الكوكب المراد الوصول اليه.

وبموجب معادلات «نيوتن»، تتخذ المركبة الفضائية لدى انطلاقها ضمن أي من هذه المناطق، مساراً «هذلولياً» (Hyperbolic) اذا كان انطلاقها بسرعة تمكنها من الافلات ومغادرة منطقة ما، واهليلجيا (Elliptic) اذا كان الأمر خلاف ذلك، كما هي الحال في جميع الأقمار الاصطناعية التي تدور حول الأرض، ولا تتمكن من مغادرة نطاق جاذبيتها، لأنها لا تملك الطاقة الكافية لذلك.

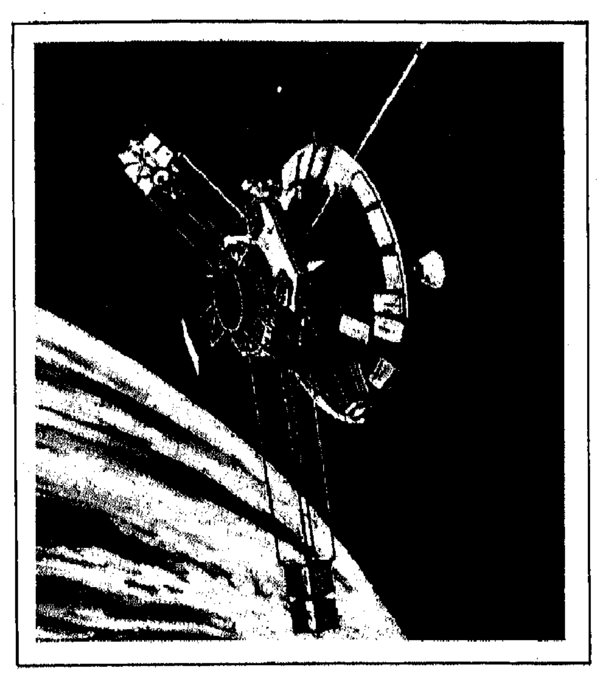
أما المركبة التي تنطلق إلى ما بين الكواكب السيارة، فانها تتمكن بفضل طاقتها العظيمة من التغلب على جاذبية الأرض فتتخذ مساراً هذلولياً، كما تشاهد من الأرض، ومساراً اهليلجياً (Elliptic) كما تشاهد من الشمس. واذا وقعت المركبة في نطاق جاذبية أحد الكواكب السيارة فانها تتخذ مساراً هذلولياً، وهي تنطلق حول الكوكب لتعود إلى مسار اهليلجي حول الشمس. وعند هذه النقطة يصبح

نقولا شاهين من مواليد ١٨٩٧ أستاذ في العلوم، الجامعة الاميركية في بيروت ومدير سابق لمرصدها.

بالامكان إشعال صواريخ ضابطة، لنزع جزء من طاقة المركبة ووضعها في مدار اهليلجي دائم حول الكوكب. أما إذا كان تصميم المسار قد هيأ المركبة للهبوط، فانها في هذه الحال تصطدم بالهدف وهي في مسارها الهذلولي.

وبعد النجاح الذي أحرزه العلماء في إطلاق مركبات فضائية تدور حول القمر وتبث أخباراً وصوراً عن طبيعة سطحه، وبعد انتصار العلماء في إنزال انسان على سطح القمر، فقد تبين أن الانسان يستطيع التغلب على جاذبية الأرض والخروج منها لكي يصل إلى جرم آخر حيث تتحكم فيه جاذبية ذلك الجرم بنسبة قوتها. وبالرغم من أنه لم يمض على اطلاق أول سفينة فضائية تحمل أول رجل إلى الفضاء إلا إثنان وعشرون عاماً فان رحلات الفضاء العديدة التي قام بها الانسان إلى القمر خلال هذه المدة قد شجعت على المضي في تحقيق الملاحة بين الكواكب السيارة. وقد أصبح شائعاً في الأوساط العلمية، أن السرعة المطلوبة للتغلب على جاذبية الأرض، هي ٤٠٠٠٠ كيلومتر في الساعة، وهي السرعة نفسها التي انطلقت بها مركبات «أبوللو» وغيرها من المركبات الفضائية إلى القمر.

ومن ناحية أخرى، أطلق العلماء السوفيات ثماني مركبات فضائية إلى كوكب الزهرة، خضع بعضها لجاذبية ذلك الكوكب فهبط على سطحه أو تحطم بعد أن أرسل معلومات مهمة خلال دوراته حول ذلك الكوكب، ومن بين هذه المجموعة من المركبات الفضائية المركبة «فينيرا - ٧» التي هبطت برفق على سطح كوكب الزهرة وظلت ترسل معلومات مدة ٢٣دقيقة، والمركبة «فينيرا - ٨» التي أطلقت في ٢٧ آذار/مارس ١٩٧٢، للقيام بسلسلة من القياسات العلمية، ولما كانت الحرارة على سطح الزهرة تبلغ نحو ٤٥٠ درجة مئوية فوق الصفر، أصبحت السفن الفضائية عرضة لظروف غير عادية مما حدا بالعلماء إلى تجهيز السفن الفضائية المرسلة إلى كوكب الزهرة بما يقيها وطأة هذه الحرارة الشديدة. والمعروف أن كوكب الزهرة يبعد عن الأرض مسافة تتراوح بين ٤٢و٢٥٠ مليون كيلومتر، حسب موقع الكوكبين

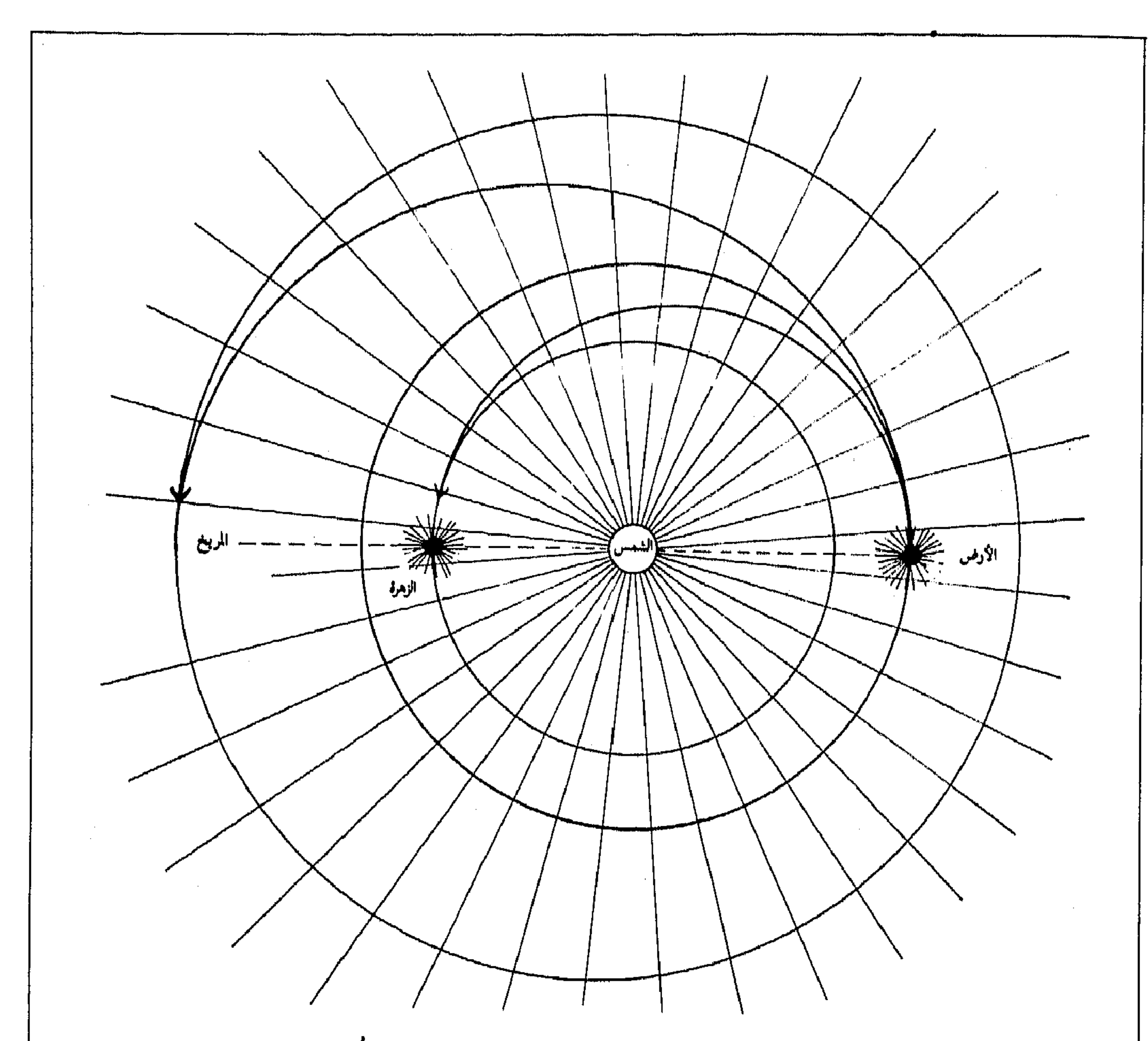


المركبة الفضائية (بايونير ١٠) التي أطلقت نحو المشتري سنة ١٩٧٢

في دوراتهما حول الشمس وعندما انطلقت مركبة «مارينر - ٩» نحو كوكب المريخ في ١٧ايار (مايو) عام ١٩٧١، كان ذلك استكمالاً لأبحاث تتعلق بمعرفة طبيعة سطح هذا الكوكب الأحمر الذي قال فيه أبو العلاء المعري:

ولنار المريخ من حدثان الدهر
مطف وان زهت باتقاد

وجدير بالذكر أنه سبق أن أطلقت مركبات أخرى من نوع «مارينر» نحو كوكب المريخ، والتقطت صوراً له وبثتها إلى الأرض دون أن تدور حوله. وقد جاءت هذه الصور بمعلومات تبين من خلالها أن سطح كوكب المريخ يتألف من فوهات البراكين، كما هي الحال بالنسبة لسطح القمر، وصحراء قاحلة تخلو من الفوهات والجبال، وصخور وأتربة تكونت بفعل انهيارات مع مرور الزمن. ووصلت هذه المركبة إلى نطاق جاذبية كوكب المريخ بعد رحلة دامت أكثر من خمسة أشهر قطعت خلالها مسافة ٤٠٠ مليون كيلومتر، بسرعة تبلغ نحو ١٨٠٠٠ كيلومتر في الساعة. وعندما وصلت المركبة الفضائية إلى منطقة جاذبية كوكب المريخ، تلقت أوامر من محطات المراقبة الأرضية، فأشعلت محركاً عاكساً، يعمل بالوقود السائل، مدة ١٥ دقيقة، فتدنت سرعتها إلى نحو ١٣٠٠٠ كيلومتر في



يمثل هذا الرسم مسارين لمركبتين فضائيتين احداهما تصل كوكب الزهرة والأخرى تصل كوكب المريخ وذلك عندما يكون بُعد موقع الهدف عند الأرض ١٨٠ درجة.

الساعة، وهنا أخذت المركبة الفضائية تدور حول كوكب المريخ مرتين كل يوم وتبث الصور من على بعد ١٢٢ مليون كيلومتر عن الأرض. وقد بلغ عدد الصور التي التقطتها المركبة الفضائية «مارينر» خلال الأشهر التي قضتها في الدوران حول كوكب المريخ أكثر من خمسة آلاف صورة.

وبعد بضعة أيام من اطلاق المركبة الأمريكية «مارينر – ٩»، أطلق العلماء السوفيات مركبتين فضائيتين هما «مارس – ٢» و«مارس – ٣» نحو كوكب المريخ في ١٩ و٢٨ ايار (مايو) ١٩٧١، وبلغ وزن كل من المركبتين أربعة أطنان ونصف الطن. وقد بدأت المركبة «مارس – ٢» بالدوران حول كوكب المريخ في ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٧١ فأنزلت على سطحه لوحة. أما المركبة «مارس – ٣» فقد هبطت على سطح المريخ برفق، وظلت تبث معلومات مدة ٢٠ ثانية تقريباً.

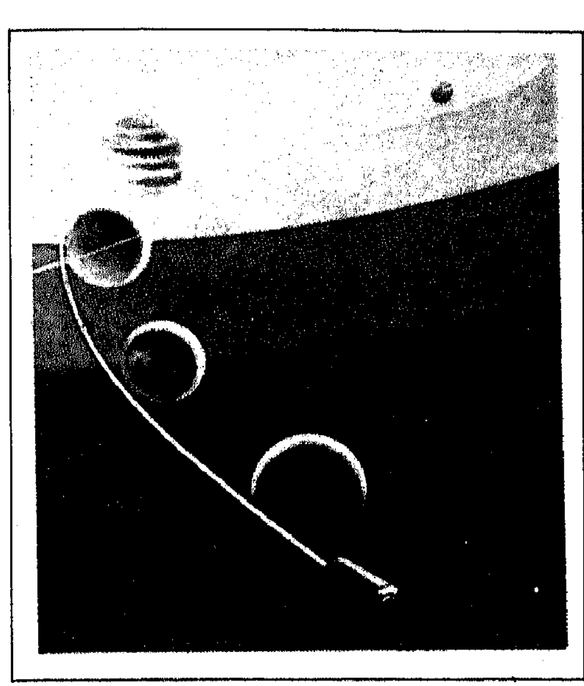
إلى المشتري وما وراءه:

هذا وما زال العلماء يتطلعون إلى القيام بمزيد من الرحلات الاستكشافية إلى كوكبي الزهرة والمريخ كلما كان هذان الكوكبان في وضع ملائم من الأرض، وهي ظاهرة تحدث ما بين خمس أو ست مرات كل عشر سنوات. ويقترح علماء الفضاء أنه بدلاً من استعمال مركبات فضائية معقدة التركيب وباهظة

التكاليف، كما هي الحال في «مارينر»، يقترحون استخدام مركبات من نوع «بايونير» التي أطلقت لأول مرة عام ١٩٥٨، وهي أصغر من مركبات «مارينر» حجماً، وتدور حول نفسها ٦٠ دورة كل دقيقة، كما يمكن حشوها بالأجهزة الحديثة الفريدة. وقد حملت أول مركبة من هذا النوع في داخلها نحو ٣٠٠٠٠٠ قطعة، ظلت تعمل بدقة مدة طويلة. وفي حال وضع مركبة فضائية من نوع «بايونير» في مدار حول أحد الكواكب السيارة، فان هذه المركبة الصغيرة يمكنها ارسال معلومات علمية مفصلة وافية، والتقاط صور بواسطة آلة تلفزيونية تعتمد على ترانزستورات يبلغ وزنها نحو أربعة كيلو غرامات،

وفي الثالث من شهر آذار (مارس) ١٩٧٢، أطلق العلماء الأميركيون مركبة «بايونير – ١٠» إلى الكوكب السيار «المشتري» في رحلة تستمر ٢١ شهراً تقطع خلالها نحو بليون كيلومتر بسرعة خمسين ألف كيلومتر في الساعة منتظرين أن تزداد سرعة هذه المركبة ازدياداً هائلاً في عام ١٩٧٣، وذلك عندما تقترب من كوكب «المشتري» بسبب قوة جاذبيته، فتصبح نحو ١٢٤٨٠٠ كيلومتر في الساعة، وتندفع نحو نهاية النظام الشمسي . وفي عام ١٩٨٣ أو ١٩٨٤ تفلت المركبة بما يبقى فيها من أجهزة من النظام الشمسي وتتيه في مجرتنا.

لقد أطلق علماء الفضاء العنان لتفكيرهم ودراساتهم، فجاءت النتائج شبيهة بالخيال العلمي، لكنها مشفوعة بالحقائق والأرقام الصحيحة. فمثلاً، تبين لهم أن أضخم الصواريخ المعروفة حتى اليوم، تتمكن بفضل زيادة مرحلة أخرى من مراحل الاطلاق، من حمل كمية زهيدة من الأجهزة نحو الكواكب السيارة البعيدة، ويستغرق هذا النوع من الصواريخ مدة لا تقل عن ست سنوات للوصول إلى الكوكب السيار «زحل» و١٦ سنة للوصول إلى الكوكب «أورانوس»، و٣١ سنة إلى الكوكب «نبتون». وبعد تفكير عميق اكتشفوا أن الجاذبية هي خير مصدر للقوة اللازمة للصواريخ الضخمة.



صاروخ نووي خاص بتجهيز المركبات الفضائية.

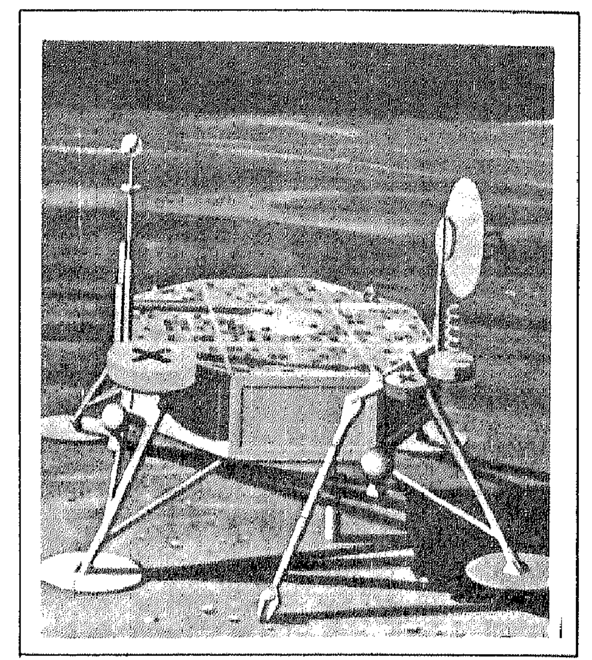
ويقول أصحاب هذا الرأي أن صاروخاً من نوع «ساتون – ٥» قد يصبح بامكانه اطلاق مركبة تكتسب عند مرورها بالقرب من كوكب «المشتري» سرعة تمكنها من الوصول إلى الكوكب السيار «زحل» في مدة ثلاث سنوات، وإلى الكوكب «أورانوس» في مدة ٦ سنوات. ومن جهة أخرى، وجد العلماء ان الكواكب السيارة تكون في وضع ملائم بالنسبة إلى الأرض في عام ١٩٧٨، بحيث يصبح في امكان مركبة فضائية اذا ما أطلقت في ٧تشرين الأول (اكتوبر) من تلك السنة، المرور بالمشتري فزحل، فأورانوس، فنبتون، مكتسبة دفعاً جاذبياً عند اقترابها من كل كوكب من هذه الكواكب السيارة.

دور الدماغ الالكتروني في الرحلات الفضائية:

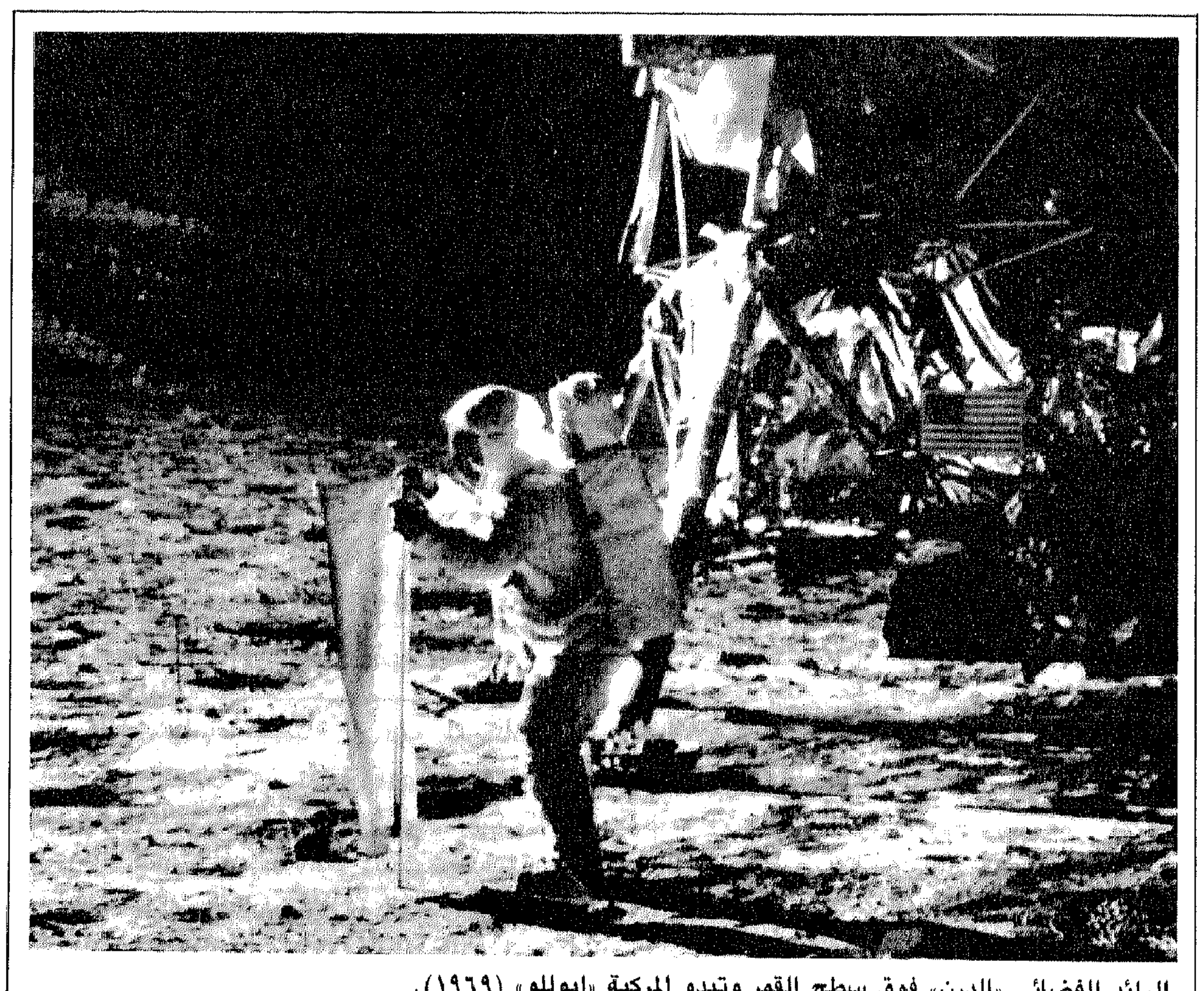
يعزي النجاح الذي حققته المركبة الفضائية «مارينر – ٩» في رحلتها إلى كوكب المريخ، إلى دماغ ألكتروني ثبت في المركبة الفضائية نفسها وكان يتحكم كلياً بتصرفاتها، وهكذا تم وضع أول قمر اصطناعي من صنع الانسان، يدور حول كوكب سيار غير الأرض. وقد أصبح

معروفاً أن كل مرحلة من المراحل التي تنطوي عليها الرحلات الفضائية، تتطلب الاعتماد المتواصل على الحسابات الالكترونية سواء كان ذلك في عملية التصميم أو أثناء مراحل الانطلاق.

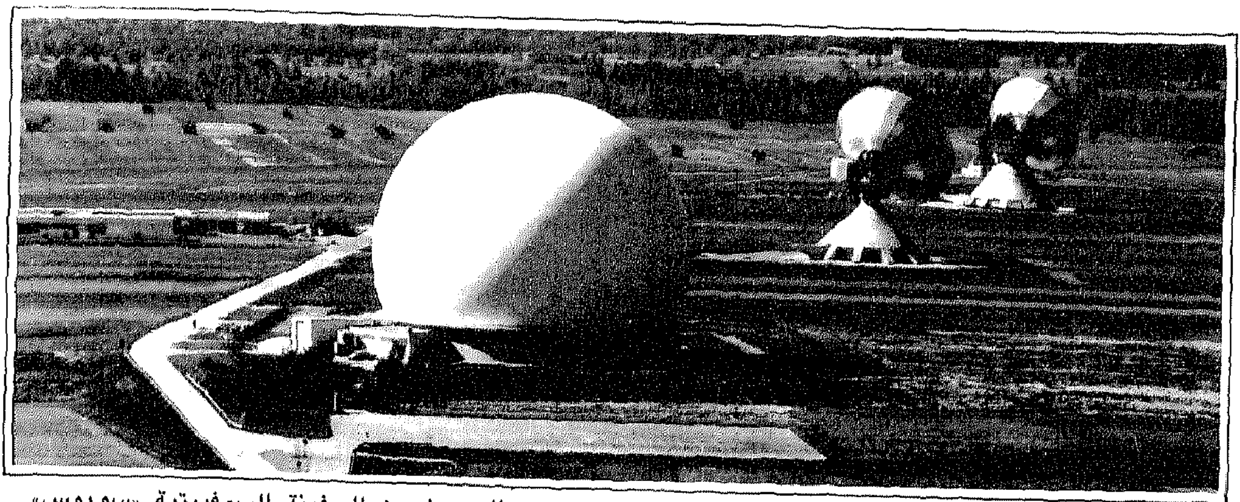
وفي عام ١٩٦٨ أطلق العلماء السوفيات المركبة «كوسموس – ١٨٦» وبعد ثلاثة أيام من اطلاقها، أطلقوا جرماً آخر هو «كوسموس – ١٨٨» في مدار «كوسموس – ١٨٦» وعلى بعد نحو ٢٤ كيلومتراً منه. وعند اطلاق «كوسموس – ١٨٨»، بدأت الحاسبة الالكترونية الموجودة في «كوسموس – ١٨٦» عملها، للالتحام تلقائياً بـ «كوسموس – ١٨٨»، فوجهت المركبتان أجزاءهما الالتحامية الواحدة نحو الأخرى، وهناك فوق احدى جزر الأطلنطي الجنوبي تم التحام المركبتين، وبقيتا معاً مدة ثلاث ساعات ونصف الساعة قامتا



مركبة فضائية من طراز «فايكنج» مجهزة بالسوابر جرى اطلاقها إلى كوكب المريخ، عام ١٩٧٣.



الرائد الفضائي «الدرن» فوق سطح القمر وتبدو المركبة «ابوللو» (١٩٦٩).



المحطة الفضائية الالمانية اللاسلكية «رسيتينج» التي لعبت دور الوسيط بين السفينة السوفييتية «سويوس» والاميركية «ابوللو».

خلالها بالمهمة العلمية المطلوبة، ثم انفصلتا وعادتا إلى الأرض برفق.

هذا نموذج لما تقوم به الأدمغة الألكترونية من مهام علمية في حقل الفضاء، وهناك الكثير من الأمور العلمية الأخرى التي تم إنجازها بفضل هذه الأجهزة كتوجيه مركبات «أبوللو» عند انطلاقها نحو القمر بدقة فائقة، والاتصالات بين المراكز الأرضية ورجال الفضاء على سطح القمر، وتتبع مسارات المركبة «لوناخود» التي ظلت تجوب بقعة قمرية لسنة أو أكثر.

وقد بدأ علماء الفضاء في سنة ١٩٧٠ في تصميم دماغ ألكتروني لتوجيه المركبات غير المأهولة في رحلاتها بين الكواكب السيارة. كما حصل عند أطلاق المركبة الفضائية «بايونير - ١٠» نحو الكوكب السيار «المشتري». وهكذا نرى أن الملاحة بين الكواكب السيارة تستند إلى درجة كبيرة على أدمغة ألكترونية حديثة تفوق الأجهزة السابقة من حيث الدقة وجودة الاداء.

مصادر الطاقة في الملاحة الفضائية:

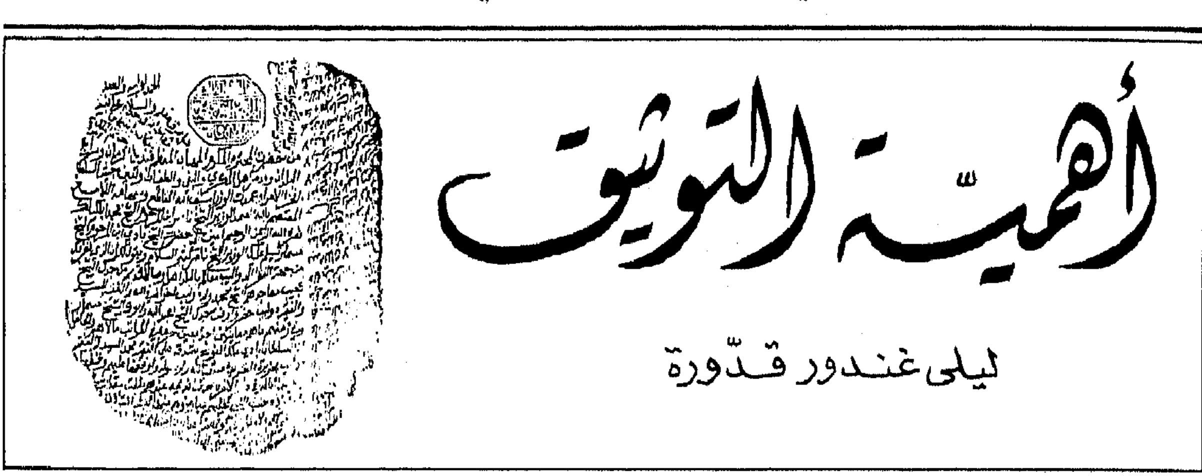
يقول بعض علماء الفضاء أن دفع المركبات بين الكواكب السيارة عن طريق قوى الجاذبية يساعد على تخفيض مدة الرحلة بشكل محسوس، لكنه لا يساعد على تخفيض كمية الوقود المستهلكة والدفع الأولي الهائل الذي تحتاج اليه المركبة عند اطلاقها إلى الفضاء. لكن هناك طريقة جديدة للدفع يجري العمل على تطويرها وهي المحرك الأيوني الذي يستمد قوته من أشعة الشمس. وقوام هذه العملية الطاقة الكهربائية المستمدة من الخلايا الشمسية.

ويختلف الأمر هنا عما هو عليه في الصواريخ الكيميائية، حيث يستهلك معظم الوقود في الدقائق الأولى القليلة، لأن المحركات الأيونية تستطيع العمل لأشهر وحتى لأعوام دونما توقف، وبمقدار زهيد من الوقود. وقد تمكن محرك أيوني من العمل المتواصل مدة ٣٤١ يوماً. وهكذا بعد أن يستنفد الصاروخ الكيميائي وقوده، ويدفع المركبة الفضائية إلى خارج نطاق جاذبية الأرض، يبدأ المحرك الأيوني عمله، وبصورة تدريجية تكتسب المركبة الفضائية السرعة المطلوبة لها خلال رحلتها التي تستغرق عادة أشهراً أو سنوات.

ويقول علماء الفضاء أن استخدام المحرك الأيوني مكان الوقود الكيميائي لزيادة سرعة المركبات عبر الفضاء السحيق، سيمكنهم من اطلاق سوابر إلى الكواكب السيارة الخارجية، عن طريق صواريخ ذات دفع قليل، أو من اطلاق حمل كبير عن طريق صاروخ من نوع «ساتورن - ٥». كما أن جاذبية الكواكب السيارة سيكون لها أثرها الفعال في أن يفسح المحرك الأيوني المجال أمام سوابر غير مأهولة لدراسة طبيعة الكواكب السيارة الخارجية والمناطق الواقعة خارج نطاق النظام الشمسي.

■

تزداد أهمية علم التوثيق مع تقدّم المجتمعات بعامة، وقد غزا في لبنان مجالات عمل مختلفة وخصصت له كلية الاعلام جانباً مهماً في فصولها الدراسية وأردفته إلى اسمها، وتعرّفنا هنا مديرة الفرع الأول لهذه الكلية على هذا العلم محدّدة دلالته واهميته، وهي الخبيرة والمسؤولة في هذا المجال.



أهميّة التوثيق

ليلى غندور قدّورة

من أهم ماتتميز به المجتمعات المتطوِّرة الحديثة اهتمامها لفنون حفظ الوثائق والمعلومات وتصنيفها واسترجاعها بحيث تكون هذه الوثائق والمعلومات بمتناول أيدي الباحثين والقائمين على السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية وغيرها. فالمجتمعات المتطورة تعي تمام الوعي أن التخطيط العلمي لابد وأن يرتكز على الاحصاءات الدقيقة والبيانات السليمة. من هنا كانت أهمية موضوع التوثيق.

إن الدلالة الاصطلاحية التي تعنيها كلمة «توثيق» مأخوذة من الدلالة الاصطلاحية المقابلة لكلمة (Documentation) الغربية وهي تلك الدلالة الاصطلاحية المرتبطة بـ«المكتبات»: وبـ«علوم المكتبات»: والمكتبات كمهنة وعلوم المكتبات تعتمد على ثلاثة محاور رئيسية هي:

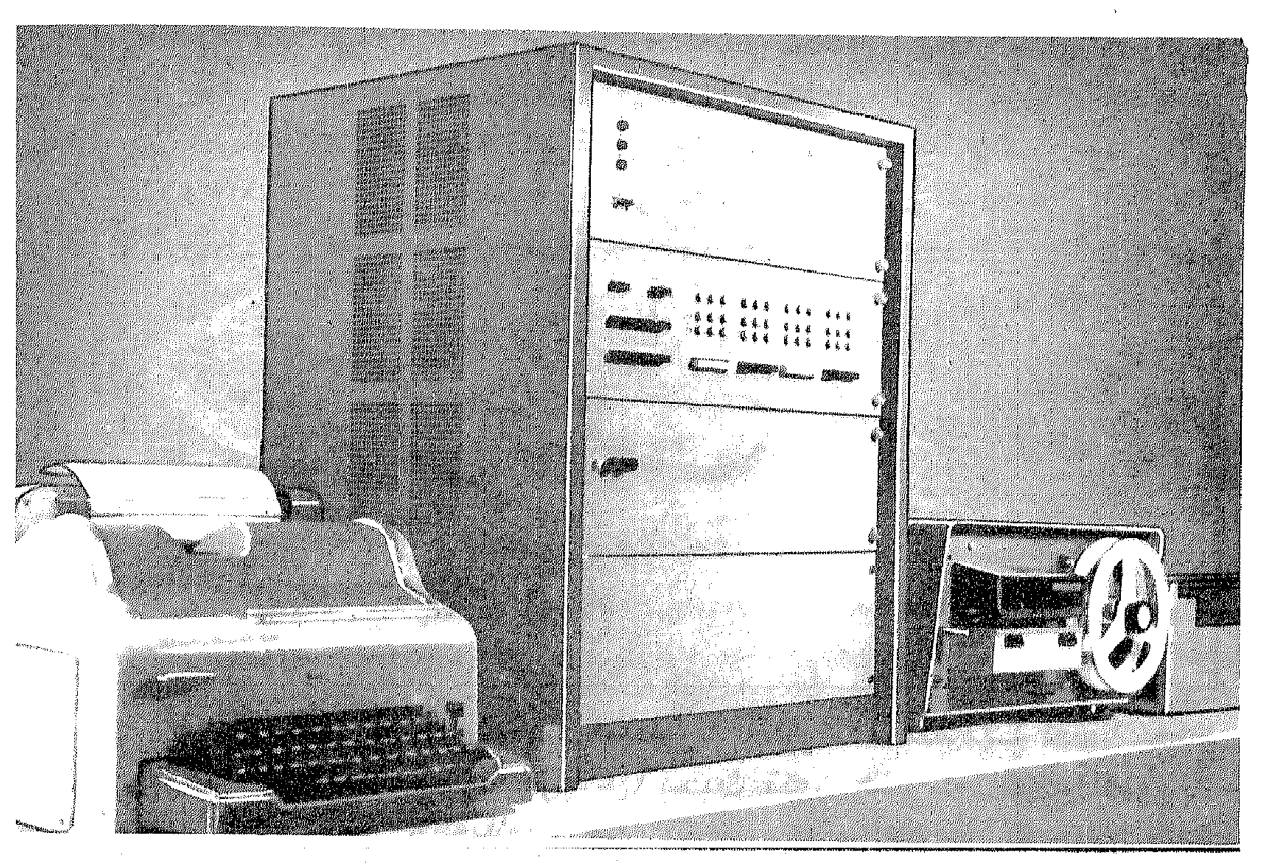
(أ) **إقتناء** مواد المعرفة من الكتب والدوريات والنشرات وغيرها من الأوعية الحديثة: كالشرائط الضوئية والمسجلات الصوتية على اختلاف الأنواع والأشكال في كل منها.

(ب) **وتنظيم** هذه المواد بما يتلاءم مع طبيعتها ومع تطلعات الباحثين والقراء حيث يتم تصنيفها وفهرستها طبقاً لنظام معين يحقق هذا التلاؤم المزدوج.

(ج) وإتاحة هذه المواد للقراء والباحثين على شكل **خدمات وظيفية** تستجيب لحاجاتهم الفعلية أو المتعلقة على اختلافها في النوع وتفاوتها في الدرجة.

وقد جاء تفسير (Documentation) بهذا المعنى الاصطلاحي في أكبر قواميس اللغة الانجليزية (Webster) وأحدثها وجعلها تعتمد على تلك المحاور الثلاثة وهي: الاقتناء، والتنظيم والخدمة. وقد كثر استخدامها بهذا المعنى الاصطلاحي في العربية خلال العقدين الأخيرين، حيث عقدت من أجلها المؤتمرات والندوات وقامت الحلقات والدراسات، كما أنشئت مؤسسات عديدة في كثير من البلاد العربية تقوم بهذه الوظائف الثلاثة بالنسبة للعلماء المتخصصين وكبار الباحثين، في مجالات العلوم والتكنولوجيا والتربية والتخطيط

ليلى غندور قدّورة، مديرة كلية الاعلام والتوثيق (الفرع الأول) الجامعة اللبنانية.



والاقتصاد وتسمى بأسماء تشتمل على هذه الكلمة مثل «مركز التوثيق التربوي أومركز التوثيق بمؤسسة الطاقة الذرية ومثل المركز القومي للأعلام والتوثيق حيث يضاف إليها مصطلح آخر (الاعلام أو المعلومات) لأن كلمة (Documentation) الغربية نفسها بدأت تخلي مكانها لاصطلاح جديد هو (Information Science) الذي اختير له في العربية «علم الأعلام» أوالاعلام أو المعلومات. على أن الأمر في العالم العربي مايزال حتى هذه اللحظة وكأنه يحتفظ لكلمة «توثيق» بالمنزلة الأولى لهذه الدلالة الاصطلاحية قبل كلمة «اعلام». وقد انتشر في الفترة الأخيرة استعمال كلمة «معلومات» التي قد تكون بديلاً لكلمة «توثيق».

بناء على هذا فالفكر الانساني يتخذ في وجوده دورة مستمرة يمر خلالها بمواقف متتالية من «**بحث**» لاحدى القضايا أو المشكلات التي تواجه الانسان إلى «تكوين» فكرة جديدة عن القضية أو المشكلة ثم **تحميل** هذه الفكرة من أحد الأوعية المألوفة لنقل الرصيد الفكري كتاباً مستقلاً أومقالة بإحدى الدوريات أوغيرها من وسائل التسجيل.

ثم يبدأ النصف الثاني من الرحلة حينما يجري **إقتناء** الأوعية التي تحمل تلك الفكرة من جانب إحدى المكتبات أومراكز التوثيق، حيث يتم **تنظيم** تلك المقتنيات بما يتلاءم مع طبيعتها الخاصة ومع تطلعات الباحثين والقراء وأخيراً لابد أن تظهر بعض المواقف التي تحتم «**استرجاع**» تلك الفكرة لكي يستعين بها أحد العلماء.

إلى هنا بدا فن حفظ المعلومات أي أسلوب حفظ المعلومات وتصنيفها والرجوع إليها وكأن الاستفادة منه وقف على العلماء والباحثين والمسؤولين غير أنه في البلدان المتقدمة بلغ من المرونة والاتقان والحيوية ماجعله يؤدي الخدمات المتنوعة لكافة الجماهير على حد سواء. هذا ماحدا بكثير من المؤسسات إلى إنشاء خدمة عامة للجمهور تتيح له فيها أن يوجّه إلى قسم المعلومات مايشاء من أسئلة مختلفة متنوعة، وكل ذلك عن طريق المراسلة أو التلفون.

وحتى أننا نجد دروساً في عدة مواضيع في أبحاث المراجع وفي الحسابات العلمية والهندسية وفي ترجمات المصطلحات الفنية والتقنية من لغة إلى اخرى وفي ألعاب كالشطرنج

والتشيكرز حين تستعمل في مواجهة كمبيوتر مبرمج باعتباره منافساً قديراً، كلها أمثلة عن الامكانيات العديدة المتاحة في شبكات المعلومات المجمعة في الدماغ الالكتروني.

إن كل هذه النجاحات التكنولوجية مجتمعة قد جعلت من المعلومات مصدر ثروة أساسياً جديداً يكمل مصادر الثروات الطبيعية الأخرى كالطاقة والثروات المعدنية.

إن التوثيق وهو التقنية يتطور كثيراً والتغيرات في ميدان العلوم الوثائقية يومية. والتقدم في هذا الميدان سيكون كما توحي به التطلعات والنزاعات الحالية متعدد الجوانب وسوف يحدث على كل المستويات: بنيويات جديدة في الأنظمة، وأشكال تشغيل جديدة تماماً للأدمغة الالكترونية ووسائل تلقيم مجددة أيضاً.

وإن ما سوف تصير عليه وسائل التوثيق غداً، هو أمر يجري درسه أوربما تطبيقه في بعض المراكز ذات الامكانات المتقدمة، أولعله قيد التجربة والاعداد في بعض مؤسسات الأبحاث. إن مراكز وثائقية كبرى متمتعة بوسائل وإمكانات عظيمة تبصر النور وسوف يزداد عددها في السنوات المقبلة ازدياداً عظيماً. وهذه الأنظمة الوثائقية تتخذ مكانها في إطار التقنيات والعلوم والمجالات المتخصصة كما تدل على ذلك الأجهزة التي تستخدم حتى الآن.

إن نشر المعلومات في أنظمة وأجهزة الغد سوف يستخدم معتمدات جديدة كالميكروفيلم والأشرطة المسجلة والمخططات اليدوية على حساب المعتمدات التقليدية التي تتخذ الورق قاعدة لها.

فالتوثيق إذا لا يخص أصحاب الرأي وحدهم أوأصحاب الخبر في الصحافة والاذاعة والتلفزيون فحسب بل هو يخص جماهير المواطنين جميعاً.

إن الأركان الثلاثة بهذا العلم وتأثيرها على أوسع القطاعات الشعبية القارئة والمشاهدة والمستمعة هي **السرعة والنظام والموضوعية**. فبالسرعة تتيسر المتابعة لا اليومية بل لحظة فلحظة وبالنظام نختصر الزمن في الحصول على المعلومات من مكانها المحدد دون تشويش أوفوضى وبالموضوعية نستطيع الحصول على مختلف ألوان الحقيقة دون تحيّز(٣).

وهناك وثائق عديدة قد نشرت حتى اليوم على الميكروفيلم، ومن الممكن اليوم أن يشترك المرء في عدد من المجلات على شكل نسخ مصغرة وسوف تقوى هذه الاتجاهات مع الزمن أمام مواجهة تخزين المعلومات بشكل ورقي وهي مشكلات لا تحل.

واستخدام المعلومات المنشورة على شكل أشرطة مغناطيسية مسجلة ظاهرة بدأ تطبيقها، فهناك مؤسسات وأجهزة عديدة اميركية بشكل خاص تنشر المعطيات والمعلومات التي جمعتها وعالجتها على أشرطة مسجلة ويتم هذا النشر على أساس قاعدة الاشتراك للحصول على نسخ أشرطة والاشتراكات باهظة الثمن في الوقت الحاضر إذ تتراوح بين عشرين ألف ومئة وخمسين ألف فرنك في السنة على أن هذه التكاليف ستخفض باضطراد كلما ازداد الطلب على هذه الأشرطة في السنوات المقبلة.

إن التطورات التكنولوجية في ميدان التقنيات الوثائقية ستصبح أكثر أهمية ولا يمكن التنبؤ بها اليوم إلّا بصعوبة. فالتطور في ميدان الاعلام وشؤون المعلومات تطور يومي ولا يستطيع أحد اليوم أن يتنبأ بما ستصير عليه وسائل معالجة المعلومات غداً. وهذا يطبق على وسائل معالجة المعلومات الوثائقية وشؤون التوثيق(٣). ■

المراجع

(١) الهجرس سعد محمد «التوثيق ودراسته في علوم المكتبات». **التوثيق والمكتبات**: ١٥٣ – ١٥٩.

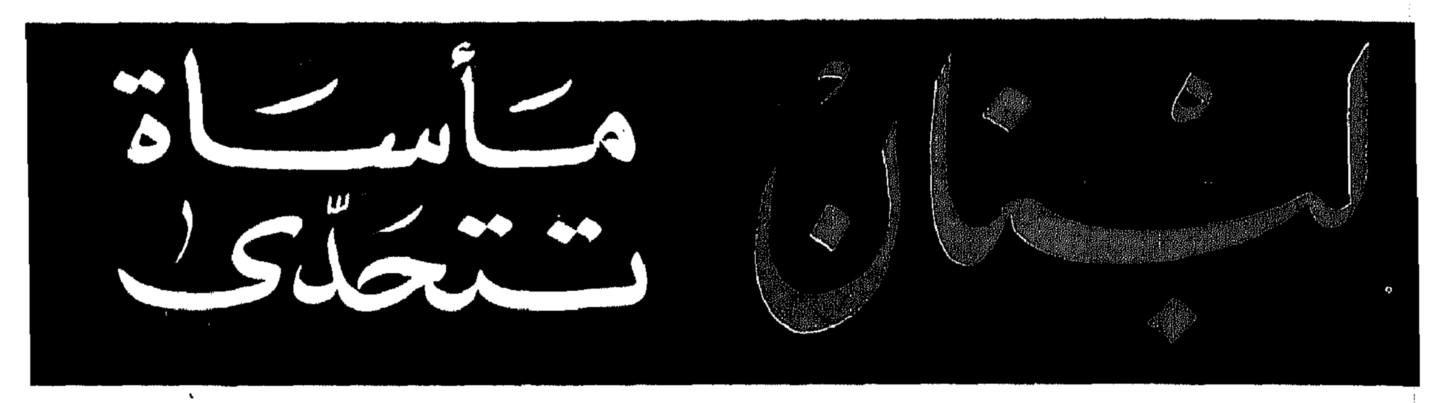
(٢) عودة، أبو الفتوح حامد.
تنظيم المعلومات الصحفية. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٨.

(٣) قبيسي محمد. **حضارة العرب في حفظ وثائقهم**. بيروت: منشورات دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٩.


جَنوب

يتفرد لبنان، وجنوبه خاصة، دون العالم أجمع، بوضع لا يكاد التاريخ، قديمه وحديثه، يذكر شبيهاً له. فهو يعاني من ظروف ليست من صنعه؛ أو ليس هو صانعها الوحيد، ويقاسي من عدم إمكان وضع حد لما يحدث، وبلوغ حل ينهي الظروف القائمة لخيره. ذلك أن الصراع على أرضه هو نتاج ما يحفل به الشرق الأوسط من عوامل التفجير، وما يكمن وراء ذلك من أهداف دولية.

إعداد قسم التوثيق والأبحاث





وإذا اختير جنوب لبنان لتفجير هذا الصراع، فلأن موقعه الجغرافي، خاصة بعد قيام إسرائيل، من جهة، وأطماع العدو الاقتصادية والسياسية فيه، جعله ملائماً لتنازع الأطراف المختلفة، فإذا هو قضية لبنان الأساسية، في الوقت الذي يلخص فيه كل المشاكل العربية والدولية.

لهذا لم يكن ممكناً فصل قضية الجنوب عن القضايا العربية والدولية، وإذا صعب أن نأمل من الدول الأجنبية أن تحلّ، أو تسهم في حل قضيتنا، فإن من الطبيعي أن يأتي الحل عربياً، بتضافر لبناني عربي. من هنا حرص المسؤولون اللبنانيون على التشديد على قيمة المساهمة العربية في الحل، بعيداً عن تناقضاتها، وخلافاتها الخاصة.

الواقع أن مأساة الجنوب، وبالتالي لبنان، تفوق كل تصور. وإذا صعب تحديد ما لحق به من خسائر، وما قدم من تضحيات بشرية ومادية ومعنوية، فلا بد من إلقاء ضوء، علّنا نقدم صورة، ولو مجتزأة، عن الواقع المأساوي الخطير، الذي يجهل العالم تفاصيله حتى اليوم.

الموقع الجغرافي:

دعي بالجنوب لأنه يقع في الجنوب من خريطة لبنان: يحده جنوباً فلسطين، وشرقاً سوريا، وغرباً البحر الأبيض المتوسط، ويتكون من ثلاثة أقسام: السهل الساحلي، الهضاب، الجبال.

مساحته ٢٢٨٧ كلم^2 أي ٢٢٪ من مساحة لبنان /١٠٥٠٠/ كلم^2. وتخترقه عدة أنهار، تطمع إسرائيل في مياهها، وهي: الليطاني، والأولي، والحاصباني والوزاني. وفيه موانىء ثلاثة كانت زاهرة في الماضي: ميناء صيدا، ميناء صور (معطل بسبب القصف الإسرائيلي المستمر) ميناء الزهراني وفيه مصفاة البترول.

أشهر جباله: جبل الشيخ (٢٨١٤م)، جبل مراح البقرة (١٩٩٩م) جبل نيحا (١٦٧٠م)، جبل الريحان (١٣٧٠م) وجبل عامل (٧٦٣م).

● **أعد هذا الملف في إطار الحملة الاعلامية لنصرة جنوب لبنان وفقاً لقرار مجلس وزراء الاعلام العرب لجامعة الدول العربية.**

وأبرز مدنه: صيدا (١٤٠٠٠٠ نسمة)، صور (٥٣٠٠٠ نسمة)، النبطية (٤٨٠٠٠ نسمة)، جزين (١٥٠٠٠ نسمة)، مرجعيون (٢١٠٠٠ نسمة)، بنت جبيل (٣٥٠٠٠ نسمة)، حاصبيا (١٥٠٠٠ نسمة)، الخيام (٣٠٠٠٠ نسمة).

ويزخر الجنوب بالآثار القديمة والحديثة نسبياً. ويمكن القول إن معظم الآثار لم يتم الكشف عنها حتى اليوم، فقلما تعبر بقرية من جبل عامل، إلا ويحدثك أهلها عن مواقع اكتشفوا فيها آثاراً لنواويس، أو أعمدة، أو قصور راقدة تحت الركام. أما أشهر ما اكتشف من تلك الآثار، فهي تلك القائمة في صور، وتشهد على عراقتها، وقيمتها الإنسانية والتاريخية، وما كان لها من أثر على الحضارة في أوروبا نفسها. ويكفي للتدليل على ذلك أن اسم أوروبا مشتق من اسم ابنة ملكها أوروب.

ومن الآثار البارزة كذلك، ما تجده في صيدا والصرفند وقلعة الشقيف، وسرايا حاصبيا، وقلعة تبنين وغيرها.

سكان الجنوب:

كان الجنوب قبل الأحداث، والهجرة والنزوح، أكثر مناطق لبنان كثافة سكان فعدد سكانه (٨٥٠٠٠٠ نسمة) أي ما يوازي أكثر من ربع سكان لبنان. ونسبة الزيادة السكانية سنوياً، أعلى نسبة زيادة في العالم (٣,٥٪). ويتعايش فيه سكان ينتمون إلى كل الطوائف المعروفة في لبنان، يتعاونون على ظروف معيشية صعبة والأسباب اقتصادية واجتماعية.

لهذا عمد الجنوبي إلى الهجرة إلى القارتين الأمريكية والافريقية (الهجرة إلى افريقيا أكثف) ولن تجد عائلة جنوبية إلا ومنها عدد غير قليل (نسبياً) من المهاجرين. وقد هاجر عدد آخر منذ أواسط القرن العشرين إلى السعودية، والخليج العربي وليبيا واوستراليا.

وعمد الجنوبي كذلك إلى النزوح لسببين: السبب الاقتصادي، والسبب الحدثي، أي نتيجة الأحداث الأخيرة، وقد اتجه النزوح إلى المدن، وخاصة بيروت، حتى ضاقت بالنازحين إليها، مما شكل عقبة أمام تأمين الخدمات من مسكن وكهرباء وماء، وغير ذلك.

تاريخ الجنوب قديماً وحديثاً:

لا يجهل مؤرخو العالم القدماء والمحدثون دور الجنوب في التاريخ، وفي الحضارة. فهوميروس شاعر اليونان، (القرن التاسع ق.م.) يذكر صيدا وصور، وهيرودتس (القرن الخامس ق.م.) وديودورس الصقلي وسترابون وفلانيوس وبلوتارك (الأول ق.م.) يذكرون جنوب لبنان، وخاصة صور وصيدا، باعتبارهما مركزي الاتصال مع العالم الخارجي، ومصدرين تجاريين وحضاريين هامين، طوال عهود، لأهميتهما وتأثيرهما على الحضارة في أوروبا ذاتها، فقد كانت لهما اليد الطولى في نقل العلم من فلك ورياضيات، والفن في نشاطاته المختلفة. ولا يجهل أحد دور صور في بناء قرطاجة، وكثير من مدن جنوب إيطاليا وصقلية وإسبانيا.

كان لبنان، حسب كل المصادر التاريخية جزءاً من الدولة الكنعانية، الممتدة من شمال صيدا حتى جنوب أريحا. وينتسب أهله إلى الساميين، فقد هاجر إليه من الجزيرة العربية أقوام، أقبلوا إليه على شكل موجات، أولها الكنعانيون، ثم الفينيقيون، ثم الأنباط. وتلت ذلك هجرة كبيرة من قبائل قضاعية وقحطانية، تفرعت عنها قبيلة عاملة التي دعي الجنوب باسمها، فقيل جبل عاملة أو جبل عامل.

ولم يستقر أي عنصر غريب على أرضه، رغم الغزوات العسكرية، فقد كانت الغزوات تنحسر عنه دائماً، ويبقى محافظاً على ترابه وأصله. أما ادعاء العبرانيين بحقهم في الجنوب، فادعاء باطل لا يرتكز إلى حقيقة تاريخية أو علمية. فلم يكن لهم فيه موطىء حتى في عهد سليمان وأبيه داود، إذ كانت أرض مملكتهما إلى ما دون الجليل فحسب.

أما في العصر الحديث، أي بعد معاهدة سايكس بيكو، ولويد جورج - كليمنصو، فقد قسمت البلاد العربية، التي ظلت شبه موحدة في العهد العثماني، إلى دول منها سوريا ولبنان والعراق والأردن وفلسطين والسعودية، الخ... وكان الجنوب ضمن دولة لبنان الكبير الذي جعل هو وسوريا، تحت الانتداب الفرنسي.

وضع الجنوب الاقتصادي:

كان الجنوب، إقتصادياً، متخلفاً، حاله في ذلك حال الريف اللبناني، بل الريف العربي عامة، خاصة في عهد الاستعمار العثماني والانتداب الفرنسي. ولم يتطور كثيراً منذ الاستقلال ونزوح آخر جندي فرنسي (٣١ كانون الأول ١٩٤٦)، حتى ١٩٤٨ تاريخ قيام إسرائيل. إذ كانت الفترة قصيرة جداً (ثلاث سنوات). وفي هذا التاريخ عاد إلى لبنان عشرات الآلاف من أبناء الجنوب، ممن كانوا يعملون في فلسطين، ونزح إليه الآلاف من أبناء فلسطين، فضاعف ذلك من أزمة الجنوب الاقتصادية والاجتماعية.

ومنذ ١٩٤٨، كان للعدوان الاسرائيلي المتكرر، خاصة بعد عام ١٩٦٧، أثر واضح في عدم تنفيذ أية خطة تنمية للجنوب. وزاد الوضع سوءاً منذ بداية السبعينات حتى اليوم، وخاصة مع بداية الأحداث الأخيرة، إذ اضطر سكان قرى كاملة إلى النزوح صوب بيروت، وبعض المناطق الأخرى، بعد أن دمرت الغارات والغزوات الاسرائيلية، قراهم وممتلكاتهم ومزروعاتهم.

وإذا علمنا أن مورد جنوب لبنان الرئيسي زراعي (حمضيات، موز، فواكه، زيتون، تبغ) أدركنا مدى أثر سياسة «التهجير» على تعطيل الزراعة، والقضاء على التشجير، وبالتالي على الموارد الرئيسية. وهكذا تقلصت الأراضي المزروعة إلى أقصى حد عرفته منذ عصور طويلة.

وليس في جنوب لبنان قطاع صناعي، ما عدا مصفاة الزهراني، والأغذية المحفوظة. وكان يمكن أن تقوم في الجنوب صناعات عدة، ولكن، حال دونها العدوان الاسرائيلي المتكرر، والصناعة تحتاج إلى استقرار قبل كل شيء.

وكانت السلطات قد لحظت خطة لتنمية الخدمات الاجتماعية، فبدأت بانشاء أماكن سياحية من استراحات وفنادق ومطاعم ومسابح، بالاضافة إلى شق أوتوستراد يصل بيروت بأقصى الجنوب، ولكن الأحداث الأخيرة، واكتساح إسرائيل الجنوب أكثر من مرة، وضرب قرى الجنوب ومدنها، وقصفها، كل يوم تقريباً، عطلت كل خطة تنمية، بل جعلت شبه مستحيل السكن فيه.

الواقع التربوي والصحي:

كان الجنوب، طوال العهد العثماني، محروماً من المدارس والعلم. ولم يكن حظه في عهد الانتاب أوفر كثيراً. فلم تقم في الجنوب كله إلا مدارس قليلة، وفي المدن الرئيسية فحسب.

ولكن الدولة بعد الاستقلال، خصت الجنوب بسياسة تربوية، إن كانت بطيئة التنفيذ بعض الشيء، فإنها شاملة وواسعة، فبعد ان اقتصرت على المدارس الابتدائية، أصبح للجامعة اللبنانية فرع في صيدا، وافتتحت مدارس مهنية في النبطية وبنت جبيل وجزين وصيدا.

على أن قطاعاً كبيراً من الجهاز التربوي قد تعطل في الجنوب، بسبب العدوان الاسرائيلي المستمر.

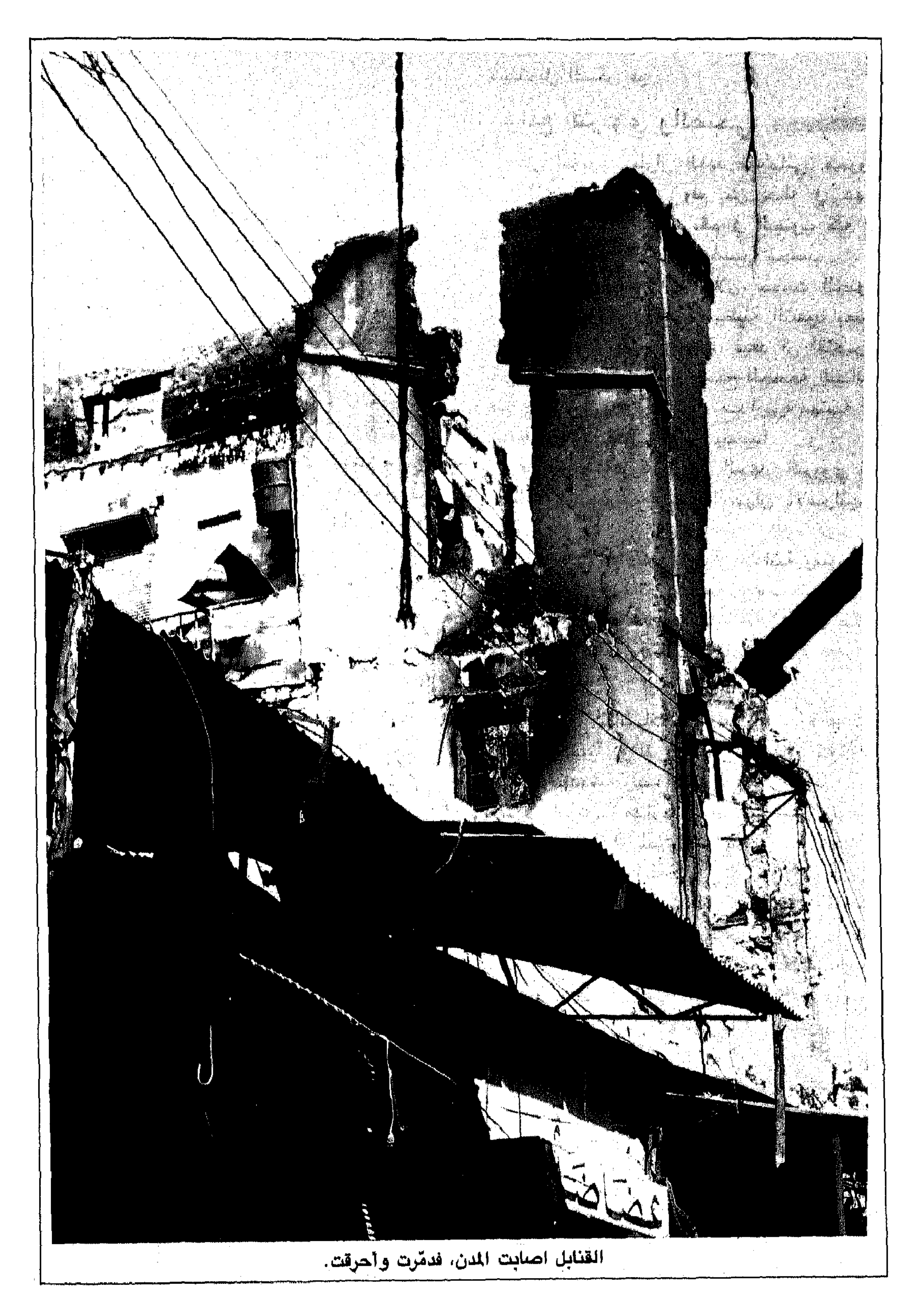
كان عدد المدارس ما بين ابتدائية ومتوسطة مائتين وإحدى وستين مدرسة، وعدد ما فيها من شعب ٢٦١١، وعدد طلابها ٦٣٥٨٢ بين طالبة وطالب. يقوم على التدريس فيها ٤١٠٩ معلمات ومعلمين.

هذا عدا الثانويات الرسمية المنتشرة في كل المدن الرئيسية، والمدن الصغيرة نسبياً، كالخيام وجويا ومغدوشة ولبعا وقانا وجزين وغيرها.

وفي الجنوب. مدارس خاصة كثيرة تتحمل عبئاً كبيراً من التعليم، وتساعدها السلطات على أداء مسؤولياتها كاملة.

ولكن العدوان الاسرائيلي اليومي، والقصف الجوي والبري والبحري، حرم قطاعاً كبيراً من الجنوب، مدارسه، على طول الحدود الجنوبية، وإلى مسافات غير قليلة نحو الداخل، فهذه صور الصامدة المكابرة، المصرة على استمرار فتح مدارسها، قد نقص عدد طلابها إلى أكثر من النصف، بسبب نزوح الكثيرين ممن دمرت بيوتهم، أو فقدوا مصادر عيشهم.

أما القطاع الصحي فقد عانى دائماً من عدم كفاية حاجة الجنوب. وإذا كانت الدولة قد أنشأت خمسة مستشفيات، وعدداً من المستوصفات، عدا المستشفيات الخاصة والعيادات والمستوصفات، فإن ذلك غير كاف



القنابل اصابت المدن، فدمّرت وأحرقت.

لعدد كثيف من السكان، يضارع أكثر من ربع سكان لبنان، مما يظهر الحاجة الماسة إلى الخدمات الصحية، في الحالات الطارئة، حين الهجمات الاسرائيلية، التي تعطل المستشفيات والمستوصفات، وتتسبب بمآس لا حد لها فتشتد الحاجة إلى الخدمات الصحية.

يقودنا ما سبق، وما فيه من تعبير عن الويلات التي تسببها الاعتداءات الاسرائيلية، غير المنقطعة منذ سنوات طويلة، رغم قرارات الهيئات الدولية، ورغم أن العالم أجمع أدانها، يقودنا ذلك إلى الحديث عن المطامع الصهيونية في لبنان، والأساليب غير الانسانية التي تستخدمها لبلوغ ما تهدف إلى تحقيقه.

المطامع الصهيونية تاريخياً:

تشير الوثائق الصهيونية، حتى السابقة على «وعد بلفور» الذي قطعه البريطانيون لزعماء الصهيونية بإنشاء وطن قومي ليهود العالم على أرض فلسطين، تشير إلى أن المطامع الصهيونية قديمة العهد، وإلى أن هذه المطامع لا تقتصر على فلسطين وحدها، ولا على جنوب لبنان وأرضه ومياهه، بل ترمي إلى أن تقيم «وطنها» وعلى مساحات شاسعة تمتد من «النيل إلى الفرات».

ترتكز هذه المطامع إلى إدعاءات باطلة علمياً وتاريخياً، يكذبها ما اكتشف من آثار حديثة، وما كتب من دراسات علمية حديثة موثقة عنها. ويكفي أن نذكر كتاب «الدكتور أحمد سوسة» «اليهود في فلسطين»، وكتبه ومقالاته الأخرى، خاصة ما اتصل منها بمكتشفات «إيبلا» و«نينوى» التي تدحض كل مزاعم الصهيونية.

واليهود، إضافة إلى ذلك، طارئون على فلسطين، جاؤوها غزاة بقوة السلاح، فقتلوا من أهلها من قتلوا، وشردوا من شردوا، وبينهم «الصابئة» الذين نزح من بقي منهم، عن جوار نهرهم المقدس «الأردن» إلى الفرات في العراق وشمال سوريا.

أما مزاعمهم حول حقهم في أرض لبنان فتتركز إلى ما يلي:

١ - أن سفر التكوين، وسفر الخروج، وسفر التثنية، وسفر يسوع، تعد اليهود بأرض تمتد من النيل إلى الفرات. ولذا فإن لهم «حقاً إلهياً» في هذه الأرض التي قطنها العرب منذ ما قبل «التاريخ» - حسب ما يحدده المؤرخون -

ولو أخذنا بهذه «النظرية» لكان من حق أصحاب الأديان أن يمتلكوا ما توصلوا إلى احتلاله في فترات زمنية معينة، أو ما تعدهم به أديانهم من أرض وملك. ولكان على البشرية أن تضرب عرض الحائط بكل الكيانات الدولية الحالية، وتعيد تخطيط جغرافية العالم من جديد.

ضمن هذا «الحق الالهي» يدخل لبنان في تخطيط حدود دولة الصهيونية، مع أن التاريخ يذكر بوضوح ان حدود دولة اليهود في التاريخ القديم لم تصل يوماً إلى الحدود اللبنانية.

٢ - والواقع أن هذا التبرير الديني،تكمن وراءه مطامع اقتصادية، أولها مياه الجنوب، ففلسطين تفتقر الى الثروات المائية، بينما الجنوب غني بالأنهر التي ذكرنا سابقاً.

٣ - من هنا نبلغ الحقيقة التالية: وهي أن الصهيونية تعمل بوحي المجال الحيوي، فهذا هرتزل يقول في مذكراته: «سنطلب من الأرض ما نحتاج إليه، وتزداد المساحة المطلوبة بازدياد المهاجرين». ذلك أن «حلم» الصهيونية هو استقدام يهود العالم إلى فلسطين، وأرضها لا تتسع لهم، ولا يمكن أن تكون مجالاً حيوياً كافياً، لذلك لا بد أن تتوسع على حساب غيرها. ولهذا طالب الصهيونيون في «مؤتمر السلام في فرساي» بالحاق ضفتي نهر الليطاني «بالوطن القومي اليهودي».

وقد حاول زعماء الصهيونية منذ أواخر القرن التاسع عشر ان يستولوا على الأرض بالمساومة مرة - ساوم هرتزل السلطان عبدالحميد على أرض الجليل وسنجق عكا مقابل قرض مالي ضخم - وبالشراء تارة فقد اشتروا من كبار ملاك الأراضي مساحات شاسعة، باغرائهم بأسعار تفوق الأسعار الحقيقية أضعافاً. بينما رفض صغار الملاك كل مساومة، وبرهنوا عن تشبثهم بالأرض، رغم الفقر أحياناً.

وقد ساعد الانتداب الفرنسي والبريطاني على تعديل حدود لبنان الجنوبي لمصلحة الصهاينة، في وقت لم يكن فيه اللبنانيون قادرين على دفع المأساة. وهكذا ألحقت بفلسطين عدة قرى منها: صلحا، هونين، المنصورة، وغيرها.

وحاولت الصهيونية مساومة الرئيس ألفريد نقاش (١٩٤١) على منحها امتياز استغلال مياه لبنان، ولكنه رفض المساومة.

ومع بداية الخمسينات، طرحت الصهيونية، بوساطة دول اخرى، مشاريع جديدة لاستغلال مياه الجنوب، ومنها مشروع جونستون، واللورد ملك (١٩٥٣) ومشروع كوتون (١٩٥٤). ولكن المحاولات باءت بالفشل. وحين حاول لبنان استغلال مياهه هددت اسرائيل بضربها، بل قامت باحتلال أقسام من الجنوب أكثر من مرة، وبذلك عطلت إمكان تحويل الجنوب إلى واحة غنّاء.

ولقد كان لبنان، من جهة ثانية، وبسبب الظروف التي نشأت بعد قيام إسرائيل، المجال الوحيد الذي أجمعت عليه الدول العربية، ليكون مركز تجارة الترانزيت بعد فرض المقاطعة العربية على إسرائيل. وهكذا حل مرفأ بيروت محل مرفأ حيفا، ومطار بيروت محل مطار اللد، وتحولت خطوط أنابيب النفط إلى لبنان عبر سوريا، بعد ان كانت تصل إلى مصفاة حيفا، ووسع المطار الدولي في بيروت، ليفي بحاجات النقل والترانزيت، بين البلدان العربية، وبلدان العالم. كما أقام لبنان نظام «الدروباك» الذي يعني إعادة التصدير، فأنشأ منطقة حرة لتكون مستودع التجارة العربية الضخم.

وهذا ما حدا بالصهاينة على العمل لضرب النموذج اللبناني، والقضاء على اقتصاده، والأسس التي يقوم عليها. ولا ريب ان احتلال الجنوب، أو الحيلولة دون أمنه واستقراره، جزء من الخطة.

وليست مطامع الصهيونية في لبنان إقتصادية فحسب، إنها استراتيجية كذلك. فاذا كانت حدود اسرائيل «من النيل إلى الفرات» فإن لبنان يدخل ضمن حدودها. ولا ريب أن غياب الرادع العربي جعل مطامع إسرائيل لا حدود لها، بل شجع الصهيونية على محاولة تنفيذ مخططاتها في التوسع، على حساب لبنان والدول العربية المجاورة، فاندفعت تقتطع أجزاء منها، بوسيلة أو بأخرى، وتستقدم اليهود من جميع مواطنهم الأصلية، شرقاً وغرباً، وتنشىء لهم المستوطنات على الأرض المحتلة، وفي الوقت ذاته تضاعف من قوتها العسكرية، لتنقض من جديد فتحتل أرضاً اخرى، تقيم عليها المستوطنات.

ولم تخف الصهيونية خططها، فقد أعلنتها في أكثر من مناسبة، ففي مؤتمر السلام في فرساي (١٩١٩) طالبت بحدود تمتد من العقبة إلى صيدا، فحدود معان وعمان ودرعا ودمشق، لتشرف على كل خطوط المواصلات وأنابيب البترول. وطالب هربرت صموئيل (١٩١٨) بأن تمتد الحدود إلى شمالي الليطاني.

ولئن رفض الانتداب الفرنسي التخلي عن شيء من أرض لبنان (قبل ١٩٢٣)، فقد انصاع في النهاية لالحاح البريطانيين، فضمت سبع عشرة قرية لبنانية إلى فلسطين، في اتفاقية (١٩٢٣)، وألحقت بها ثماني قرى أخرى عام (١٩٢٤).

وحين أقامت هيئة الأمم إسرائيل (١٩٤٨) على حساب شعب فلسطين، بدعم الدول الكبرى، كانت قد مهدت الصهيونية لذلك، في ظل الانتداب البريطاني، بضم عدد غير قليل من القرى اللبنانية الحدودية.

ومنذ قيام اسرائيل لم ينقطع العدوان الاسرائيلي على لبنان، وإن تفاقم منذ نهاية الستينات حتى اليوم، حتى تضاعف في السنوات الأربع الأخيرة، فالطيران الاسرائيلي في سماء لبنان يومياً، والقصف البري والبحري لا ينقطع يومياً أكثر من ساعات.

والواقع أن تاريخ هذه الاعتداءات طويل وقديم. ففي عام (١٩٤٨) احتلت عصابات الصهاينة جنوب لبنان حتى مشارف الليطاني، وارتكبت في قرية «حولا» مجزرة قتلت فيها سبعين من سكانها، ولم تجل عن القسم المحتل إلا بعد أكثر من ستة أشهر.

عام ١٩٤٩ وقعت اسرائيل مع لبنان ومصر والأردن وسوريا اتفاقيات هدنة، تعين الحدود وتفرض سحب الجيوش، إلا ما يضمن صيانة الهدنة، ولكن اسرائيل احتفظت، وإلى زمن، بعدد من القرى اللبنانية: (عديسة، رميش،

يارون، عيترون، بليدا، ميس الجبل، حولا، كفركلا). وسيطرت بذلك على الليطاني وطريق بنت جبيل - مرجعيون.

توجه إسرائيل منذ ذلك التاريخ ضربات انتقامية، بحجة أو بأخرى، إلى لبنان، وخاصة بعد قيام حركة المقاومة الفلسطينية، التي غدت ذريعة اسرائيل الثابتة إلى العدوان.

بل تعمد إلى أكثر من ذلك، وهو أن تقيم دويلات طائفية مرتبطة بها ارتباطاً تبعياً، بقصد تحقيق المطامع الصهيونية في لبنان والبلاد العربية، وتحويل كيان اسرائيل العنصري من الشذوذ إلى النموذج، والهيمنة على المنطقة العربية بعد تفتيتها. يتضح ذلك من الرسائل التي تبادلها (١٩٥٤) بن غوريون، وموشيه دايان، والياهو ساسون.

تفاقمت اعتداءات اسرائيل بعد ذلك. ففي حرب (١٩٦٧) تعرض لبنان لخسائر فادحة مع أنه لم يشترك في الحرب، ولم يسمح لأي جيش عربي بدخوله، فقد جعلت اسرائيل من أجواء لبنان ممراً لبلوغ الأجواء السورية، هذا بالاضافة إلى عمليات عسكرية عبر أراضيه تسببت في الكثير من الأضرار، عدا عشرات القتلى من بنيه. وقد استولت اسرائيل خلال ذلك على إحدى عشرة قرية، هدمت معظمها وعلى مساحات شاسعة من جبل الشيخ وهضاب النقار والشحل والسواقي، وجورة العليق، وما تزال تقيم فوقها مواقع عسكرية ومرابض للمدافع البعيدة المدى التي توجه حممها الى القرى والمدن اللبنانية.

عام ١٩٧٠ (أيار) قامت اسرائيل بهجوم واسع على الجنوب، احتلت فيه معظمه، بعد أن قتلت العشرات، ودمرت المساكن فوق أهلها. ولم تبال بقرار مجلس الأمن (٢٧٩) - ١٢/٥/١٩٧٠ القاضي بانسحابها الفوري. فاجتمع مجلس الأمن ثانية وأصدر القرار (٢٨٠) مؤكداً ما جاء في قراره السابق.

وفي حرب (١٩٧٣) استخدمت إسرائيل أجواء لبنان للعبور إلى أجواء سوريا، كما اخترقت دباباتها قرية «المارية» اللبنانية، لتهاجم من هناك الجيش السوري. وقد أصاب لبنان من ذلك أضرار كثيرة.

الخامس عشر من آذار ١٩٧٠ اجتاح ثلاثون ألف جندي إسرائيلي جنوب لبنان، وتقدموا على جبهات طولها مائة كيلومتر، تدعمهم طائرات ف - ١٥، ومدافع بعيدة المدى، وتتقدمهم الدبابات والمصفحات، التي صبت آلاف أطنان القنابل (ومنها الصاروخية والانشطارية) على القرى والمدن الجنوبية، فدمرت عدداً كبيراً منها، وقتلت الكثيرين وشوهت الكثيرين. وقد دامت المعركة ستة أيام، وفي هذا الوقت كان مجلس الأمن قد اجتمع للنظر في شكوى لبنان ضد اسرائيل، فاتخذ قراراً بإدانة الهجوم الاسرائيلي، وطلب الانسحاب الفوري، واحترام وحدة اراضي لبنان وسيادته، واستقلاله السياسي. وقرر كذلك إرسال قوة طوارىء دولية من أجل تأكيد انسحاب القوات الاسرائيلية، ومساعدة الحكومة اللبنانية في إعادة سلطتها الفعلية في المنطقة.

غير أن إسرائيل لم تنسحب من كل الأراضي التي احتلتها في الجنوب، واستبقت قطاعاً تنطلق منه، مع جماعة لبنانية تأتمر بأمرها، لضرب المدن والقرى اللبنانية، وقد بلغ قصفها في الاشهر الماضية صيدا نفسها التي تعرضت لقنابل المدافع البعيدة المدى مرات.

التاسع عشر من نيسان، ومن قرية «المطلة» الاسرائيلية، أعلن سعد حداد قيام «دولة لبنان الحر» في الشريط الحدودي الذي اقتطعته اسرائيل إثر هجومها المعروف عام ١٩٧٨. وقد أصدرت السلطات اللبنانية نصاً قانونياً باعتبار سعد حداد خائناً تجب ملاحقته واعتقاله ومحاكمته.

لقد شاءت اسرائيل من قيام «دولة حداد» تغطية عدوانها المستمر على الجنوب، واحتفاظها بالشريط الحدودي، ومنع القوات الدولية من تنفيذ مهمتها، وبالتالي دخول الجيش اللبناني الى كل الأراضي اللبنانية حتى الحدود. وهذا ما يؤكده الأمين العام للأمم المتحدة إذ يقول: «إن السلطات الاسرائيلية استمرت في دعم قوات الأمر الواقع لأسباب ذكرت أنها تتعلق بأمنها القومي. وللأسباب نفسها قامت القوات الاسرائيلية في أكثر من مناسبة بالتوغل داخل الأراضي اللبنانية واحتفظت بعدد من المواقع في

الجيب الحدودي، وكان هذا مصدر قلق بالنسبة للقوة الدولية». ويقول في مكان آخر: «سجلت قوة الأمم المتحدة المؤقتة في لبنان بتاريخ ١٨/آب/٨٠ تزايداً ملحوظاً في وجود القوات والمركبات التابعة للجيش الاسرائيلي في أنحاء المنطقة التي تسيطر عليها قوات الأمر الواقع».

لهذا قدم لبنان مذكرة الى مجلس الأمن الدولي يطلب فيها إعطاء القوة الدولية صلاحيات ردعية واسعة وإعادة النظر في تحديد منطقة عمليات القوة الدولية ووسائل انتشارها وتحركاتها في ضوء التطورات الناجمة عن تصعيد العنف الاسرائيلي، والأعمال العدوانية، والقتال خارج منطقة العمليات الأصلية.

يتحدث تقرير أمين عام هيئة الأمم المتحدة كورت فالدهايم، في هذه الفترة عن ازدياد نشاط القوات الاسرائيلية داخل منطقة عمليات قوات الأمم المتحدة، فهي تقيم المواقع، وتقتحم القرى، وتفاجىء السكان في بيوتهم فتخطف بعضهم، وتهدم البيوت أحياناً عليهم.

والواقع أن اسرائيل، كانت توقت هجماتها، أو اقتحامها القرى، مع قرارات مجلس الأمن، ففي ١٧ كانون الأول ١٩٨٠ اتخذ المجلس قراراً بالتمديد لقوات الأمم المتحدة ستة اشهر. وبعد ساعات من ذلك، هاجمت قوة اسرائيلية خمس قرى لبنانية في منطقة عمليات القوات الهولندية والغانية والايرلندية التابعة لقوات الأمم المتحدة. فقتلت ثلاثة، ونسفت تسعة منازل، عدا ما أحدثته من تخريب في المزروعات والمنشآت.

نقدم هنا إحصائيات سريعة:

يقول تقرير لمؤسسة الصليب الأحمر الدولي حول حرب ١٩٧٨ ما يلي: بلغ عدد القرى التي شملها الغزو الاسرائيلي ١٥٠ قرية. كانت أضرار ٨٢ منها بالغة بينما دمرت ست منها بلدة الخيام. وبلغ عدد القتلى ألفاً.

خلال عامي ١٩٧٥ - ١٩٧٦ وقع ٣٨ اعتداء على الجنوب كان من نتائجها مقتل ١٢٦ لبنانياً، وجرح أكثر من ثلاثمائة.

عام ١٩٧٧ قامت اسرائيل بـ ١٢٨ اعتداء، كانت حصيلتها ٥٦ قتيلاً واكثر من ١٧٠ جريحاً عدا المخطوفين.

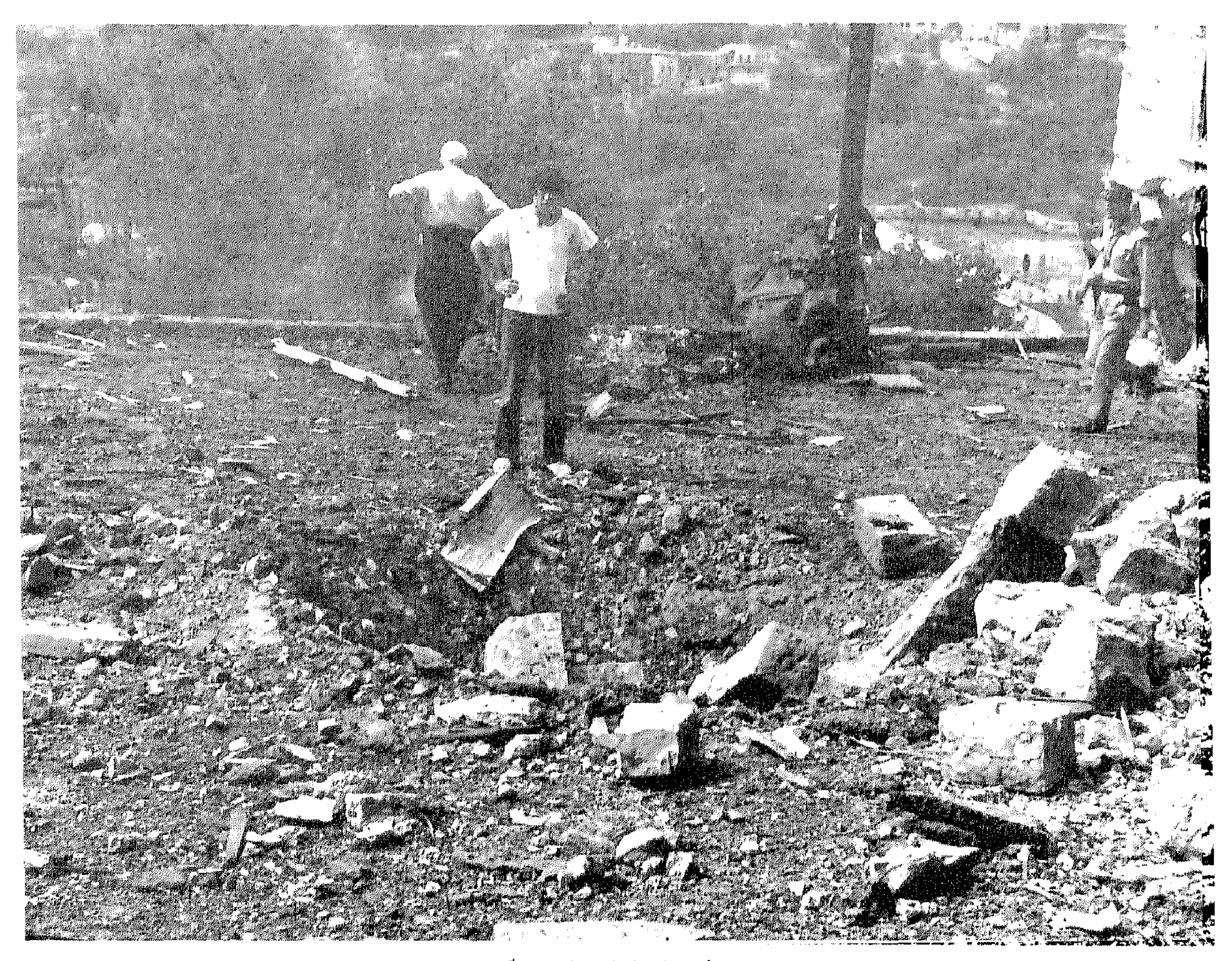
وقامت اسرائيل خلال حرب ١٩٧٨ بمذابح جماعية نذكر ثلاثاً منها: ١ - مذبحة العباسية التي ذهب ضحيتها ٨١ لبنانياً تتراوح أعمارهم بين سنتين وثمانين سنة. ٢ - مذبحة الخيام التي قضى فيها الاسرائيليون على كل من بقي في البلدة، بعد هجرة أهلها من قبل (٣٠٠٠٠)، وكان أصغر الباقين لا يقل عن خمسين عاماً. ٣ - مذبحة كونين، التي قتل فيها ٢٩ أغلبيتهم من الأطفال.

هذا الأسلوب في «التعامل» مع القرى اللبنانية، إنما يهدف إلى «إفراغ» الجنوب من أهله، وبالتالي «اقتطاعه» وضمه إلى اسرائيل. وقد بلغ عدد المهجرين حتى نهاية ١٩٨٠، مائتين وستين ألف مهجر. وكان قسم من هؤلاء المهجرين يعود إلى قراه المرة بعد المرة، ثم يهاجر، ثم يعود، معبراً عن تشبثه بأرضه، وصموده رغم كل وسائل العنف والترويع. ولكن اسرائيل مستمرة في سياسة التهجير، وربما إلى زمن طويل جداً.

نقدم هنا مقارنة بين عدد سكان القرى والمدن الصغيرة الجنوبية، قبل التهجير، وبعده، وعدد الباقين فيها. ولنأخذ نموذجاً على ذلك أربعة أقضية: صور، بنت جبيل، مرجعيون، حاصبيا. قراها خمس وثمانون قرية. كان تعداد سكانها ٣٦٣١٠٠، بقي منهم ١٠٣٠٠٠ هاجر منهم ٢٥٩٠٠٠ تقريباً.

يتوافق مع ذلك كله اقتطاع أجزاء من أرض الجنوب اللبناني وضمها تدريجياً إلى اسرائيل - وهو ما يدعى بسياسة القضم - فقد اقتطعت أقساماً من بلدة علما الشعب، وعيتا الشعب، ومنطقة الوزاني. وشقت طريقاً بين كفرشوبا واسرائيل، وربطتها بشبكة طرقها، واقتطعت جزءاً كبيراً من أراضي العديسة وميس الجبل. وحولت مرج الخيام إلى حقل رماية بالذخيرة الحية، عدا إقامة مرابض المدفعية والدبابات. ويمكن القول إن اسرائيل احتلّت المراكز المشرفة على منطقة الجنوب كلها.

ولا يمكن أن ننسى إنشاء دولة «الأمر الواقع» التي ذكرناها سابقاً، فهي اليوم خاضعة للهيمنة الاسرائيلية! توجهها حسب مراميها، وتختفي وراءها في كل ما تقوم به من أعمال،



... يتأمل في بقايا منزله المدمّر.

وليست في الحقيقة إلا وسيلة، أو جزءاً من سياستها، إن لم نقل جزءاً منها.

ولقد ذهب بيغن، في استغلال الواقع المفروض على الجنوب، إلى حد دعوة لبنان إلى توقيع معاهدة صلح مع إسرائيل. فكان رد الرئيس سركيس (١٢ أيار ١٩٧٩) رفض الدعوة، والتوكيد على أمور ثلاثة: أن حدود لبنان أمر لم يكن يوماً موضع نقاش، فهي حدود معترف بها دولياً. وأن النزاع مع اسرائيل هو أولاً وأساساً قضية حق وعدالة، والحق لا يتجزأ. ان اسرائيل تريد أن تفهم من مشكلة الجنوب أنها مشكلة حدود، والواقع أن المشكلة الأساسية هي رفض إسرائيل السماح للفلسطينيين بالعودة إلى بلادهم وإجبارهم على البقاء في لبنان، لتتخذ منهم وسيلة لتحقيق مراميها في الجنوب.

الواقع أن مأساة الجنوب اللبناني قل أن يكون لها نظير في العالم، فهو يعاني منذ ١٩٤٨، ولكن ما قاسى منذ السبعينات، وخاصة بعد أحداث لبنان يفوق كل تقدير. فعدا ما فقد من ذويه، وما هدم من بيوته، وما أحرق من مزروعاته، يعاني من نقص في البيوت، والخدمات العامة، والأمن، والطمأنينة، ويعيش في حالة رعب دائم، وإن يكن مصمماً على الصمود بأرضه، مهما كانت الظروف والنتائج.

ولمزيد من الوضوح نثبت هنا قائمة بأسماء المدن الصغيرة والقرى التي أبيدت عن آخرها، ولم توفر المساجد والكنائس، وقد هجّر جميع أهلها:

البلدة أو القرية	عدد سكانها
الخيام	٣٠٠٠٠
الوزانة	٦٠٠
عين عرب	٤٠٠
حانين	٢٠٠٠
رشاف	٣٠٠٠
يارين	٣٥٠٠
مارون الراس	٤٠٠٠
الزلوطية	٥٠٠
الضهيرة	٦٠٠
البستان	٥٠٠
أم التوت	٤٠٠
مروحين	٢٠٠٠
القنطرة	٣٥٠٠
الغندورية	٨٠٠
راشيا الفخار	٤٠٠٠
كفرشوبا	٥٠٠٠

هذا بالاضافة إلى عدد من القرى دمرت معظم مساكنها، ولم يبق فيها إلا القلة القليلة من أهلها، ومنها الطيبة والعباسية.

ويجدر التنويه بأن معظم المنشآت العامة قد لحقها التدمير، أو دمرت كاملة، وكلها ضروري للحياة اليومية، ومنها محطات تحويل الكهرباء، ومراكز ضخ مياه الشرب، وخاصة مركز الطيبة الذي كان يمون داخل الجنوب كله. هذا عدا المرافىء، ومراكب الصيد، خاصة في منطقة صور والتي تشكل مورداً رئيسياً من موارد حياة أبنائها.

جرت محاولات لاحصاء الخسائر المادية - لا البشرية - فإذا النتائج التقريبية - إذ لا يمكن إجراء أحصاء شامل، فالخسائر تتضاعف يومياً، بالاضافة إلى أن اسرائيل تمنع القيام بمسح حقيقي للأمكنة التي تحتلها - هذه النتائج تقدر بمئات ملايين الدولارات. فإذا علمنا ان إمكان الاصلاح مستحيل، وأن ذلك يترتب عليه المزيد من الخسائر، بسبب استمرار عدم الانتاج، أدركنا فداحة ما يفقده الجنوب سنوياً، بل يومياً، من أرباح كانت ممكنة لولا تواصل العدوان. ولنأخذ مثلاً الزيتون، وهو من أبرز المزروعات إنتاجاً في الجنوب. فلقد أحرق من شجر الزيتون عشرات الألوف، وما بقي منه لا يجنى محصوله، ولا تسمح اسرائيل لأصحابه بجنيه، فيذهب النتاج هدراً. وإذا علمنا أن زيتون الجنوب وزيته، من أغلى انواع، تبين لنا أن الخسائر مضاعفة. ومثل ذلك التبغ، فهو مورد رئيسي، تزرع منه مساحات شاسعة جداً، ويعيش من نتاجه مئات الألوف. ولكنه اليوم لا يشكل إلا مورداً ضئيلاً، بالاضافة الى أن مواسم تلفت بسبب الحرق والتخريب أو عدم القدرة على الرعاية الضرورية، بسبب الهجرة، والقصف الدائم، والترويع، وتوقع الهجوم كل لحظة، مما أفقد الجنوب اليد العاملة، التي كانت تعمل في الحقل الزراعي، والتي كانت تعتاش من عملها، ففقدت بذلك مورد عيشها.

قدرت الخسائر - خلال عام واحد - تقديراً أولياً بأكثر من مائة وخمسة وستين مليون ليرة لبنانية. فإذا حسبنا هذه الخسائر على مدى سنوات، وقدرنا ما يضاف إليها كل عام، كانت خسارة لبنان، كبلد صغير، تفوق كل ما يتوقع.

ولا بد من بعض التفاصيل: انحسرت زراعة التبغ في الجنوب الى أدنى حد فقد كانت المساحة المزروعة تبغاً في الجنوب تعادل سبعين إلى خمسة وسبعين بالمائة من مجمل المساحة المزروعة تبغاً في لبنان، وكان نتاجه يعادل النسبة ذاتها من النتاج اللبناني. ولكن هذه النسبة تدنت الى عشرين بالمائة عام ١٩٧٨، والى عشرة بالمائة تقريباً اليوم.

ليس الأمر بأقل ضخامة بالقياس الى الحمضيات - وهي المورد الرئيسي لسكان الشريط الساحلي، الممتد من الناقورة حتى صيدا - كان قطاع زراعة الحمضيات يستوعب عدداً كبيراً من العمال: من يعنون بفلاحة الأرض وتسميدها، من يزرعون النصوب، من يقلمون الأشجار، من يرشونها بالمبيدات، من يجنون المحصول ويوضبونه، من ينقلونه، من يروون الأرض الخ... هذا إلى النقليات، وما تحتاج من آليات وسائقين، والمخازن التي تبيع المحصول، والمؤسسات التي تصدره، الى

الكثيرين من المتعيشين من هذا المورد.

إذن، تشكل زراعة الحمضيات دورة إقتصادية كاملة، يعمل فيها آلاف العمال، وتفيد منها مئات العائلات، عدا المنافع العائدة للدولة والجنوب خاصة.

ولكن الاعتداءات الاسرائيلية، والقصف المستمر على البساتين، أحرق عشرات الالوف من شجر الحمضيات، عدا الفواكه الأخرى، وخاصة الموز، وهجر آلاف العمال، فعطل دورة العمل والحياة في هذا القطاع الحيوي، وبلغت الخسائر التقريبية، خلال عام واحد (١٩٧٨) خمسة وخمسين مليون ليرة.

كان الجنوب كذلك، يطور ثروته الحيوانية تطويراً سريعاً، رغم ما كان يتعرض له من اعتداءات، وظل حريصاً على تطويرها حتى بعد ١٩٧٣. فقد أنشئت فيه مزارع للأبقار، ومداجن، بالاضافة الى الأغنام والماعز. وكان عدد الأبقار خمسة وعشرين ألف بقرة، وعدد الأغنام ثلاثين ألفاً، والماعز خمسة وثمانين ألفاً، والدجاج أكثر من مليون. وكانت صادرات الجنوب إلى البلدان العربية من الدجاج والبيض خاصة كبيرة. هذا عدا انتاج الأبقار والغنم والماعز. ولكن الاعتداءات، وخاصة حرب ١٩٧٨، قضت قضاء شبه تام على هذه الثروة، فلم يبق منها إلا حوالي عشرين بالمائة. فتعطل بذلك مجال عمل يحتاج إلى آلاف العمال من أرباب العائلات، عدا الأرباح التي يوفرها كل عام.

ولئن كانت الصناعة في الجنوب فقيرة، فقد كانت تشغل عدداً معقولاً من العمال، وتعيش منها عائلات حرمت الآن من مورد رزقها. ومن أبرز الصناعات التي شلت شللاً تاماً، الصناعة الحرفية، على مختلف أنواعها وخاصة الفخارية، وأدوات المطبخ، وبعض المنسوجات اليدوية.

ويمكن القول إن اليد العاملة في الجنوب فقدت اكثر من ثلاثة أرباعها. ولكن هذه النسبة تزداد سنة بعد سنة، لأن مصادر العمل تنهار بسبب العدوان غير المنقطع، فيومياً قصف مدفعي أو جوي أو بحري، ويومياً تتعرض المؤسسات للتدمير، والعمال للموت. وإذا علمنا ان عدد المهاجرين إلى ديترويت في الولايات المتحدة يربو على ثلاثة آلاف، أدركنا فداحة الرقم الإجمالي للهجرة الى خارج لبنان، خاصة إلى البلاد العربية، وعلى نحو أخص السعودية والخليج العربي. غير ان بعض بلدان الاغتراب وضعت مؤخراً عراقيل في طريق من يرغبون في العمل من اللبنانيين فيها، لكفايتها من اليد العاملة. وهكذا تصبح المأساة مزدوجة، فلا مجال للعمل أو البقاء في الجنوب، ولا مجال عمل في مكان آخر.

ولا بد هنا من الإشارة الى أمر خطير، وهو ان معظم من يهاجرون للعمل من ذوي الأعمار الفتية، فاذا استقر هؤلاء في مهاجرهم، حرم لبنان من ثروته البشرية والاقتصادية معاً، حتى لو سويت قضيته، إذ لا بد له من البحث عن اليد العاملة (المفقودة) لاعادة تعميره.

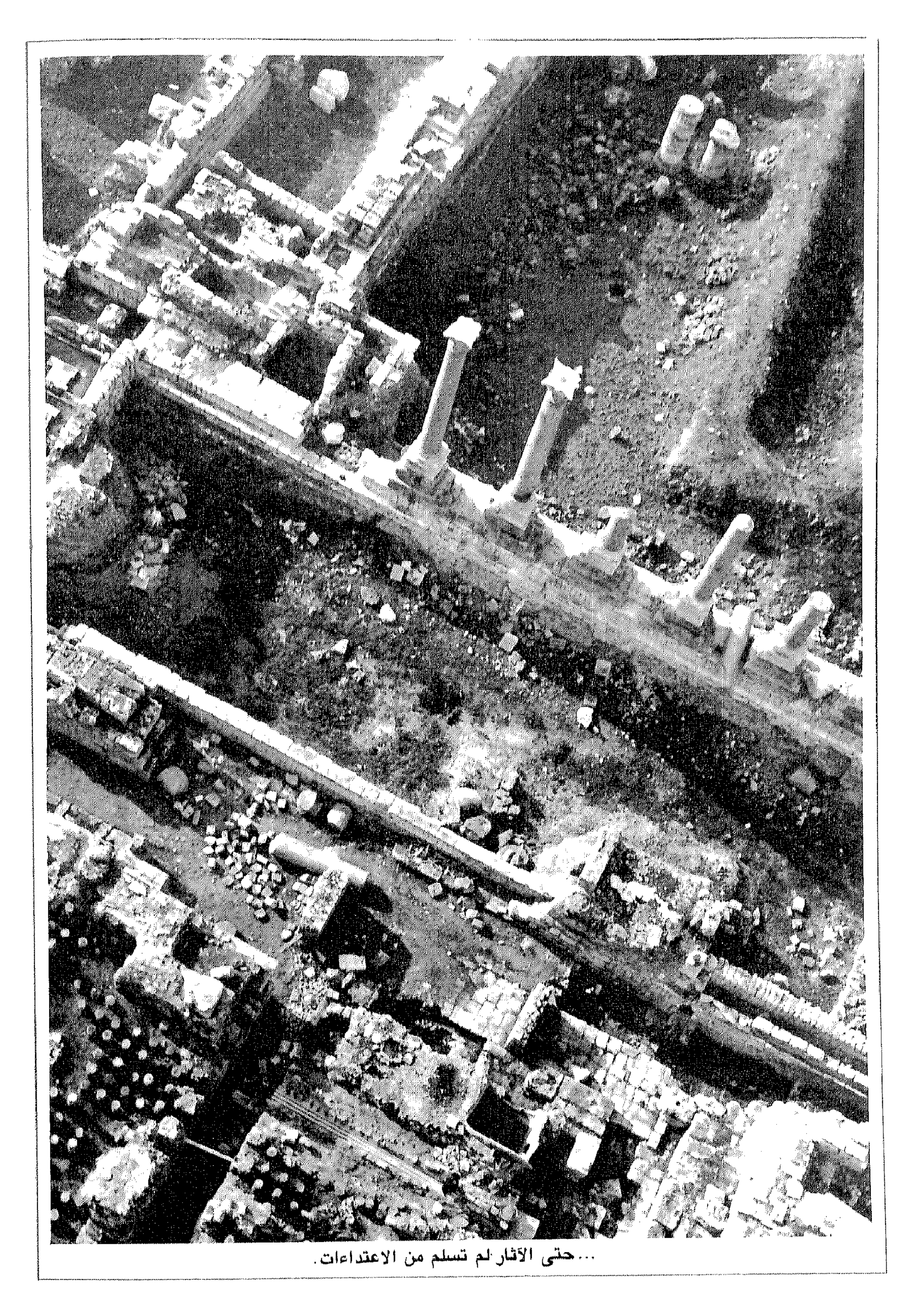
الموقف العالمي من الاعتداءات الاسرائيلية

هل يجب ان نقول إن مواقف دول العالم من الاعتداءات الاسرائيلية كان معظمها من نوع «تسجيل المواقف» وأن بعضها عارض اتخاذ أي موقف في المحافل الدولية وأن بعضها الآخر وقف إلى جانب اسرائيل، بحجج لا تنتمي بحال إلى منطق الحق والعدل والانسانيّة؟ ولكن، وقبل استعراض مواقف الدول الأجنبية، لنبدأ بمواقف الدول العربية، وما اتخذته من تدابير، منذ بدء المأساة حتى اليوم.

مواقف عربية

لبنان، قبل كل شيء، بلد مستقل، وعضو في الجامعة العربية، وفي هيئة الأمم المتحدة.

ولبنان مركز ثقافي وحضاري وتجاري، وطالما كان صلة الوصل، على جميع الأصعدة بين العالم العربي والعالم، بل بين الدول العربية ذاتها.



...حتى الآثار لم تسلم من الاعتداءات.

ولبنان إحدى الدول المضيفة التي استضافت النازحين الفلسطينيين منذ نزوحهم الأول.

ولبنان الدولة الوحيدة التي تحملت آثار ذلك - ولم تتنكر يوماً لواجبها تجاه القضية الفلسطينية - تحملته عدواناً واجتياحاً وتدميراً ونهباً، وما تزال.

ولبنان بلد الفكر الذي كان مجتمع معظم المفكرين العرب، فيه تطبع آثارهم، ومنه تصدر إلى مختلف الأقطار العربية.

وهو لذلك «مطبعة العرب» - إذا صح التعبير - فقد كانت الطباعة فيه، منذ زمن بعيد، مصدراً أساسياً لمطبوعات غالبية البلدان العربية، بالاضافة إلى كونه «مركز تدريب» الفعاليات الطباعية إلى كل الدول العربية.

كما ان لبنان كان دائماً «وسيطاً» متميزاً في الخلافات العربية، وإن كان بعضها على حسابه. فمواقف رجالاته مشهودة في كل المؤتمرات والمحافل العربية.

لذلك كله، ولغيره كثير، كان اهتمام الدول العربية بما جرى ويجري على الساحة اللبنانية، وخاصة الاعتداءات الاسرائيلية، كبيراً والأمل معقود ان يكون هذا الاهتمام على قدر المسؤولية.

وإنه ليصعب ذكر المواقف العربية تفصيلاً، لذلك نقتصر على أبرزها. وخاصة منذ عام ١٩٧٥، العام الذي بدأت فيه الأحداث اللبنانية.

اجتماع لبناني - سوري تليه اجتماعات عربية:

السابع من كانون الأول ١٩٧٥ قام الرئيس حافظ الأسد بزيارة لبنان، واجتمع الى الرئيس سليمان فرنجية في شتورة. صدر على أثر الاجتماع بيان مشترك يقضي بالتنسيق بين البلدين من أجل خيرهما.

وكان هذا اللقاء بداية لقاءات على مستوى القيادات، والمؤتمرات. ففي ٩ حزيران ١٩٧٦ اجتمع مجلس الجامعة العربية واتخذ قراراً بتشكيل قوة أمن عربية رمزية (سعودية - سودانية) لتوطيد الأمن في لبنان. وفي ١٨ تشرين الأول ١٩٧٦ انعقدت قمة سداسية في الرياض (مصر، سوريا، السعودية، الكويت، لبنان ، والمقاومة الفلسطينية) تقرر فيها إنشاء قوة ردع عربية، توضع تحت تصرف رئيس الجمهورية اللبناني، من أجل وقف القتال في لبنان. وفي الخامس والعشرين من تشرين الأول عقدت قمة عربية في القاهرة وافقت على مقررات قمة الرياض. ومما اتخذته هذه القمة من مقررات: مساهمة الدول العربية في إعادة تعمير لبنان. تحديد المبالغ التي يجب أن تدفعها كل دولة من أجل ذلك.

في ١٥ تشرين الأول ١٩٧٨ انعقد مؤتمر وزراء خارجية الدول المشاركة في قوات الردع العربية برعاية الرئيس سركيس، في بيت الدين. ويمكن تلخيص مقرراته التي هدفت الى «معالجة الأزمة اللبنانية معالجة شاملة» بما يلي: وحدة لبنان واستقلاله وسيادته، وسلامة أراضيه، وممارسة الدولة سلطاتها على جميع الأراضي اللبنانية - انهاء المظاهر المسلحة، وجمع السلاح، وتحريم حمله خارج حدود القانون - تطبيق مقررات قمتي الرياض والقاهرة تطبيقاً كاملاً - وضع برنامج زمني لاعادة بناء الجيش على أسس وطنية متوازنة، تمكنه من القيام بدوره كاملاً - تحقيق الوفاق الوطني في سبيل ضمان وحدة لبنان - تطبيق القانون ضد الذين يتعاونون مع العدو الاسرائيلي - تأليف لجنة متابعة توضع تحت تصرف رئيس الجمهورية.

١٩٧٨/١١/٥ عقد مؤتمر القمة في بغداد الذي تبنى مقررات مؤتمر بيت الدين، واتخذ قراراً بمساعدة لبنان في إعادة بناء منشآته.

ويحسن هنا ذكر أبرز الأمور التي عالجها الرئيس سركيس في خطابه امام المؤتمرين، فقد جاءت كلمته لتوضح كثيراً من المسائل التي كانت مجال أخذ ورد، في المحافل الدولية، والتي حاولت أطراف دولية استغلالها لمصلحة اسرائيل، بتفسيرها على غير حقيقتها. فقد كرس الرئيس سركيس قضية فلسطين على أنها قضية العرب الأولى التي لا يختلف عليها اثنان. ولكنه أشار بأسف إلى استغلال انعكاسات هذه القضية على الأزمة اللبنانية، ومن ذلك الربط بين قضية لبنان والقضية الفلسطينية، بهدف

تمييع هذه، وتحويل الأنظار العالمية وحتى العربية عنها، وبقصد استنزاف الطاقات العربية عبر استثمار الأزمة اللبنانية. وعرض لمسألة التوطين التي أكد أن الغاية من طرحها تحويل الأنظار عن إقامة الدولة الفلسطينية على التراب الفلسطيني، وبالتالي طعن القضية الفلسطينية في الصميم. وأكد أنه لا يمكن حل هذه القضية، بخلق قضية لبنانية، أو أية قضية عربية اخرى.

ومما أصر عليه الرئيس سركيس في خطابه، ضرورة الاسراع بوضع حد للمأساة اللبنانية، وذلك باستعادة الدولة اللبنانية سيادتها كاملة على كل التراب اللبناني. ثم نبه إلى واقع الجنوب، وشدد على ضرورة احترام مقررات مؤتمري الرياض والقاهرة وتنفيذها تنفيذاً كاملاً.

مؤتمر تونس:

في ١٩٧٩/١١/٢٣ انعقد في تونس مؤتمر قمة عربي، دعا إليه لبنان، لدرس قضية الجنوب. وقد اتخذ المؤتمر مقررات عدة نثبتها هنا لأهميتها، ولأنها تلخص مجمل الموقف العربي من القضية اللبنانية، وخاصة قضية الجنوب. وقد جاء في تلك المقررات:

«حرصاً على سلامة لبنان وسيادته ووحدة اراضيه، وعلى استمرار الصمود اللبناني والفلسطيني في مواجهة العدو الصهيوني وانطلاقاً من الأيمان بأن مشكلة لبنان مسؤولية عربية بقدر ما هي مسؤولية لبنانية، وشعوراً بضورة مساعدة لبنان على تجاوز هذه الأزمة:

١ - يؤكد المؤتمر السيادة الكاملة للبنان على كل أراضيه والحفاظ على استقلاله ووحدته الوطنية، ويؤكد على ضرورة بسط سيادة الدولة اللبنانية على كل الجنوب اللبناني، خصوصاً عن طريق إعادة كل إدارات الدولة ومؤسساتها المدنية والعسكرية الى ممارسة سلطاتها وصلاحياتها في الجنوب.

٢ - يؤكد المؤتمر رفضه كل المحاولات تحت أية صورة وفي أي شكل، الرامية إلى بسط الهيمنة الصهيونية على الجنوب اللبناني، ويحمل العدو الصهيوني مسؤولية ما يعانيه سكان الجنوب.

٣ - أخذ المؤتمر علماً بما قامت به منظمة التحرير الفلسطينية من امتناع عن القيام بعمليات عسكرية عبر الحدود اللبنانية، وامتناع عن الاعلان من لبنان عن الأعمال التي تقوم بها المقاومة داخل الأرض المحتلة. ويؤكد المؤتمر على حق المقاومة في ممارسة نضالها من سائر الجبهات العربية.

٤ - يؤكد المؤتمر على ضرورة تنفيذ مقررات الرياض وبيت الدين واتخاذ الاجراءات اللازمة لذلك.

٥ - يقرر المؤتمر دعم الحكومة اللبنانية في جميع المجالات الدولية، وذلك لممارسة أقصى الضغوط على العدو الاسرائيلي من أجل وقف عدوانه على جنوب لبنان، ومن أجل تحقيق الانسحاب الاسرائيلي منه، كما يؤكد على ضرورة التنفيذ الكامل لمقررات مجلس الأمن الدولي المتعلقة بجنوب لبنان، وتمكين القوات الدولية من تنفيذ مهماتها، وعلى تنظيم الوجود الفلسطيني المسلح في المناطق الداخلة في نطاق عمل القوات الدولية، وذلك بموجب الاتفاق بين الدولة اللبنانية ومنظمة التحرير الفلسطينية قصد تسهيل مهمة هذه القوات.

٦ - يؤكد المؤتمر جهود الحكومة اللبنانية في نشر الجيش اللبناني في الجنوب، وذلك للقيام بمسؤولياته الوطنية، ويهيب بكل الأطراف أن يسهلوا هذه المهمة.

٧ - يؤكد المؤتمر على ضرورة استئناف لجنة المتابعة المنبثقة من مؤتمر بيت الدين مهمتها، وإضافة ممثل عن الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، إلى عضوية هذه اللجنة لمتابعة هذه القرارات.

هذا، وقد خصص المؤتمر مبلغ ملياري دولار لمساعدة لبنان، على أن يكون نصفها مخصصاً للجنوب، لمساندته على الصمود وإعادة التعمير.

* * *

ولكن، ما الذي تبدل بعد كل هذه المؤتمرات؟ لقد حضر لبنان مؤخراً مؤتمر الدول الاسلامية الذي عقد في الطائف، وأعاد طرح

قضيته على المؤتمرين. وكان الرئيس سركيس واضحاً كل الوضوح في شرح القضية.

مع ذلك بقي وضع الجنوب على حاله. بل إن هذه الحال تزداد سوءاً يوماً بعد يوم، رغم كل المقررات العربية، والقرارات الدولية، خاصة التي اتخذت في هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي.

لا ريب أن السبب الأول والأخير هو تعنت إسرائيل واستهتارها بالهيئات الدولية، وبالقرارات، والقوانين والأعراف. واستمرارها في عملية «إفراغ» الجنوب من أهله، وقضم أجزائه جزءاً بعد جزء، في غياب القوة القادرة على ردعها.

بيان نموذجي:

لعل من المفيد هنا، قبل عرض المواقف العالمية، والهيئات الدولية من قضية جنوب لبنان، أن نضع بين يدي القارىء نموذجاً عن البيانات التي صدرت، وتصدر، وقد تصدر، دون أن تغير من واقع الحال، بل تكاد تكون مسكّناً، أو غطاءً تستتر خلفه إسرائيل لتتابع اعتداءاتها، وتغتنم الشعور العام الدولي بأن القرارات لا تعني أكثر من إعلان موقف، وبالتالي تستغل ذلك الشعور لتقنع كل مؤمن بحقه، أن الحق للعنف والقوة، وما على الجنوبي إلا الرضوخ، والرحيل، والتخلي عن أرضه، أو التعاون مع اسرائيل.

هذا البيان «النموذج» هو قرار مجلس الأمن رقم (٤٥٠)، وقد سميناه بياناً لأن فيه «كشف حساب» لقرارات سابقة لم تنفذ، اللهم إلا من جانب واحد ليس إسرائيل. ووصفناه بالنموذجي، لأنه، في ما هو «كشف حساب» يعترف بقصور مجلس الأمن والهيئات الدولية عن ردع إسرائيل.

نص القرار ٤٥٠:

«إن مجلس الأمن»

إذ يذكر بقراراته ٤٢٥ و٤٢٦ و٤٢٧ و٤٣٤ (كلها عام ١٩٧٨) وببيان رئيس مجلس الأمن في تاريخ ٨ كانون الأول ١٩٧٨.

ويذكر أيضاً، وعلى الأخص، بالقرار ٤٤٤ (١٩٧٩) وببياني رئيس مجلس الأمن بتاريخ ٢٦ أيار ١٩٧٩ (س – ١٣٣٧٢) و١٥ أيار ١٩٧٩ (س – ٢١٤٤).

وبعدما درس تقرير الأمين العام بشأن قوة الأمم المتحدة المؤقتة في لبنان الذي تضمنته الوثيقة (س – ١٣٣٨٧).

يستجيب لطلب حكومة لبنان ويلحظ القضايا المرفوعة في رسائلها الموجهة إلى الأمين العام في تاريخ ٧ أيار ١٩٧٩ (س – ١٣٣٠١) و٣٠ أيار ١٩٧٩ (س – ١٣٣٦١) و١١ حزيران ١٩٧٩ (س – ١٣٣٨٧).

ويعود ويؤكد دعوته إلى الاحترام الشديد لسلامة أرض لبنان ووحدته وسيادته واستقلاله السياسي ضمن حدوده المعترف بها دولياً.

ويعرب عن قلقه لاستمرار العراقيل حيال المهمة التامة لقوات الأمم المتحدة في لبنان والتهديدات لأمن هذه القوة بالذات، وحريتها في التحرك وسلامة مقرها، الأمر الذي حال دون إنجاز برنامج نشاطها المقرر.

ويؤكد اقتناعه بأن للوضع الحالي عواقب خطيرة على السلام والأمن في الشرق الأوسط، وأنه يؤذي تحقيق سلام عادل وشامل ودائم في المنطقة.

١ – يأسف جداً لأعمال العنف ضد لبنان التي أدت إلى تهجير المدنيين وفي جملتهم الفلسطينيون وتسببت في الدمار وقتل الأبرياء.

٢ – يدعو إسرائيل إلى وقف أعمالها فوراً ضد سلامة أراضي لبنان ووحدته وسيادته واستقلاله السياسي، ولا سيما توغلاتها في لبنان ومساعداتها المستمرة لجماعات مسلحة غير مسؤولة.

٣ – يدعو كذلك جميع الأطراف المعنيين إلى الامتناع عن النشاطات المنافية لأهداف قوات الأمم المتحدة في لبنان، وإلى العمل المشترك لانجاز هذه الأهداف.

٤ – يعيد القول إن أهداف قوات الأمم المتحدة في لبنان كما هي محددة في القرارات ٤٢٥، و٤٢٦، و٤٤٤ يجب أن يتحقق بلوغها.

٥ – يوصي بشدة بانجاز مهمة قوات الأمم المتحدة في لبنان، ويكرر النصوص المختصة كما



هنا كانت عائلة تسكن الحب والطمانينة.

حددها تقرير الأمين العام في الوثيقة ١٢٦١١ بتاريخ ١٩ آذار ١٩٧٨، والتي صادق عليها مجلس الأمن بالقرار ٤٢٦ (١٩٧٨) خصوصاً أنه ينبغي للقوة أن تتمتع بحرية التحرك والاتصال وسوى ذلك من التسهيلات الضرورية لانجاز مهماتها، وأن تستمر في قدرتها على القيام بواجباتها طبقاً للنصوص المشار إليها، وفي جملتها حق الدفاع عن النفس.

٦ - يعود فيؤكد أن اتفاق الهدنة بين اسرائيل ولبنان ما يزال ساري المفعول وفقاً لقراراته المختصة بذلك، ويدعو الأطراف إلى اتخاذ الخطوات الضرورية لتجديد نشاط لجنة الهدنة المشتركة وضمان الاحترام التام لسلامة منظمة الأمم المتحدة المكلفة الاشراف على الهدنة وحريتها في العمل.

٧ - يستحث جميع الدول الأعضاء لممارسة نفوذها لدى أولئك المعنيين حتى تستطيع قوات الأمم المتحدة في لبنان القيام بمسؤولياتها قياماً تاماً ومن دون عراقيل.

٨ - يقرر تجديد مدة قوات الأمم المتحدة في لبنان ستة أشهر، أي حتى ١٩ كانون الأول ١٩٧٩.

٩ - يعود فيؤكد تصميمه في حال الاستمرار بعرقلة مهمة قوات الأمم المتحدة في لبنان على تقصي الطرق والوسائل العملية المطابقة للنصوص المختصة في ميثاق الأمم المتحدة لضمان تطبيق القرار ٤٢٥ (١٩٧٨).

١٠ - يقرر أن يبقى مهتماً بالقضية.

مواقف الأمم المتحدة:

يمكن القول ببساطة، إن أية قضية في العالم، لم تعرض على هيئة الأمم المتحدة، ومجلس الأمن الدولي، عدد المرات التي عرضت عليها قضية لبنان، أو قدمت شكاوى من أجلها. وما اتخذته الهيئتان من قرارات وتوصيات، يفوق الحصر. ومع ذلك لم يتبدل وضع الجنوب، بل وما زال، كما قلنا مرات، يتفاقم يوماً بعد يوم.

لا سبيل إلى عرض كل مواقف الهيئتين، وقراراتهما وتوصياتهما. لذلك لا بد من أن نجتزىء بالقليل القليل، المعبر على كل حال، عن التباين بين القرارات والتنفيذ، ثم عن مدى نكبة البشرية بوجود اسرائيل المستهترة بكل ما هو إنساني.

اتخذ مجلس الأمن قرارات كثيرة، وعلى مدى سنوات، وكلها يدين إسرائيل، أو يطالبها بالكف عن الاعتداءات، أو بسحب قواتها، الخ... من جملة هذه القرارات:

١٩٦٩/٨/٢٦ اتخذ المجلس قراراً يدين الاعتداء الجوي الاسرائيلي على قرى الجنوب اللبناني، ويؤكد أنه لا يمكنه «إحتمال» الأعمال العسكرية الانتقامية، والانتهاكات الخطيرة لوقف اطلاق النار.

١٩٧٠/٥/١٢ اتخذ مجلس الأمن قراراً بضرورة سحب اسرائيل قواتها المسلحة من الأراضي اللبنانية. وبعد أيام من هذا القرار (رقم ٢٧٩) شنت إسرائيل هجوماً واسعاً على الجنوب اللبناني، واتخذ مجلس الأمن القرار (٢٨٠) بتاريخ ١٩٧٠/٥/١٩، منددأ، ومطالباً بالانسحاب، وبدا أن قدرته على «الاحتمال» لم تنفذ.

كذلك اضطر مجلس الأمن إلى اتخاذ القرار (٢٨٥) بتاريخ ١٩٧١/٩/٥ يطالب اسرائيل بسحب قواتها كاملة من الأراضي اللبنانية، فوراً.

وتوالت الاعتداءات، وتوالى إصدار قرارات مجلس الأمن (٣١٣، ٣١٦، ٣٣٢) واسرائيل غير مبالية، مستهترة بمجلس الأمن ومن يمثل.

وكان آذار ١٩٧٨ حين اجتاحت الجيوش الاسرائيلية الجنوب اللبناني كله تقريباً. واستخدمت لذلك القوات الجوية والبرية والبحرية.

وكانت المعارك دائرة حين اجتمع مجلس الأمن يومي ١٧ و١٨ آذار ١٩٧٨، أي بعد ثلاثة أيام من بدء الغزو الاسرائيلي، واتخذ القرار ٤٢٥ التالي:

١ – يدعو مجلس الأمن إلى الاحترام الدقيق لسلامة أراضي لبنان وسيادته واستقلاله السياسي ضمن حدوده الدولية المعترف بها.

٢ – يدعو إسرائيل إلى أن توقف فوراً عملياتها العسكرية ضد أراضي لبنان، وأن تسحب فوراً قواتها من كل الأراضي اللبنانية.

٣ – يقرر في ضوء طلب الحكومة اللبنانية، أن تقيم فوراً تحت سلطتها قوة مؤقتة تابعة للأمم المتحدة في جنوب لبنان من أجل تأكيد انسحاب القوات الاسرائيلية، وتثبيت السلام والأمن الدوليين، ومساعدة حكومة لبنان على عودة سلطتها الفعلية في المنطقة، على أن تتألف هذه القوة من عناصر توفرها الدول الأعضاء في الأمم المتحدة.

٤ – يطلب من الأمين العام أن يبلغه خلال ٢٤ ساعة عن تنفيذ هذا القرار.

صدر بعد ذلك القرار ٤٢٦ الذي يوافق على تقرير الأمين العام للأمم المتحدة، وعلى إحداث قوة الأمم المتحدة لمدة ستة أشهر.

ثم صدر القرار ٤٢٧ الذي يوافق فيه على زيادة عدد قوات الأمم المتحدة، ويعلن أخذه علماً بالانسحاب الاسرائيلي الجزئي، ويدعو إسرائيل الى الانسحاب التام.

وقد تشكلت قوات الأمم المتحدة من فرنسا، وفيدجي، وإيرلندا، والنيبال، والنرويج، وهولندا ونيجيريا والسنغال وغانا وإيران (انسحبت القوات الايرانية فيما بعد).

ولكن هذه القوات لم تستطع – حتى اليوم – تنفيذ مهماتها، وقد اضطر مجلس الأمن إلى تمديد فترات بقاء قوات الأمم المتحدة، مرة بعد مرة. كما اضطر إلى إصدار قرارات إدانة إسرائيل. فكانت القرارات ٤٤٤، ٤٥٠، ٤٥٩.

ولعل من أبرز ما اتخذه المجلس من تدابير، ما ورد في تصريح رئيس المجلس آنذاك، دونالد ميلز، إثر صدور القرار ٤٤٤، ويقضي بوضع برنامج مرحلي تتألف مرحلته الأولى مما يلي:

١ – أن تزيد الحكومة اللبنانية من الوجود الاداري المدني اللبناني في الجنوب.

٢ – إرسال كتيبة من الجيش اللبناني إلى منطقة عمليات قوات الأمم المتحدة.

٣ – تثبيت وقف اطلاق النار في المنطقة ووقف المضايقات التي تسببها قوات الأمر الواقع لقوات الأمم المتحدة وللسكان المدنيين في منطقتها.

٤ - زيادة انتشار قوات الأمم المتحدة وسيطرتها في المنطقة الحدودية التي تسيطر عليها قوات الأمر الواقع، وذلك على أساس الاقتراحات التي قدمها قائد هذه القوات في تشرين الثاني ١٩٧٨ (س/ ١٣٠٢٦، الفقرة ٢٢).

حاول لبنان تنفيذ ما يخصه من تلك المراحل، بمساندة قوات الأمم المتحدة، وأرسل كتيبة قوامها خمسمائة جندي وضابط، ولكن إسرائيل وقوات الأمر الواقع منعت استكمال تنفيذ الخطة.

واجتمع مجلس الأمن مجدداً. وأصدر القرار ٤٥٠، الذي ذكر بكل القرارات السابقة، وندد بالعراقيل التي تضعها اسرائيل في طريق تنفيذ قرارات مجلس الأمن، ودعا اسرائيل إلى وقف عملياتها «فوراً». وأشار إلى الخطر على السلام في المنطقة وفي العالم، وذكر باتفاقات الهدنة السارية المفعول، الخ... وحذر من أنه سيتقصى «الطرق والوسائل العملية المطابقة للنصوص المختصة في ميثاق الأمم المتحدة لضمان التطبيق التام للقرار ٤٢٥ (١٩٧٨)»... ولكن...

اضطر مجلس الأمن الى الانعقاد مرة أخرى (٢٠/١١/١٩٧٩) وإلى اتخاذ قرار جديد (٤٥٩) يؤكد على القرارين ٤٢٥، و٤٥٠. ويشكر جهود الأمين العام للأمم المتحدة، ويسجل للحكومة اللبنانية تنفيذها برامج عمل بالتشاور مع الأمين العام لاستعادة سلطتها المقررة في القرار ٤٢٥ ويذكر باتفاقيات الهدنة. ويمدد لقوات الأمم المتحدة ستة أشهر أخرى. وينذر إسرائيل بدرس «الوسائل العملية» إذا استمرت في عرقلة مهمة قوة الأمم المتحدة!

«ورداً» على هذا الانذار - في ما يبدو - دخلت القوات الاسرائيلية الجنوب اللبناني لتقوم «بدوريات» حفاظاً على أمنها.

اجتمع المجلس واتخذ القرار ٤٦٧ الذي يذكر بكل القرارات «الهامة» السابقة، وبأن قوة الأمم المتحدة «لن تستخدم السلاح إلا في حال الدفاع عن النفس». وبتصميم المجلس على تنفيذ مقرراته السابقة «جميعاً». ويدين إسرائيل بالاجتياح، وأعمال العنف، ومساندة قوة «الأمر الواقع» وعرقلة قوة الأمم المتحدة ومنعها تنفيذ مهمتها، الخ...

يجدد مجلس الأمن لقوات الأمن الدولية بالقرار ٤٧٤، ويعيد إلى الأذهان ما انطوت عليه قراراته السابقة، ويذكر بالخطر على «السلام في العالم»، ويأخذ علماً بالجهود، ويقرر إبقاء يده على الموضوع!..

ولكن جواب اسرائيل على ذلك يختصره تقرير الأمين العام لهيئة الأمم المتحدة بما يلي وباختصار: استمرار اسرائيل في دعم قوات الأمر الواقع - توغل القوات الاسرائيلية في أكثر من مناسبة في الأراضي اللبنانية، واحتفاظها بعدد من المواقع، مما سبب «قلق» قوات الأمم المتحدة - تزايد القوات الاسرائيلية منذ ١٨ آب ١٩٨٠ ضمن الشريط الحدودي - قصف قلعة الشقيف ابتداء من الساعة ٢٠,١٥ وحتى الرابعة صباحاً - قصف مدفعي وجوي - قيام ٢٠٠ جندي اسرائيلي بعمليات في أرنون وكفرتبنيت، رغم أن القريتين تقعان خلف مواقع قوات الأمم المتحدة.

نختتم كل ذلك بعرض بعض المواقف الدولية. فللبنان صداقات، ولكن المواقف ظلت ضمن إطار التأييد مرة، والأسف مرة، والتنديد باسرائيل مرة. فيما استمر وضع الجنوب في التفاقم، وعدوان اسرائيل في التعاظم.

مندوب فرنسا يشجب كلياً عدوان آذار. ومندوب الولايات المتحدة يدعو إلى وقف دورة العنف، ومندوب ألمانيا يأسف، ومندوب الاتحاد السوفياتي يعتبر العدوان الاسرائيلي (آذار ١٩٧٨) حلقة في سلسلة الاعتداءات الاسرائيلية. ومندوب كندا يطالب باعطاء لبنان حق ممارسة سلطاته على أرضه، والمندوب البريطاني يحبذ إرسال قوات دولية إلى جنوب لبنان.

وفي هذا الوقت تنعقد مؤتمرات دولية، لمعالجة الوضع في لبنان الجنوبي، وتخرج بالنتائج نفسها، «رغم حسن النية».



لم توفر دبابات العدو سيارات الأبرياء بمن فيها.

(الصور من المجلس الوطني لإنماء السياحة).

اجتمعت الدول المشاركة في القوات الدولية العاملة في جنوب لبنان في مؤتمر أصدر بياناً يطالب اسرائيل بالضغط على قوات الميليشيات التي يقودها سعد حداد للكف عن عرقلة عمل قوات الأمم المتحدة، ذلك أن الدعم الذي يلقاه من اسرائيل عامل رئيسي في عرقلة عمل تلك القوات.

وانعقدت قمة البندقية في ١٣ حزيران ١٩٨٠، وأصدرت بياناً تعلن فيه تضامنها مع لبنان «البلد الصديق» الذي يتعرض فيه «التوازن!» لخطر جدي. وذكر بضرورة قيام القوات الدولية بمهماتها وعدم عرقلة سعيها.

وفي زحمة الأحداث، والقرارات المتكررة، والأسف والدعم الكلامي، أقيم يوم صور في باريس، ولعله كان أقدر على إيصال مأساة الجنوب الى العالم.

فقد عرضت في ذلك اليوم نماذج من آثار صور، وأقيمت حفلة كبرى في مقر اليونسكو، تكلم فيها عدد من الخطباء بينهم السفير باولو كارنيرو رئيس اللجنة الدولية للتاريخ الثقافي والعلمي للبشرية، ثم عرض فيلم للمواقع الأثرية في صور. وقد وجهت اللجنة الدولية نداء إلى الرأي العام العالمي من أجل الحفاظ على صور وآثارها.

وفي ١٦ حزيران ١٩٨٠ عقد في باريس المؤتمر العالمي للتضامن مع الشعب اللبناني الذي ضم ممثلين عن ستين دولة، ومندوبين من ١٥٠ مؤسسة سياسية وهيئة دولية وقد وجهت شخصيات بارزة عالمياً بياناً تضامنياً «مع وحدة لبنان أرضاً وشعباً، ومع كفاحه ضد العدوان الاسرائيلي».

ولكن، ماذا بعد كل هذا؟
هل انتهت محنة الجنوب؟
هل هي في طريق الحل؟

الجواب على الأسئلة قاس، ولكنه حقيقي!

لن يجدي كل الأسف والآمال العريضة والتمنيات القلبية، ولن تنفع كل الضمائر التي استيقظت على حقيقة اسرائيل، وعلى مأساة لبنان وجنوبه خاصة!

فالجنوب يدفع من وجوده ومن أبنائه ثمن غطرسة اسرائيل وتغاضي المجتمع الدولي. والجنوب مع ذلك ما يزال صامداً، وسيبقى كذلك إلى أن يفاجيء العربَ الخطرِ الكامن في الجنوب فيهدد مصير العرب جميعاً! ترى هل يكون بذلك الخلاص؟ ■

● راجع كتاب جنوب لبنان، مأساة وصمود الذي أصدرته اللجنة الخاصة باعداد الحملة الاعلامية لنصرة الجنوب وفقاً لقرار مجلس وزراء الأعلام العرب في جامعة الدول العربية.

ستا

مَعركة غيّرت وجه الحرب العالميّة الثانية

العقيد الكسندر م. سامسونوف

ترجمة تاريخ العرب والعالم



لينغراد

الحلقة الثانية

... معركة كبيرة أسهمت في تغيير وجهة الحرب وكان الاطلاع على تفاصيلها شيقاً لكل من تابعها، وفي هذه الحلقة الثانية والأخيرة نتابع سير المعارك الضخمة والشرسة التي أنتهت بتحرير ستالينغراد من القوات الألمانية بعد خسارتها ١٠٠ ألف مقاتل.

«ساتورن»:



جرى تأجيل العملية عدة مرات لإعطاء الفرصة للفرق لإتمام تجمعها. وأخيراً حدد الهجوم في ١٢ كانون الأول. كانت المهمة الرئيسية تقع على عاتق الفرقة المدرعة الـ٥٧ بينما تلقى «باولوس» الأمر بالخروج من فخه دون أن يتخلى عن مواقعه في ستالينغراد.

وبينما كان الالمانيون يتخذون بسرعة كلية كل التدابير الضرورية لقلب الوضع على «الفولغا» بقي الروس من جهتهم يحتفظون بالمبادرة في ستالينغراد، كانت مهمة الجيش الأحمر هي ابادة القوات المطوقة، وفي الوقت نفسه القيام بهجوم مباشر باتجاه «روستوف».

كانت القيادة السوفياتية العليا تريد الانتهاء من عملية تدمير القوات المطوقة بسرعة واسندت هذه المهمة الى جبهة «الدون» والى القوات الرئيسية من جبهة ستالينغراد أي الجيوش الـ ٥٢ والـ٥٧ والـ ٦٤. وبالفعل بدأ الهجوم في ٢٤ تشرين الثاني.

كانت المعارك ضارية وصمد الالمان بعناد واحيانا بهجمات مضادة. وفي مساء ٢٩ كانت المساحة التي يحتلها «باولوس» وفرقه قد تقلصت الى النصف. ولم تكن جبهتا «الدون» وستالينغراد تملكان الفرق الضرورية لمتابعة مهمتهما لتفريق القوات العدوّة وتدميرها منفردة. وكان هنالك أكثر من ٣٠٠,٠٠٠ الماني في هذه العزلة بينما كانت تقديرات الروس سيئة اذ انهم اعتقدوا ان هنالك ٩٠ الف جندي فقط في هذه العزلة وقللوا من أهمية الأسلحة والمعدات التي بحوزة المحاصرين.

في نهاية تشرين الثاني، جهز السوفياتيون عملية هجوم جديدة، كان اسمها الرمزي «ساتورن». في هذه العملية كان على الجبهة الجنوبية الغربية والجناح الايسر لجبهة «فورونوف» تحطيم الجيش الايطالي الثامن الذي يدافع عن «الدون» الأوسط بين «نوفاي كالينغا» و«فيرشنسكاي» وايضا تدمير القوات الالمانية المتمركزة «التشير» بمحاذاة «تورموسين» ثم التقدم بالهجوم باتجاه «ميليرنو» و«روستوف».

وفي الثامن من كانون الأول قررت «الستافكا» التخطيط بعناية اكثر، لابادة قوات «باولوس». وكان ذلك يقتضي اعادة تجميع الوحدات الروسية وتدعيمها من الاحتياطي وتزويدها بكميات لا تنضب من المحروقات والذخائر. ولتنفيذ ذلك وضع جيش الصدم الخامس (الجنرال بوبون) في التاسع من كانون الاول، بين الجيش الـ ٥١ من جبهة ستالينغراد والجيش المدرع الخامس من الجبهة الجنوبية الغربية. بعد ذلك بقليل وصل جيش الحرس

الثاني (الجنرال مالينوفسكي) الى منطقة ستالينغراد. كان على الجميع أن يكونوا جاهزين في الثامن عشر من كانون الأول. مبدئيا كان في نية «الستافكا» استعمال جيش الحرس الثاني بالجبهة الجنوبية الغربية للقيام بهجوم ينطلق من منطقة «كالاتش» باتجاه «روستوف» و«تاغانروك» حسب خطة «ساتورن». لكن «الستافكا» قررت اخيرا استعمال جيش الحرس الثاني ضد مجموعة «هوت».

في الثاني عشر من كانون الاول كانت الاوضاع على الجبهة الخارجية كالتالي:

مواجهة مجموعة هوت (ثلاثة عشر لواء) وضع جيش الصدم الخامس والجيش الـ ٢١ السوفياتيان: ثمانية ألوية مشاة، بعض التحصينات، فرقتان آليتين، فرق فرسان، أربع فرق مدرعة، ثماني فصائل مدفعية ومدفعية هاون اخذت من احتياطي القيادة العليا، وفصيلتان لاطلاق الصواريخ.

قبل البدء بعملية الانقاذ، كان الالمان يتقدمون قليلا في المنطقة التي قرروا الهجوم عليها، وكانت القوات السوفياتية في وضع متزعزع نوعا ما: لكن المعادلة الكبرى للقوات في جنوب الجبهة الالمانية الروسية لم تكن لصالح الالمان أبداً وكل ما كان هؤلاء يأملونه هو الاتحاد مع الجيش السادس والسماح له بالعودة للاشتراك جزئيا في المعركة بشكل جدّي. ومن المؤكد انهم لو استطاعوا ذلك لكان السوفياتيون رأوا انفسهم في وضع عسكري صعب.

في براري «كالموكس»:

بدأت تحركات الجنرال «هوت» صباح ١٢ كانون الاول وانطلاقاً من «كوتيلينكوفو» باتجاه الشمال الشرقي. لقد قام الالمانيون بتوجيه قواهم الرئيسية باتجاه منطقة شاسعة تقع على طول الخط الحديدي «كوتيلينيكوفو – ستالينغراد» ومن هنا قام لواء الدبابات الـ ٦ والـ ٢٣ من الفرقة المدرعة الـ ٥٧ بالهجوم وكانت أجنحتهما بحماية المشاة والفرسان. وقد كان هدف الالمان الالتقاء مع فرق «باولوس» في جنوب غربي محطة «تودوتوفو»، وفي مواجهتها



● معارك في إحياء المدينة... بين الانقاض

كان هناك لواء المشاة الـ /١٢٦/ والـ /٣٠٢/ من الجيش الـ ٥١.

بعد تحضير مدفعي، انطلق الالمان على مراكز لواء المشاة الـ /٣٠٢/ ومحطة «كوريوبارسكي» الحديدية. صمد السوفياتيون بشراسة لكن الالمان كانوا متفوقين كثيرا بدباباتهم وطائراتهم واستطاعوا هكذا الافادة من نجاحهم الرئيسي، اذ مع حلول المساء كانت مقدمة لواء الدبابات السادس قد وصلت الى الضفة الجنوبية «اكساي» من عدة نقاط، بينما كان لواء الدبابات الـ ٢٣ قد توغل حتى شمال «نابيلكوفو».

وتكرر الهجوم صباح الثالث عشر وكان التحرك الرئيسي الالماني ما يزال يستهدف اللواء الـ ٣٠٢ عندئذ اطلقت الفرقة المتحركة الـ ١٣ لايقاف التقدم الالماني، وفي النهار قامت ثلاثون طائرة من نوع «ستورموفيك» ٢ – ١١ تابعة للجيش الجوي الثامن بغارتين جويتين على الدبابات الالمانية في هذا القطاع. ولم يتمكن العدو من الوصول الى اللواء الـ /١٢٦/ ولكنه تابع ضغطه على فصائل اللواء الـ /٣٠٢/ التي كانت تتقهقر باتجاه «اكساي»، في اليوم الثاني من الهجوم استولى لواء الدبابات السادس على رأس جسر قائم على الـ «اكساي» في «زالينكسوى» وانطلقت منه فصائل سيطرت على مجموعة مزارع «فيركني كومسكي». ووصل اللواء المدرع الـ ٢٣ هو ايضا الى النهر وأقام رأس جسر في «غروغليكوفو» حيث تمر الطريق والسكة الحديدية معا.

كان وصول قوات «هوت» الى «اكساي» يشكل خطرا حقيقيا لجبهة الحصار الخارجية ويهدد باختراقها. وبانتظار وصول جيش الحرس الثاني، كانت مسؤولية احتواء الهجوم الالماني تقع على عاتق الجيش الـ ٥١ ويتوقف سير العمليات القادمة على صلابته. لقد تقرر عزل الدبابات الالمانية عن المشاة وفرق التموين ثم تدميرها كلًا على حدة، على طول خط «اكساي». واسندت هذه المهمة الى مجموعة صدم من الجيش الـ ٥١ مؤلفة من الفرقتين الآليتين الـ ٤ والـ ١٣ ومن عدة وحدات مستقلة.

متابعة العملية غير ممكنة:

في ١٥ كانون الاول تمكنت الفرقة الآلية الرابعة مع الدعم، من اخراج الالمانيين من «فيركني كومسكي» واعادتهم الى «اسكاي». وفي

اليوم التالي انشغل الطرفان بعمليات ثانوية وبالتحضير لمتابعة العمليات.

وحالت المقاومة العنيدة لجبهة ستالينغراد من اقتراب الالمانيين من «ميشكوف» ممكنة بذلك انتشار جيش الحرس الثاني. وكان على هذا الاخير ان ينهي عملية تجمعه شمال النهر مع الفرقة الالية الثانية التابعة للحرس في ١٧ كانون الأول واقامة خط دفاعي بين «نيجني كومسكي» و«كابكنسكي» بالدبابات والمشاة المنقولة يدعمها الطيران بهدف التحرك بين «اسكاي» و«ميشوفا» حيث كان لواء مشاةوفرقة آلية من جيش الحرس الثاني قد تمركزا الى الشمال منها ومنذ منتصف الليل كان لواء المشاة الـ٨٧ وفرقة الفرسان الرابعة والفرقة الالية الرابعة قد الحقت به.

في ١٨ كانون الاول دفع الالمانيون بلواء الدبابات الـ١٧ الى المعركة. فاقتحم الممر في اسفل «اسكاي» بالقرب من «فيرا لوفسكي» ووصل الى مجموعة «مزارع ٨ آذار» على بعد عشرة كيلومترات الى الغرب من «فيركني كومسكي» حيث كان اللواء المدرع السادس ما يزال يحاول اقتحامها.

كانت الفرقة الرابعة للجنرال «فولسكي» تتابع احتواء عمليات التقدم العدوة. وفي مساء ١٨ علم الجنرال ان وحدته قد رقيت الى «وحدة حرس» وأصبح اسمها «فرقة الحرس الالية الثالثة» وتابع رجاله صمودهم أمام هجمات لواءي الدبابات ولكن في مساء ١٩ اجبروا على التخلي عن «فيركني كومسكي».

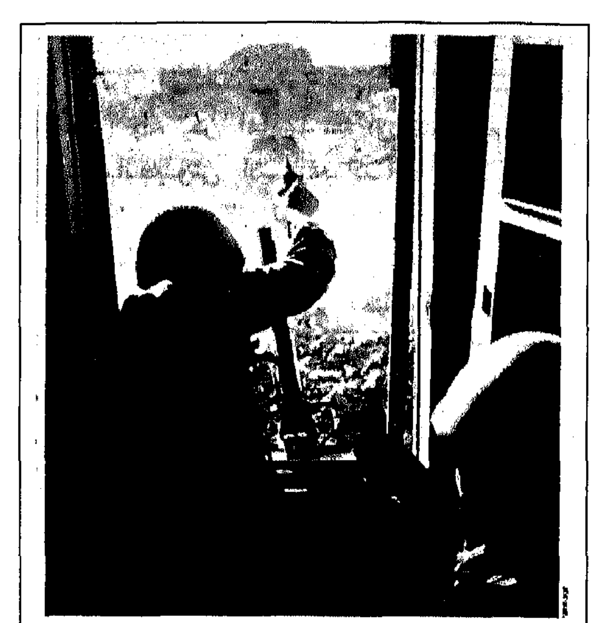
لعبت هذه المقاومة دوراً رئيسيا وكان للمعارك التي قامت بها فرقها لتأخير الالمان، الفضل الكبير بوصول ١٥٠ قطاراً محملاً بالفرق وبالمعدات التابعة لجيش الحرس الثاني الى منطقة ستالينغراد، والتمركز على خط الدفاع القائم على الضفة الشمالية لـ«ميشكوفا».

ورفضت القيادة الالمانية الاعتراف بهزيمتها وتابعت بعناد عمليات الاخلاء حتى ٢٣ كانون الاول محاولة دون جدوى الوصول الى خط «ميشكوفا» وكانت مجموعة «هوت» قد اقتربت الى أقل من اربعين كيلو مترا من المحاصرين في ستالينغراد، لكن خسائرها في الأرواح والمعدات وصلت الى الحد الذي جعل قوتها الدفاعية تبلغ الصفر. واعترف «هوت» نفسه ومعه الجنرال «كريشنر» قائد اللواء المدرع الـ١٧ بأنه لا يمكن متابعة العملية الا في حال وصول فرق جديدة. كان وضع قوات «فانستين» حساسا بمجمله مما دفع الجبهة السوفياتية الجنوبية الغربية الى القيام بعملية حاسمة في شمال غرب ستالينغراد، رغم ان هجوم «هوت» كان شديد الاحتدام، كانت فرق الصدم لهذه الجبهة وللجناح الأيسر من جبهة «نورونيف» قد بدأت هجومها في ١٦ كانون الاول ضد الجيش الايطالي الثاني ومجموعة «هوليدت» وبقايا الجيش الروماني الثالث. وبعد ثلاثة أيام من القتال، سحق الالمان وبدأت القوات السوفياتية بالتقدم جنوبا وجنوبا غربا. وسيطرت الفرقة المدرعة الـ١٧ (الجنرال بولوبوبياروف) على «كانتيميروفكا». في ١٩ كانون الأول وفي ٢٤ منه كانت الفرقة المدرعة الـ٢٤ (الجنرال بادانوف) قد استولت على «تانسينكاي».

ونتيجة لهزيمة الايطاليين والالمانيين في اواسط «الدون» تلقى «فون مانستين» الامر بان يحول الى مجموعة الجيوش «ب» كل التشكيلات التي كانت متجهة للالتقاء به. وبسبب ذلك اضطر لواء الدبابات الـ٢١ الذي كان يتجه الى «كوتيلينسكوفو» الى العودة الى «التشير» الاسفل حيث اتجه ايضا اللواء المدرع السادس باقصى سرعة. وقرر «مانستين» عندئذ، التزام الدفاع، منتظرا وصول اللواء المدرع «الفايكنغ» القادم من الجيش المدرع الاول الموجود في القوقاز اما بالنسبة الى عملية «هوت» فقد انتهت بصورة جيدة والى الابد.

لم يبق الماني واحد:

في ٢٤ كانون الاول كانت كل الظروف المشجعة لاطلاق رصاصة الرحمة على قوات «هوت» متجمعة في جانب السوفيات وكان قد بدىء بهذه العملية اثناء القتال فور تحوله لصالح الروس في «كونيلينكوفو» عندما أرسل جيش الحرس الثاني الى جبهة ستالينغراد وعندما تبعته الفرقتان المدرعتان السادسة والسابعة لمساندته. كانت نسبة تفوق الجيش الاحمر



القنابل التي أمطرت على ستالنغيراد مرة ١٤٣ يوماً كانت أحياناً... من النوافذ.

عندئذ تعادل اثنتين مقابل واحد في القوات العاملة و١،٦ مقابل ١ للمدفعية ولكن بقي الطيران الالماني متفوقاً بنسبة ١،٧ مقابل ١.

بدأ الجيش الثاني والجيش الـ ٢١ بهجومهما في ٢٤ وكان الاول مسؤولا عن التحرك الرئيسي، فتقهقر الالمانيون حتى «اسكاي» ولكن بعد قيامهم بعمليات تأخيرية ضارية. وقام الجنرال «رونميستبروف» على رأس الفرقة المدرعة السابعة باجتياز النهر في ليل ٢٥ واستولى على «فيرالوفسكي» عند الفجر. اما على اليسار وفي الوسط فكان الهجوم يتقدم ايضا بصورة جيدة. ففرق جيش الحرس الثاني تتقدم باتجاه «كوتيلينيكوفو» من الشمال وفرق الجيش الـ ٥١ من الشمال الشرقي وقام جيش الحرس الثالث والفرقة المدرعة الثالثة عشرة بالتوغل داخل الجيش الروماني الرابع وبدأت بحركة تطويقية كبرى للقوات العدوة في «كوتيلينكوفو». ظهر ٢٧ كانون الاول حاولت الفرقة المدرعة السابعة الوصول الى «كوتيليتيكوفو» في الشمال، لكنها فشلت وبدأت معركة كبيرة للسيطرة على المدينة التي تدافع عنها فرق المانية نخبة. ونتيجة لذلك قرر الجنرال «مالينوفسكي» القيام بعملية تطهير ضفة «الدون» الغربية، بعد الاستيلاء على رأس جسر منطقة «كراسنوارسكي – فيركيني – كوميارسكي» وقامت فرقة الحرس الآلية الثانية باجتياز النهر. وفي نفس اليوم عاودت الفرقة السابعة هجومها على «كونيلنيكوفو» مهاجمة بصورة محورية بمجموعتي دبابات وبمجموعة مشاة مؤللة وهكذا أصبح الالمانيون محاصرين من الغرب وأجنحتهم منعزلة عن المؤخرة كون كل الطرق المؤدية الى «كوتيلينكوفو» من الغرب ومن الجنوب الغربي اصبحت بأيدي الروس. كذلك موقع الطائرات مع خمس عشرة طائرة وثمانمائة خزان للوقود وكمية كبيرة من القنابل عدا الطائرات التي حطت فيما بعد، معتقدة ان المنطقة ما زالت بأيديهم. وطهرت المدينة والمحطة تطهيرا كاملا ولم يبق الماني واحد في صباح ٢٩ كانون الاول.

وكان من شأن احتلال «كوتيلينكوفو» تسهيل عملية الفرقة الالية للجنرال «بوغدانوف» الذي كانت وحداته قد بدأت تتحرك باتجاه مجموعات «روتميستروف» ولخوفهم من عملية تطويق، قام الالمانيون بالانسحاب الى «روستوف» مخلفين وراءهم ثلاثة الاف قتيل وأسير وخمسة وستين مدفعا وكميات من الذخائر.

أصبحت الطريق الآن معبدة للانتهاء من الالمانيين في «تورموسين» وهم لم يكونوا بعيدين كثيرا عن قوات «باولوس» وكانوا بسبب ذلك يشكلون خطرا على الروس ولكن المعركة التي شنها عليهم جيش الصدم الخامس امتدت طولا مما دفع «الستافكا» على التأكيد على ضرورة تدمير هذا العائق بسرعة، وافهمت ذلك الى قائد جبهة ستالينغراد والى الجنرال «مالينوفسكي» وقام هذا الاخير بتحريك جناحه الايمن باتجاه «تورموسين» التي حررت في الواحد والثلاثين من كانون الاول مما حرم الالمان من مجموعة الطرق ومن المخازن الرئيسية لمجموعة جيوش «الدون» التي كانت تستعمل لتموين فرق «تورموسين» و«نيجني تشير سكاي».

في الواحد والثلاثين من كانون الاول وصلت قوات جبهة ستالينغراد الى خط «نيركني – رويجني – تورموسين – كلوبوكي» اثناء عملية «كوتيلنيكوفو» كان الجيش الروماني الرابع قد دمر كليا والجيش المدرع الرابع قد تقهقر حتى «زيمزفنيكي» على بعد ٢٥٠ كلم

تقريبا من ستالينغراد بعد اصابته بخسائر جسيمة. وكان الناجون من مجموعة جيوش «الدون» يتقهقرون جنوبا باتجاه «مانيتش» وكان هجومهم قد مني بالفشل التام.

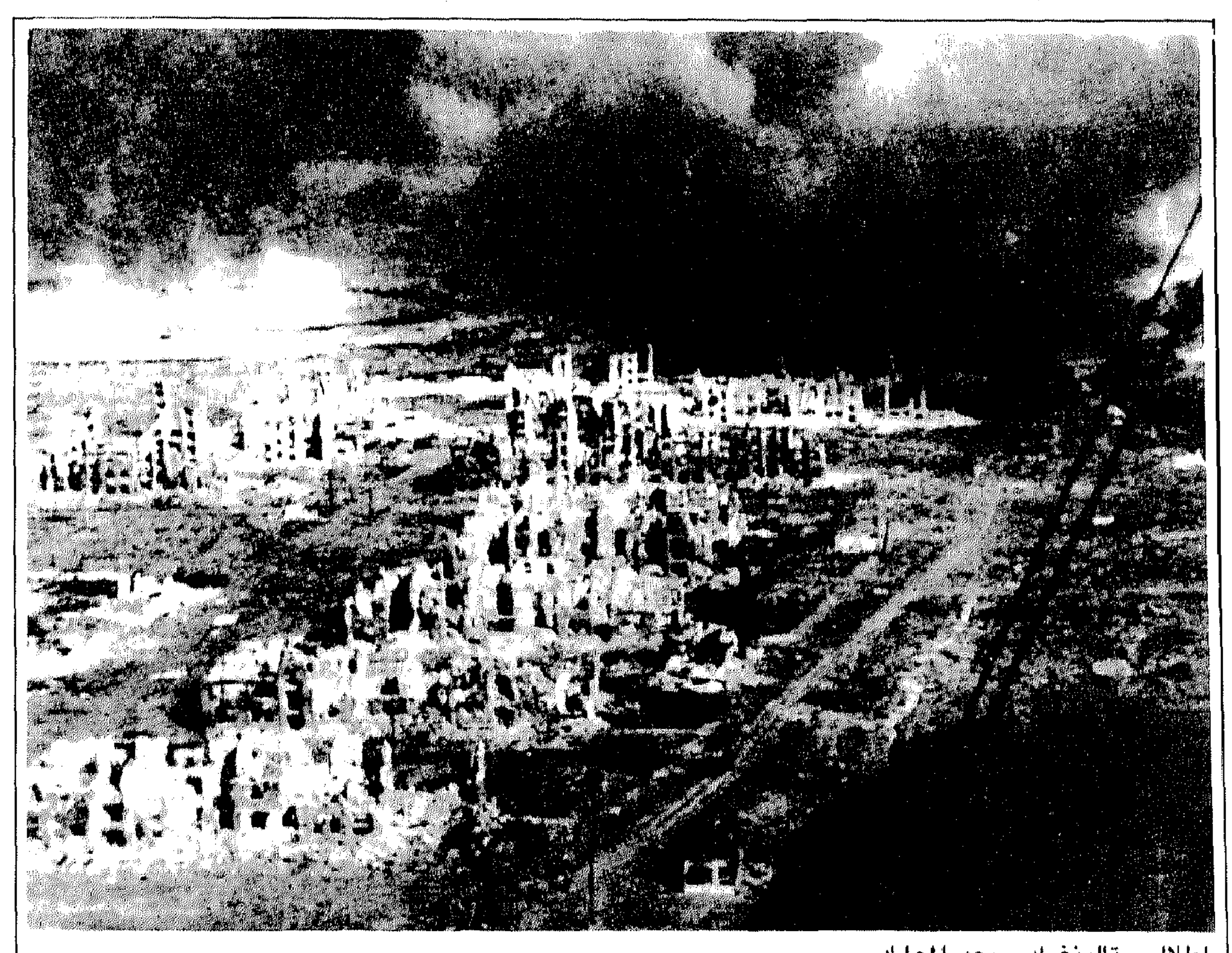
أوقعت العمليات الهجومية التي شنها السوفياتيون خلال شهر كانون الاول خسائر جسيمة في صفوف الالمان. فالجيش الايطالي الثامن دمر كليا وما تبقى من الجيشين الرومانيين الثالث والرابع ابيد، اما مجموعة «هوليدت» والجيش المدرع الرابع الجديد فقد هزم واصبح بامكان الجيش الأحمر الآن القيام بعمليات هجومية استراتيجية جديدة في كل المنطقة الجنوبية.

الانذار:

في نهاية كانون الأول كانت الجبهة الخارجية على بعد مئتي كيلومتر تقريبا من القوات الالمانية المحاصرة. وكانت هذه متجمعة الان فوق مساحة ١٥٠٠ كلم مربع تقريبا (٥٠ كلم من الشرق الى الغرب و٣٠ كلم من الشمال الى الجنوب) ولم يكن امامها الا ان تستسلم او ان تباد بالجيوش السوفياتية السبعة التي تحاصرها.

كان وضعهم يتدهور شيئا فشيئا فكل المساحة التي يحتلونها تقريبا تقصفها المدفعية السوفياتية وتجرفها. والذخائر والوقود في نقص مستمر والوضع التمويني في خطر. ولم يكن الطيران ليستطيع تلبية أدنى الحاجات بعد اسقاط مئات طائرات النقل في كانون الاول بالمطاردة وبالمواقع الروسية المضادة للطائرات. وخلال الشهر هذا توفي ثمانون الف رجل متأثرين بالجروح أو نتيجة الجوع والمرض. ولم يبق سوى مائتان وخمسون الفاً فقط.

ورغم كونهم في وضع ميؤوس منه، فان المحاصرين قاموا ببناء شبكة تحصينات قوية



اطلال ستالينغراد.. بعد المعارك

واستعدوا لمقاومة طويلة. وكانت القيادة الالمانية العليا تظهر حاجتها لتجميد القوات السوفياتيه في ستالينغراد للحؤول دون الانهيار النهائي للجناح الجنوبي للجبهة الشرقية.

دخلت المعركة مرحلتها الاخيرة واختارت «الستافكا» احد رجال المدفعية الجنرال «فوروتوف» وارسلته الى جبهة «الدون» حيث وصلها في التاسع عشر من كانون الاول مع مهمة الاسراع بتصفية الفرق المطوقة. وارسلت الامدادات الى جبهة الدون ووضعت الجيوش الثلاثة الـ٥٧، والـ٦٢، والـ٦٤ التابعة لجبهة ستالينغراد والمفصولة على الجبهة الداخلية بامرته ابتداء من اول كانون الثاني ١٩٤٣ وكان وحده المسؤول عن هذه العمليات.

وفي الرابع من كانون الثاني وافقت «الستافكا» على الخطة التي بموجبها ستجري هذه التصفية واسمتها «الطوق» وتقضي بالقصف المتواصل لكل الوحدات الالمانية في وقت واحد وبتدميرها كليا، وحدة اثر حدة، وتلقت القوات السوفياتية المتجمعة والجيش الخامس والستون المسؤولان عن الهجوم الرئيس امدادات ضخمة.

في الثامن من كانون الثاني عرض القائد السوفياتي على «باولوس» الاستسلام وكان هذا العرض موقعا في كل من يمثل «التسافكا»: الجنرال «فورونوف» ومن قائد جبهة «الدون» الجنرال «روكوسوفسكي» وكان نص العرض يؤكد على كون الالمانيين لم يعد لهم أي خط عملي للخروج من الطوق، ويضمن حياة وسلامة الجميع مع امكانية العودة اما الى المانيا أو أي بلد يختارونه بعد الحرب، هذا اذا توقفت المقاومة نهائيا. وحددت الساعة العاشرة (بتوقيت موسكو) من يوم التاسع من كانون الثاني لاعطاء الجواب النهائي مع التأكيد بأنه في حال الرفض ستعود عمليات التصفية الى عملها على الفور.

رفضت القيادة الالمانية الانذار، مما جعل الالمان يفقدون عدة آلاف آخرين من جنودهم، في نفس الليلة قامت جبهة «الدون» بتوجيه فرقها للهجوم الأخير. فتحت المدفعية نيرانها من مئات المدافع ومدافع الهاون في تمام الثامنة والدقيقة الخامسة من صباح اليوم التالي وفي نفس الوقت دخلت القاذفات والطائرات الهجومية التابعة للجيش الجوي السادس عشر في المعركة وفي تمام الساعة التاسعة شنت جبهة الدون هجومها.

الاختفاء في الكهوف:

كانت مقاومة الالمانيين مقاومة يائسة، بعد ثلاثة ايام فقط من القتال الدامي أصبح القسم الغربي للمقاومة معزولا. مساء الثالث عشر من كانون الثاني وصلت فصائل من الجيشين الـ ٦٥ والـ ٢١ الى الضفة الغربية «تروسوشكا» بينما في بقية المواقع الاخرى كانت الفرق السوفياتية تتابع التقدم فطهرت الضفة الشرقية «لتشيرفلينايا» وفي الرابع عشر من كانون الثاني سقط مطار «بيتومنيك» وهو موقع رئيسي للالمانيين وبعد اجتياز «الروسوشكا» تحررت قرى كثيرة، كذلك محطات «باسارمينو» «كاربوفسكاي وبرودبوي». وبعد اسبوع من المعارك كان أكثر من ٨٠٠ كلم مربع قد استعيدت من اصل الألف والخمسماية التي كانت محتلة في الاساس.

وهكذا أصبحت قوات جبهة الدون على مقربة مباشرة من ستالينغراد مساء السابع عشر من كانون الثاني.

وفي الواحد والعشرين من كانون الثاني سقط آخر مطار بقي للالمانيين «غمراك» في اليوم التالي تواصل الهجوم على طول الجبهة وتحملت المدفعية والمشاة الجزء الأكبر منه. فعلى طول العشرين كيلو مترا التي تقف عليها الجيوش الـ ٢١ – ٥٧ – و٦٤ كان هنالك أربعة الاف ومائة مدفع ومدفع هاون. وبين الثاني والعشرين والخامس والعشرين من الشهر تقدمت القوات السوفياتية من عشرة الى اثني عشر كيلومتر وبلغت وسط ستالينغراد جاعلة المساحة التي يحتلها الالمانيون تتقلص الى اقل من مئة كيلو متر مربع. وبعد ستة عشر يوما من المعركة كان الالمانيون قد خسروا اكثر من مئة الف مقاتل بين قتيل وجريح وأسير.

واخيراً... انتهت معركة ستالينغراد... ■

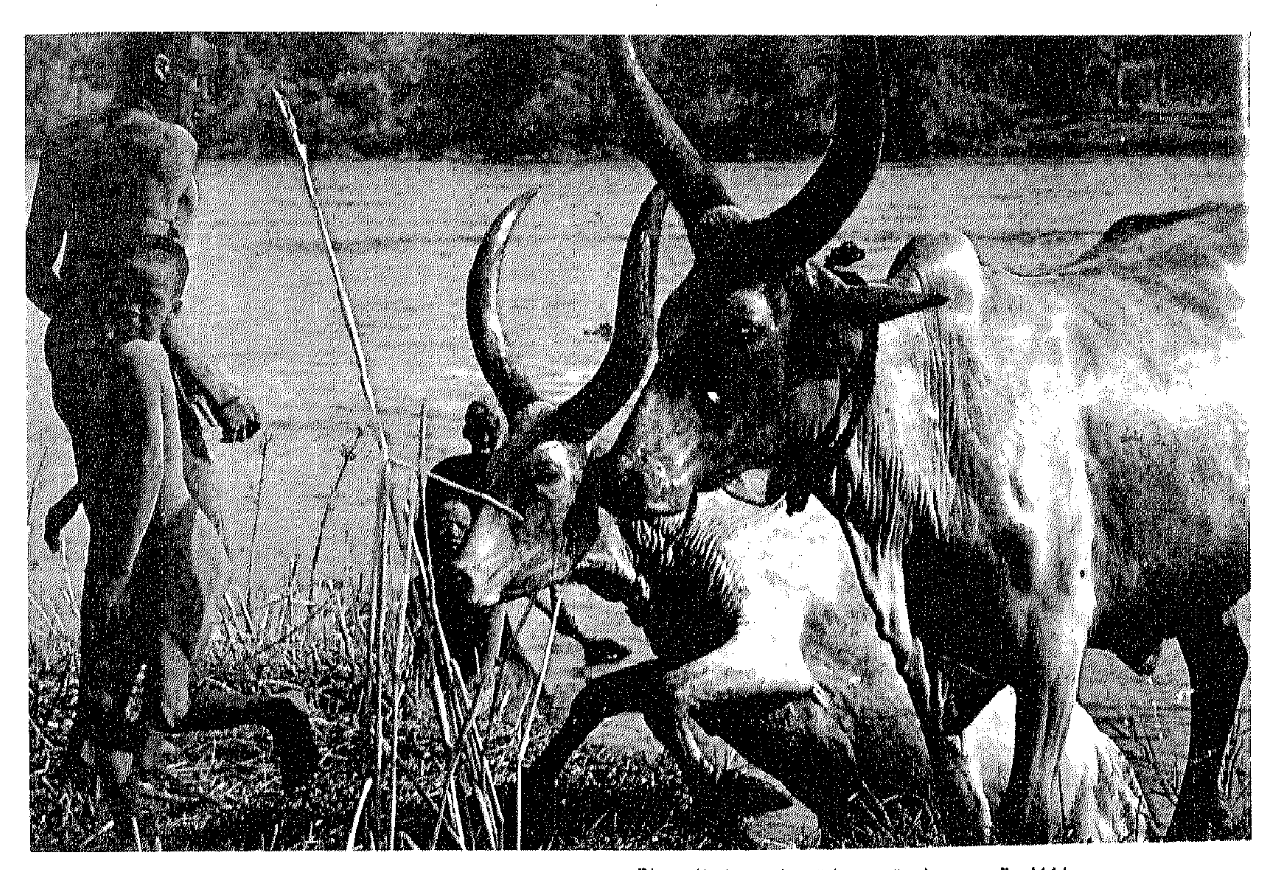
المرجع:

Historia No. 47 — 1968

الدينكاس
عمالقة النيل الأبيض

إعداد قسم التوثيق والأبحاث

فيما يلي صور سريعة من حياة قبيلة بدائية: الدينكاس. هذه القبيلة تقطن مستنقعات النيل الأبيض في جنوب السودان: وقد نقلها الصحفي والمصوِّر «كلارك ستيد» لمجلة أطلس.



الماشية وهي لا تجد ما تحتاجه في السواقي فتتغذى على شواطىء النيل.



بعد أسبوع من الملاحة بلغت أراضي الدينكاس، ساكني مستنقعات النيل الأبيض، في جنوب السودان.

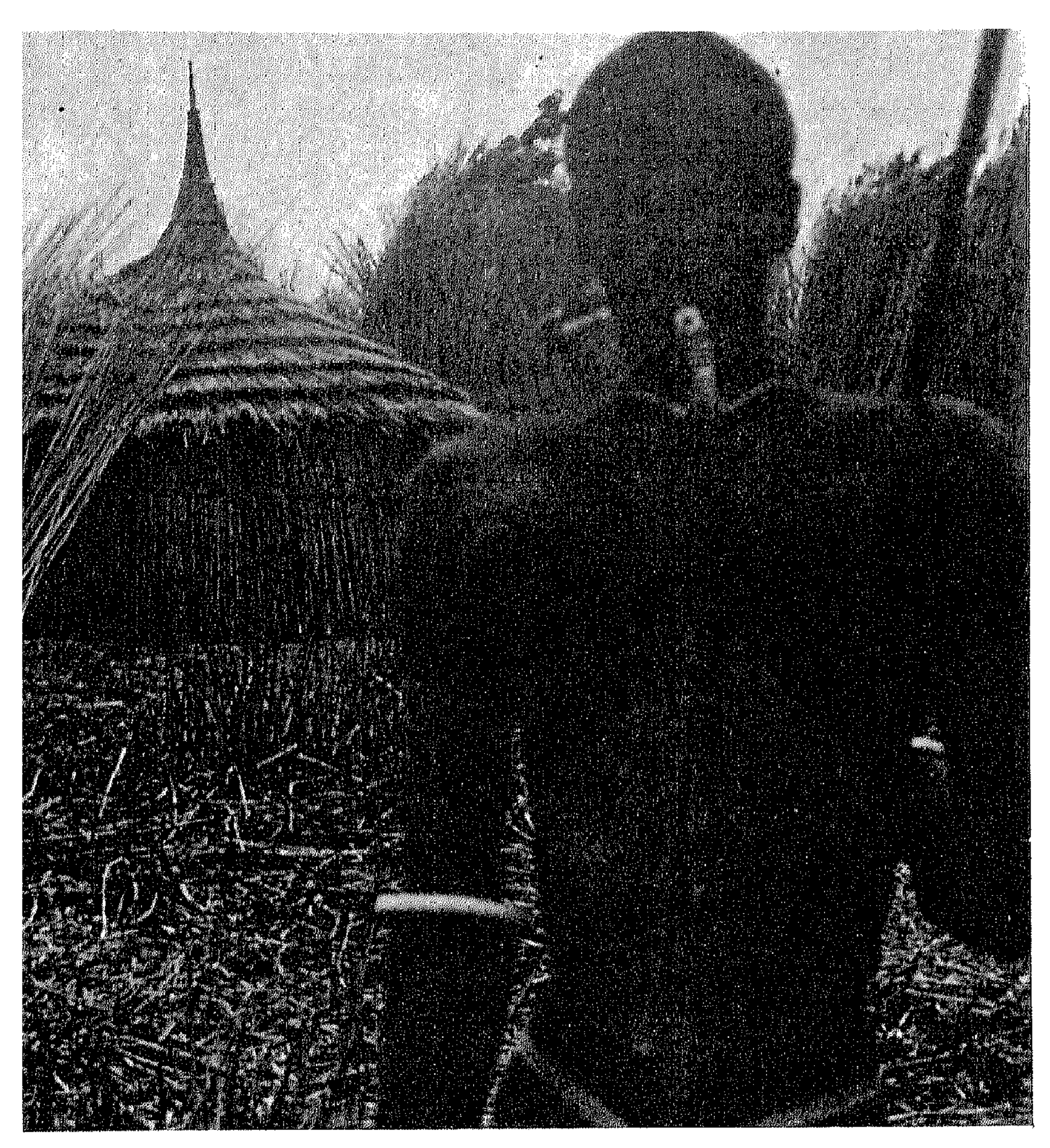
وينبغي هنا أن نميّز بين الـ ٩٠٠,٠٠٠ دينكاس الذين اتصلوا بالثقافة الغربية والذين يشغلون مساحة واسعة في البلاد المنخفضة، وبين أولئك الذين انقطعوا عن العالم بسبب صعوبة الوصول إلى أرضهم النائية. تلك الأرض المعزولة بين مستنقعات النيل ومصباته فلم ينجح المرسلون ولا حتى الديانة الاسلامية في النفاذ إلى هذه الأراضي. لهذا بقيت حياة الدينكاس البدائية كما هي منذ آلاف السنين.

إن رجال هذه المستنقعات عمالقة يبلغ طول الواحد المترين تقريباً، وهم بدو رحل يرعون البقر وينقلون معسكراتهم من مكان إلى آخر تبعاً لتغير فصول السنة. لقد كنت ضيفاً عليهم في معسكر صيفي. فكانت حرارة الصيف محرقة جداً تبلغ ٩٠٪ هيغرومتر. كما كانت الأنهار الداخلية قد جفت في ذلك الوقت مما أجبر الدينكاس في كل عام على مغادرة معسكرهم الشتوي كي يقيموا بالقرب من النيل ويسقوا مواشيهم منه.

إنهم يستيقظون باكراً جداً، ويطلقون العنان لأبقارهم، كما يرسلون حيواناتهم عبر الحقول، وفي الصباح يلتقط الأطفال والنساء براز الحيوانات ويجففونه تحت أشعة الشمس كما يجعلون منه أكواماً صغيرة تساعدهم في المساء على إشعال النار عندما يعود القطيع إلى المعسكر. أما رائحة الدخان الصادرة عنه فإنها تقتل آلاف البعوضات.



إن شعب الدينكاس مسالم لكن عزلته ذات طابع شرس.

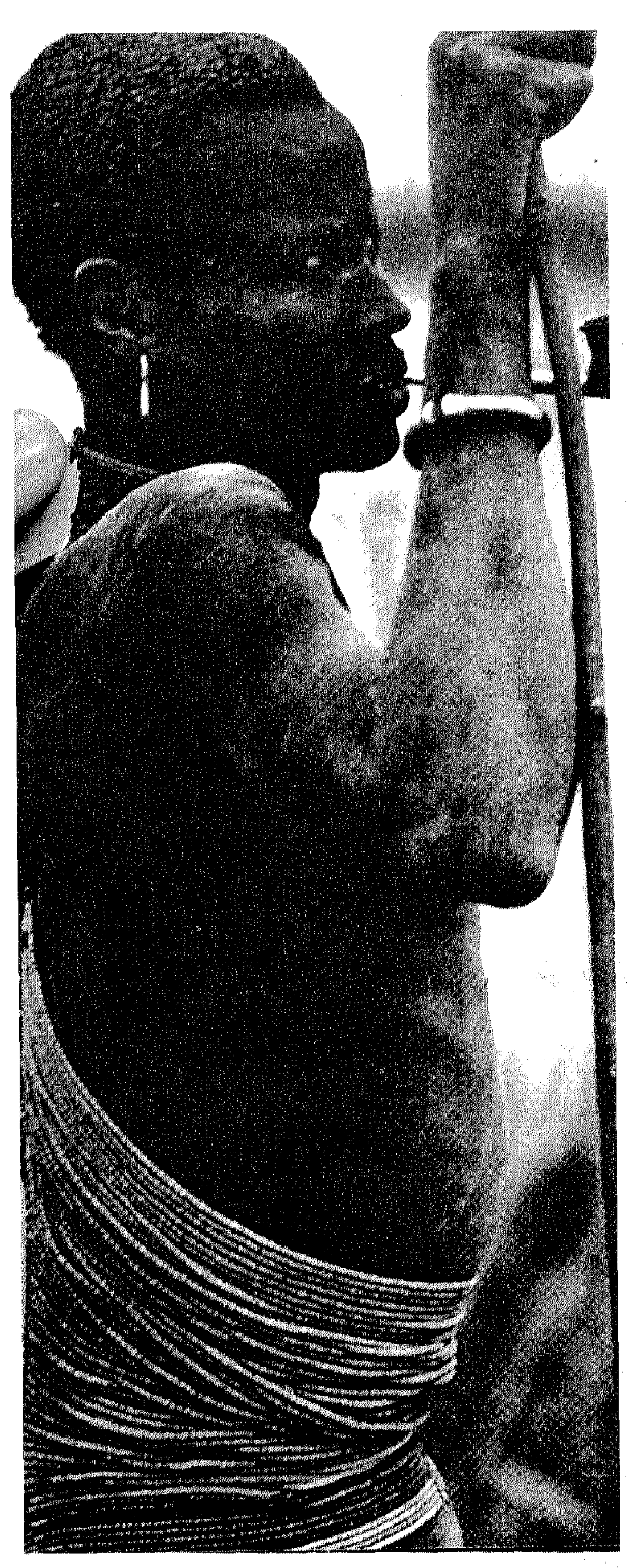


إن أهالي الدينكاس على انسجام تام مع المحيط والمناخ في وسط نباتي تحيط به المستنقعات. وبما أنهم يعايشون وسطاً قاسياً فهم مستعدون دائماً للدفاع عن أنفسهم.

لا يتناول الدينكاس الطعام خلال النهار، لأن الرجال ينشغلون بماشيتهم أما في المساء فتجتمع العائلة حول أطباق وافرة من الذرة البيضاء المزروعة خلال الشتاء، كما يأكلون ما يصطادونه من النيل، ويتغذون بالنباتات المائية المطبوخة والحشائش والخضار، ونادراً ما يأكلون اللحوم. أما وجبة الأطفال فتختلف قليلاً إذ أنهم يشربون الحليب أو اللبن الرائب.

خلال أيام قليلة ألفني أهالي الدينكاس ورافقني رجلان إلى كل أنحاء المنطقة وتحدثا لرئيس القبيلة عن حيويتي وحذاقتي. وهكذا استطعت أن أمتلك لب «بانغ» رئيسهم ذي الحربة.

لم يكن بانغ الوحيد المسؤول عن القبيلة التي تبلغ ١٣٠ شخصاً فإلى جانب بانغ هناك ساحر هو المسؤول عن الاحتفالات الدينية ويقوم بوظيفة الشافي، لكنه لا يملك سلطة القرارات إذ أن لبانغ وحده حق السلطة السياسية، فهو الذي يدعو القبيلة إلى الحرب ويحكم بين الخصومات ويفض النزاعات كما يختار المراعي من أجل القطيع.



محارب طلق الوجه، رابط الجاش،
يرتاح مستنداً على رمحه.

ويكون اختيار الرؤساء عادة من قبل أعضاء القبيلة كلهم، حسب مؤهلاتهم في الذكاء والبراعة، والحياة داخل القبيلة مشتركة لا وجود هناك للملكية الفردية، تملك كل أسرة تقريباً من ثلاثين إلى أربعين رأساً من الماشية وبعض العنزات التي يستفاد من لحمها.

أما ما يملكه الدينكاس من أشياء خاصة فلا يتعدى بعض الأواني والحصر المصنوعة من القصب والأرماح وأوشحة للنساء.

وتتحدد وظيفة كل واحد منهم بشكل واضح. فالنساء مسؤولات عن إشعال النار والطبخ وعن الفلاحة والتقاط براز الحيوانات أما الرجال فيحرسون ماشيتهم ويصطادون الحيوانات والأسماك. والجميع يربون الأطفال ولا يملك أحد الحق في أن يضربهم.

لا يعرف الدينكاس المدرسة ولا الكتابة ولكنهم جميعاً يتعلمون الطهو. ويرافق الصبية في السادسة من عمرهم آباءهم إلى الحقول كي يتعلموا حراسة الحيوانات وحلب الأبقار إذ أن هذه القبيلة تعامل الأطفال بمثابة الراشدين.

إذا كان الدينكاس يربون الماعز من أجل الحصول على لحمها فليس الحال نفسها بالنسبة للأبقار المقدسة والمعتبرة هدية من الآلهة فقوة البقرة وصفاتها وتصرفاتها كل ذلك مقدس بالنسبة لهم فيقولون مثلاً «بقرة قوية» «بقرة سريعة» أو«إنك شبه بقرة» كلها تعابير مديح وليست تعابير ذم.

ترتكز ديانتهم بشكل أساسي على عبادة الاله نهيَليك والاله دينجيت. يرتلون الصلوات مباركين فيها الأبقار لأن حياتهم كلها تتعلق بها: فيرمز الحليب إلى الغذاء وهو ينبوع البروتين والفيتامين للأطفال والبالغين، أما براز البقر فيحرق ليقتل دخانه البعوض المنتشر هناك. كما يدهن بعض الرجال والنساء جسدهم برماده وهكذا يحمون أنفسهم من لسعات الحشرات التي تجتاح دائماً هذه الأراضي.

يؤمن الدينكاس بالحياة بعد الموت ويعتقدون أن أرواحهم تتخلد في أرواح أولادهم. ■

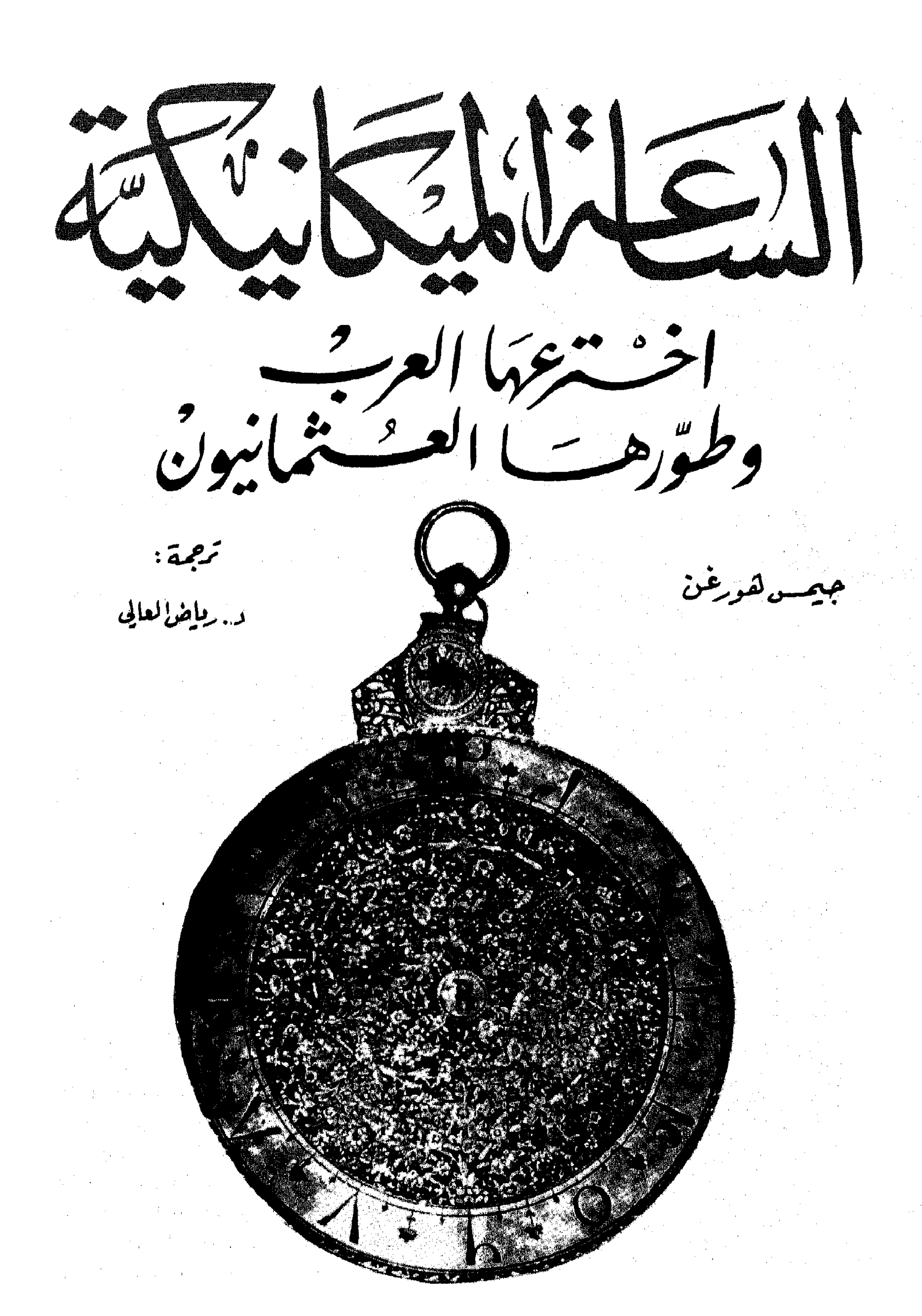
السّاعة الميكانيكية

اخترعها العرب
وطوّرها العثمانيون

جيمس لهورغن

ترجمة :

د. رياض العالي



الباحث في التاريخ جيمس هورغن الذي عمل سابقاً في قسم الأبحاث في شركة النفط الأميركية العربية «آرامكو» في السعودية يسرد في مقال نشرته مجلة «آرامكو» عدد تموز-آب (يوليو-اغسطس) ١٩٧٧، ص١٠-١٣، موجز تاريخ صنع الساعات في بلاد الفتح الاسلامي. وهو يشدد هنا على أهمية الساعات الأثرية الموجودة اليوم في قصر «توبكابي» في اسطنبول والتي بواسطتها استطاع المؤرخون اكتشاف جوانب جديدة من التاريخ المجهول لهذه الحرفة في الشرق.



في العام ١٩٢٣، عندما أصدر النظام الجمهوري التركي الجديد قراراً بتحويل جميع القصور العثمانية إلى متاحف عامة، دهش المسؤولون الجدد لمحتويات الغرف المغلقة داخل هذه القصور والتي كانت مليئة بمجموعات فنية رائعة وتحف وهدايا كان الحكام العثمانيون تلقوها سابقاً من أباطرة الشرق والغرب طلباً لرضى «الباب العالي» في ذلك الوقت. وهم وجدوا داخل قصر «توبكابي» الضخم تراثاً عثمانياً غير معروف. فمن بين مجموعة تضم أكثر من مائة ساعة انكليزية وفرنسية الصنع من القرن التاسع عشر، معظمها في حالة جيدة، عثروا على عدد من الساعات العثمانية صنعاً، تعود إلى القرن السادس عشر وكتب عليها أسماء صانعيها بخط عربي واضح.

ويبدو أن هذه الساعات صنعت في أوج ازدهار الامبراطورية العثمانية، إذ أن روعة إطاراتها الفخمة دلت على مدى الكلفة الكبيرة لصنعها وعلى مدى المهارة الفنية للحرفيين في ذلك الحين.

لكن بما أنه عرف عن العثمانيين انصرافهم إلى الشؤون العسكرية أكثر من اهتمامهم بالأمور «الفنية»، فكيف نفسر وجود مثل هذه الساعات الأثرية الرائعة تصميماً؟ صحيح أن الفن الذي يدرج تحت صفة «العثماني» كان ثمرة جهود العديد من فناني الأقليات المدينية (وخصوصاً الأرمنية منها) خلال الـ ٤٠٠ سنة من الحكم العثماني في تركيا. إذن كيف استطاع العثمانيون اكتساب هذه الحرفة التي تتطلب خبرة طويلة؟ ولماذا ركزوا جهودهم على صنع معدات كانت تعتبر من الكماليات في معظم الدول الكبرى يومها؟.



لا شك أن السبب الرئيسي كان حاجة المسلمين إلى معرفة الوقت الصحيح لأداء فريضة الصلاة اليومية.

ففي أول عهد الاسلام كان المؤمنون يجهلون مبدأ الساعة. لذلك نظموا أوقات صلواتهم اليومية هذه على الأسس التالية:

- الصلاة الأولى، «عندما يستطيع المرء رؤية جاره في الأفق المنظور».
- الصلاة الثانية في الظهيرة «فور بدء الشمس بإكمال نصف دورتها الثانية».
- الصلاة الثالثة في وسط فترة بعد الظهر.
- الصلاة الرابعة في المساء.
- والصلاة الخامسة «بعد مرور وقت قصير من الليل».

وبسبب صعوبة تحديد هذه الأوقات كانت مواعيد الصلاة غير موحدة في الغالب.

على أثر الفتح الاسلامي لفلسطين وسوريا، تعرّف العرب للمرة الأولى على بعض أنواع الساعات ومنها «المِزْوَلَة» (أو الساعة الشمسية) التي كانت معروفة في العالم القديم منذ عهد الأغريق. وبعدما عدّلوا في هذه الساعات لتناسب حاجاتهم، أصبحت أوقات الصلاة شبه موحَّدة عند المسلمين. ومن ثمَّ إدخالها تدريجياً إلى العديد من المساجد.

ظل المسلمون يستخدمون هذه الأنواع البدائية من الساعات حتى القرن السادس عشر الميلادي عندما اخترعت الساعات الميكانيكية.

كان العرب هم أول من وضع نظرية الساعة الميكانيكية وصنع نماذج منها. فهم اخترعوا آلة «الاسطر لاب» التي تقيس ارتفاع الشمس عن سطح الأرض وذلك بهدف تحديد أوقات الصلاة واتجاه مكة المكرمة. ومن أبرز هؤلاء العلماء العالم في الرياضيات الخوارزمي.

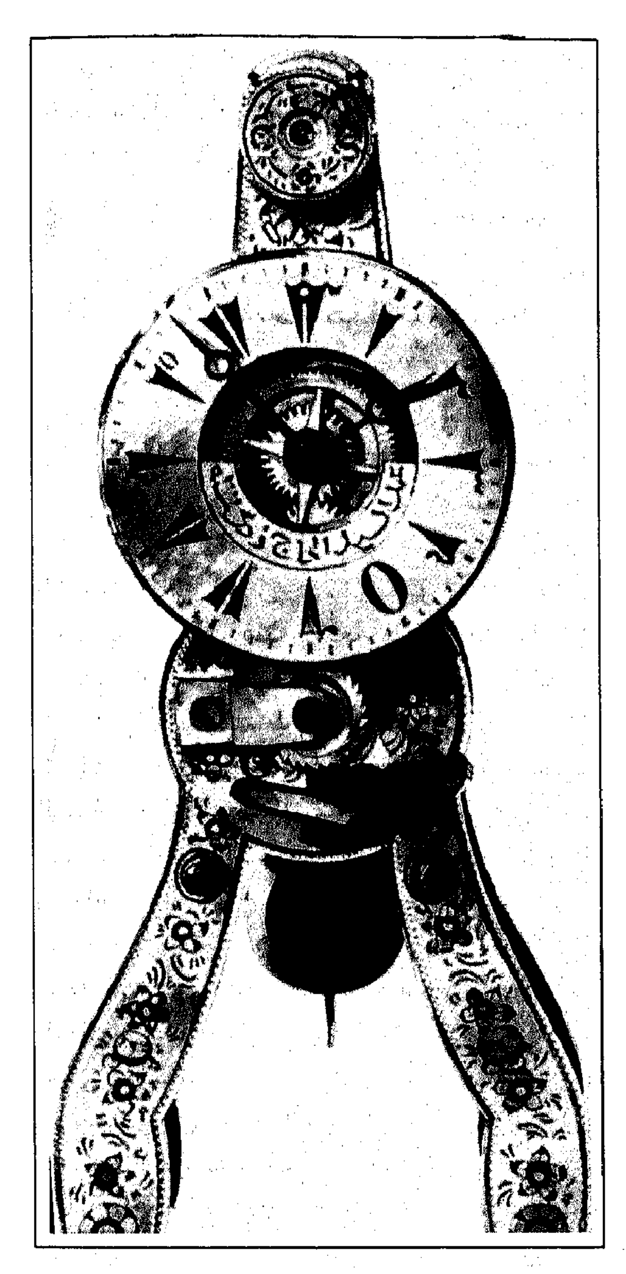
وفي بغداد العباسية كان ابن النديم أول من كتب في موضوع الوقت والساعات وذكر الموسوعي الجاحظ في القرن التاسع ميلادي بفخر: «... استخدم حكامنا وعلماؤنا الاسطرلاب أثناء النهار والساعات المائية خلال الليل لتحديد الأوقات، وهم استخدموا أيضاً بعض الأدوات الأخرى لقياس ظلال الشمس...»».

أما ما قصده الجاحظ بقوله «بعض الأدوات الأخرى» فيبدو أنها نوع من الساعات ذات أسنان (Geared Clock).

ففي عهد هارون الرشيد يشير المؤرخون إلى ما سمّوه «ساعة تدق في أوقات محددة» كان الخليفة العباسي أرسلها إلى شارلمان. وفي رأي العديد من المؤرخين الأوروبيين فإن هذه الساعات التي «تدق في أوقات محددة» ربما كانت الأولى من نوعها في أوروبا.

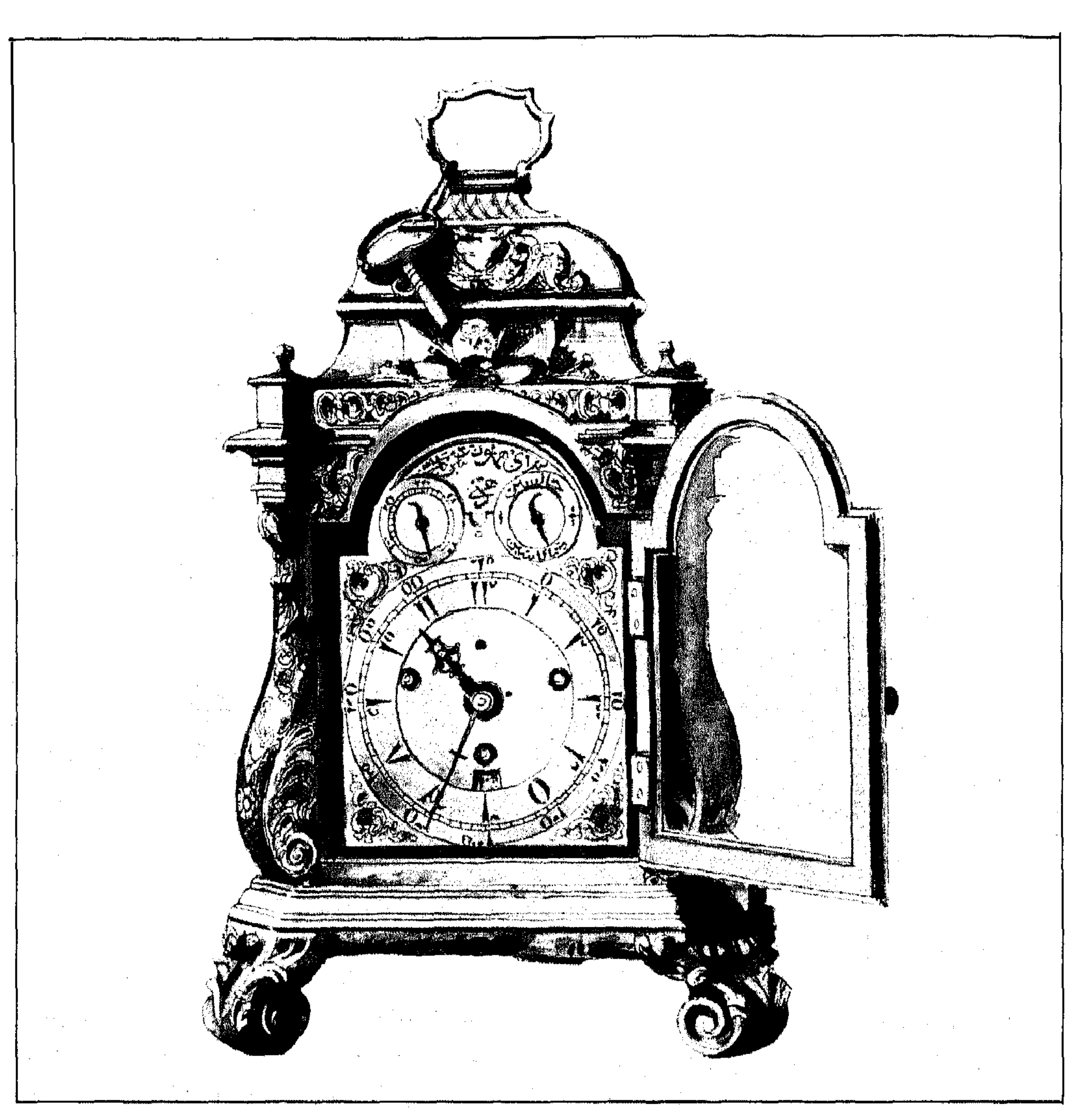
منذ القرن السادس عشر، عندما صنعت أولى الساعات التركية، ظهرت كتب عديدة باللغتين العربية والفارسية حول موضوع الوقت، تحمل عناوين مثل «كيف نحدد وقت الصلاة واتجاه مكة المكرمة» و«كيف نُصلح المزولة»...

من المؤكد أن المرجعين الأساسيين اللذين استند عليهما الحرفيون الأتراك لصنع الساعات هما لعلماء عرب:



- الأول للجزري الذي عرض في «كتاب معرفة الاختراعات الميكانيكية» (ترجمة حرفية عن الانكليزية) أكثر من ٥٠ نموذجاً لمعدات ميكانيكية مع رسومها التوضيحية.
- والثاني لتقي الدين محمد بن معروف في كتابه المطبوع في اسطنبول (لا يذكر الباحث اسم الكتاب) حيث نجد وصفاً هندسياً للاسطرلاب وللمنظار الفلكي ولغيرها من آلات القياس. وكانت هذه المعدات تستعمل لتحديد الوقت «من غير أي حاجة لمراقبة الكواكب»، أي بمعنى آخر عندما يكون الجو ملبداً بالغيوم.

واستناداً على هذين المرجعين أخذ الحرفيون الأتراك، وخصوصاً من عرفوا باسم



«الدراويش» يصنعون الساعات، من أجل تحديد أوقات الصلاة في بادىء الأمر. وهذا ما يفسر سبب ظهور أول ساعة تركية في «التكيّات الدينية» في أنحاء مختلفة من تركيا.

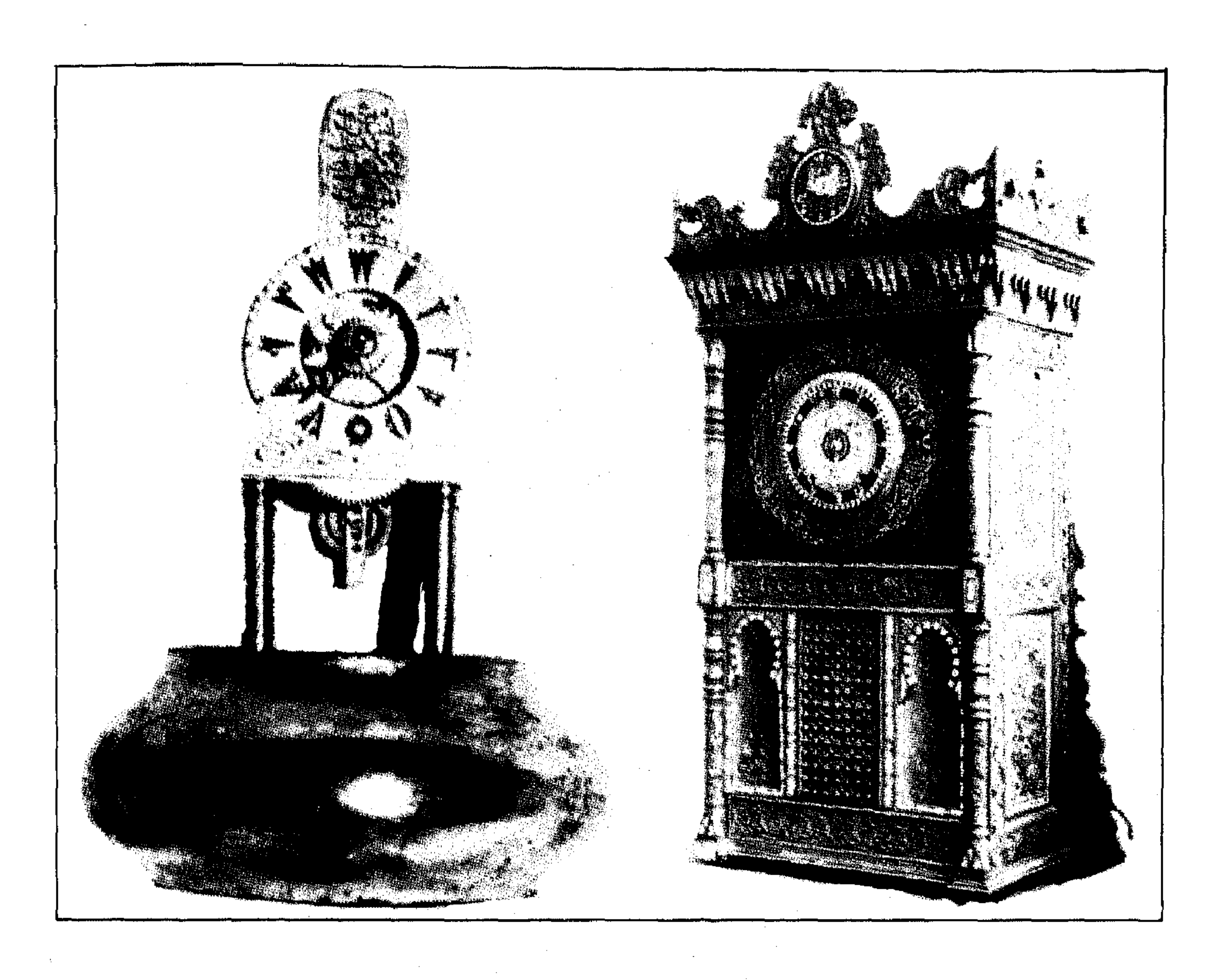
كان هؤلاء «الدراويش» من أكثر المتدينين الأتراك ثقافة، وكان معروفاً عنهم اهتمامهم بالموسيقى والفنون عموماً.

وبما أن صنع الساعات الدقيقة كان يتطلب مهارة كبيرة وعمليات حسابية معقّدة يومها، فإن الدراويش الحرفيين كانوا يمضون سنوات لإنتاج ساعة واحدة. ومن الطريف أن الغلاف الخارجي لهذه الساعات غالباً ما كان على شكل عمامة الدراويش نفسها.

إن أكثر الساعات التركية المثيرة للدهشة هي ساعة الحائط المدورة التي صنعها «شاهين» حوالي العام ١٦٥٠ الميلادي. فهي مرصّعة بالأحجار الكريمة والجواهر، وأرقامها «العربية» (أي الهندية) باللون الأبيض ومحاطة بآيات دينية مرسومة في شكل رائع.

وفي العام ١٧٠٢ صنع «مشهور شايه ديدي» ساعة جيب مرقمة بالدقائق حسب التقويم الغربي والعربي معاً، إضافة إلى أنها تضمنت لوحة للبروج.

وفي العام ١٨٥٣ صنع «محمد سوكورو» ساعة ذات خصائص تسمح لها بتحمّل كل التغييرات الحادة في الطقس.



وحوالي العام ١٨٦٥ صنع «أحمد ديـدي» ساعة مماثلة لكنه أضاف إليها رقّاصاً.

إن هذه الساعات التركية - العثمانية على أنواعها موجودة اليوم في قصر «توبكابي» وهي كلها من صنع الدراويش الحرفيين الذين كانوا قدموها للسلطان عربون ولائهم له.

إضافة إلى هذه الساعات المحلية صنعاً كان السلاطين العثمانيون يتلقون العديد من الهدايا من وفود الدول الأوروبية التي كانت تزور الباب العالي تودداً وتقرباً.

وشيئاً فشيئاً كانت قصور السلاطين تتحول إلى متاحف للأشياء النادرة والثمينة. وكالعادة، استفاد التجار الأوروبيـون من لهفة الحكـام، الكبار منهم والصغار، إلى الساعات المتعـددة أشكالاً، ففتحوا فروعاً لمكاتبهم في اسطنبول.

وازدهرت أعمالهم إلى درجة أنهم بدأوا منذ القرن الثامن عشر تصميم نماذج خاصة بالذوق التركي والاسلامي عموماً: فالأرقام كانت مكتوبة بالأحرف «العربية» وزخرفة إطار الساعة كانت شرقية - إسلامية.

وفي المقابل كان الحرفيون العثمانيون يقلّدون النمـاذج الأوروبية للسـاعات المسـتوردة مـع إضفاء الطابع المحلي عليها.

هكذا تطورت تجارة الساعات وصناعتها في اسطنبول وأصبحت هذه السلعة ضرورية حيوية يومية للمسلمين في أعمالهم وحياتهم الاجتماعية والدينية.

وبعد إعلان الحكم الجمهوري في اسطنبول في العام ١٩٢٣، نفض الغبار عن محتويات قصر «توبكابي» التي لا تقدر بثمن، فتسلطت بذلـك أضواء جديدة على خبايا تاريخية كانت مجهولة لدى العثمانيين.

■

الصور من مجلة الأرامكو (تموز - آب ١٩٧٧).



عندما قفز التاريخ!

فكتور سحاب



إذا استيقظت ذات يوم في الصباح، واتجهت كعادتك إلى الروزنامة لتنزع عنها ورقة الأمس، وعليها تاريخ اليوم الفائت: ٦ نيسان (ابريل) ١٩٧٩ مثلاً، فوجدت أن ورقة اليوم تحمل تاريخ ١٧ نيسان (ابريل) ١٩٧٩، فانك بلا شك ستفرك عينيك، وتمعن النظر لعلك تكتشف الخطأ.

الأمس كان سادس أيام الشهر، واليوم هو اليوم السابع عشر. هل يعقل ذلك؟.

مزيد من التدقيق: ستظن في البداية أنك نزعت عشر أوراق مرة واحدة. لكن في يدك ورقة واحدة. إذن فلابد أن يكون خطأ في صناعة الروزنامة اسقط عشر أوراق منها. لكنك تلاحظ شيئاً غريباً: ورقة الأمس مكتوب عليها: الجمعة ٦ نيسان (ابريل)، بينما ورقة اليوم تقول: السبت ١٧ نيسان (ابريل). فإذا كان السادس من الشهر يوم جمعة، فإن السابع عشر لا يمكن أن يكون يوم سبت.

وتزداد حيرتك، وتتحول إلى روزنامة في الغرفة الأخرى. وتجد الظاهرة ذاتها. وقائع لا معقولة، قد تظن أنها لا تحدث إلَّا في الخيال.

ومع ذلك فإن هذه الواقعة حدثت في التاريخ. ولم تكن خطأ. بل كانت على الأصح، إلغاء لخطأ.

حدثت هذه الواقعة عند بدء استخدام التقويم الجيورجي المستخدم الآن في كل أنحاء العالم. فما هي قصة هذا التقويم؟.

السنة في التقويم الجيورجي تعتمد على حساب الوقت الذي تستغرقه الأرض للعودة إلى المكان ذاته من الفضاء المحيط بالشمس. فالأرض حتى تعود إلى المكان ذاته تماماً، تمضي ٣٦٥,٢٤٢٥ يوم. أي أن السنة الفلكية للأرض ليست ٣٦٥ يوماً بالضبط. والكسور تشكل مع مرور السنوات فارقاً كبيراً، لا بد معه من عملية تصحيح في التقويم، بين آن وآخر. لذلك أضيف على شهر شباط (فبراير) من كل سنة كبيس (أي مرة كل أربع سنوات) يوم واحد، هو اليوم التاسع والعشرون، يزيل جزءاً كبيراً من هذه الكسور. ويبقى جزء يقارب سبعة أيام ونصف اليوم كل ألف سنة. ولتصحيح هذا الفارق، ألغى التقويم الجيورجي اليوم التاسع والعشرين من شباط في السنة الأولى من كل

(١) مجاز في التاريخ، صحافي.

قرن، لثلاثة قرون متوالية، وأبقاه في القرن الرابع الذي يلي.

فمثلاً شهر شباط (فبراير) سنة ٢٠٠٠ سيكون من ٢٩ يوماً، في حين أن الشهر ذاته سنوات ٢١٠٠ و٢٢٠٠ و٢٣٠٠ سيكون من ٢٨ يوماً فقط... وهكذا.

وهذا الالغاء لليوم التاسع والعشرين من شهر شباط، حسب التنظيم المذكور، هو التعديل الرئيسي الذي أحدثه التقويم الجيورجي على تقويم شبيه به إلى حد كبير، كان معتمداً قبله، وهو التقويم الجولياني.

والتقويم الجولياني (نسبة إلى يوليوس قيصر) أقرّه هذا الامبراطور الروماني سنة ٤٦ قبل المسيح. وكان لا يأخذ بعض الفروق المتراكمة بعين الاعتبار. صحيح أنه أضاف اليوم التاسع والعشرين من شباط كل أربعة أعوام. إلّا أن هذه الزيادة كانت تفيض عن الحاجة في الواقع.

ومقدار الفائض في السنة الجوليانية، كما وضع نظامها فلكي مصري استقدمه الامبراطور لهذه المهمة، بلغ إحدى عشرة دقيقة وأربع عشرة ثانية. فالسنة الشمسية في الواقع ثلاثمائة وخمسة وستون يوماً وخمس ساعات وثمان وأربعون دقيقة.

وهذا الفائض الضئيل في الظاهر يصبح يوماً كاملاً من أربع وعشرين ساعة، كلما مرت مائة وتسعة وعشرون عاماً. أي أنه كان يجب حذف أحد أيام التاسع والعشرين من شباط بشكل دوري. وارتُئي أن تحذف ثلاثة أيام كل أربعة قرون، كما أسلفنا.

فلما أمر البابا غريغوار الثالث عشر باعتماد التقويم الجيورجي سنة ١٥٨٢، كان الفارق المتراكم منذ مجمع نيقية الأول (سنة ٣٢٥) وحتى ذلك التاريخ، قد بلغ عشرة أيام.

لذلك تقرر في روما أن يطلق على اليوم الذي يلي الخميس ٤ تشرين الأول (أكتوبر) ١٥٨٢ مباشرة، تاريخ الجمعة ١٥ (وليس ٥) تشرين الأول (أكتوبر) ١٥٨٢.

وهكذا سقطت عشرة أيام من الروزنامة دون أن يتغير ترتيب أيام الأسبوع.

واعتمد هذا التقويم في فرنسا في السنة ذاتها. فجاء العشرون من كانون الأول (ديسمبر) مباشرة بعد التاسع منه.

أما في بريطانيا فاعتمد التقويم الجيورجي بمرسوم برلماني سنة ١٧٥٢. وجاء الرابع عشر من أيلول (سبتمبر) مباشرة بعد الثاني منه. ويلاحظ أن القفزة هنا اختصرت أحد عشر يوماً، لا عشرة فقط. وسبب ذلك أن الكسور المتراكمة كانت قد بلغت أحد عشر يوماً، نظراً لتأخر بريطانيا في اعتماد التقويم الجديد.

ومن طرائف التقويم الجيورجي أيضاً أن السنة كانت تبدأ في الخامس والعشرين من آذار (مارس)، لا في أول كانون الثاني (يناير).

فبعد الحادي والثلاثين من كانون الأول (ديسمبر) ١٦٩٠ مثلاً، جاء اليوم الأول من كانون الثاني (يناير) ١٦٩٠، وليس ١٦٩١. وبعد الرابع والعشرين من شهر آذار (مارس) ١٦٩٠، جاء الخامس والعشرين من شهر آذار (مارس) ١٦٩١.

ولم يتخذ الأول من كانون الثاني (يناير) مطلعاً للسنة الجيورجية، إلّا في سنة ١٧٥٢. وظلت الروزنامات سنوات طويلة تشير إلى التقويمين معاً، فيقال ١٥ كانون الثاني (يناير) ١٦٩٠ - ١٦٩١.

ولم يعتمد التقويم الجيورجي في روسيا، إلّا بعد الثورة الشيوعية سنة ١٩١٨. أما اليونان فاعتمدته سنة ١٩٢٣.

وتحديد أول كانون الثاني (يناير) مطلعاً للسنة جرى بقرار امبراطوري روماني. ويلاحظ أن الأسماء الأوروبية للأشهر الأربعة الأخيرة من السنة (سبتمبر، أوكتوبر، نوفمبر، ديسمبر) تدل على أنها الأشهر السابع والثامن والتاسع والعاشر، خلافاً لترتيبها الآن. وهذا يعود إلى الزمن الذي كان فيه شهر آذار (مارس) هو الشهر الأول في السنة. ■

مراجعة كتاب

رحلة في الظلام بحثاً عن النور

للدكتور عارف العارف — مراجعة د. زكي النقاش

الدكتور عارف العارف
رحلة في الظلام
بحثا عن النور

لئن حق لمعرة النعمان، أن تزهو على غيرها من المدن «بأبي علائها»، وللقاهرة أن تفخر «بطه حسينها» فإن بيروت من حقها أن تتباهى هي أيضاً «بعارف العارف».



فهذا الثلاثي، الذي جمعت بين أفراده آفة فقدان البصر في الطفولة، هو نفسه قد فاز في الوقت ذاته، بنعمة البصيرة النيِّرة، التي فقدها الكثيرون من المبصرين، الذين عنتهم الآية الكريمة، القائلة: «فإنها لا تعمي الأبصار، ولكن تعمي القلوب (اي البصائر) التي في الصدور (٢٢ - ٤٦).

ثم لئن حدَّثنا أوَّلهم عن نفسه، فصوَّرها لنا في «اللزوميات» كما يفيدنا بذلك طه حسين في «ذكرى أبي العلاء»، ولئن أمتعنا ثانيهم بإحدى ثمراته اليانعات: «الأيام» التي وصف لنا فيها نفسه، فأن ثالثهم قد وفَّر علينا الجهد المضني في البحث عن سيرته بما قدَّمه لنا من صورة لنفسه، حين كتب سيرته الذاتية في السفر، الذي نحن بصدد التعريف به، وهو: «رحلة في الظلام، بحثاً عن النور».

فهذا كتاب انطوى على قصة حياة، يطلها «طريف»، الذي هو في الحقيقة والواقع، عارف العارف ذاته.

ومما يجمع بين الثلاثة، الأخذ بالعقلانية، والجدّ في طلب العلم، كوسيلة وغاية، إلاّ أنهم يختلفون في التوسُّل إلى ما يرغبون فيه، فالمعري، مثلاً، اتَّخذ الشعر، والفلسفة والدين مرتكزاً لآرائه وانتقاداته، مع التشدد في التشاؤم، أما ابن القاهرة فكانت وسيلته إلى ما يبتغيه من التحصيل، الأدب من بين مواضيع عديدة أخرى، وكان في حياته وسطاً بين التشاؤم والتفاؤل، غير أن البيروتي، رأيناه يتَّجه نحو العلوم الاجتماعية، كعلم النفس، وعلم الاجتماع فعلم الحقوق. هذا مع ابتعاده عن التشاؤم، فهو أبداً متفائل بالخير، وبطيب مستقبل الانسان في النتيجة.

لقد اعتاد المؤلفون لمثل «هذا الكتاب» وغيره أن يجزئوا مؤلَّفهم إلى: أبواب، وفصول، فضلاً عن الأقسام؛ إلاّ أن صاحب «رحلة في الظلام، بحثاً عن النور» قد شذَّ عن القاعدة، وقدَّم لنا فيه: صوراً، وإن شئت فقل: لوحاتٍ، أو «قطعات» كما جاء للمؤلف نفسه، هي من الفن والأدب في مكانة مرموقة؛ فجاءت كلها لتضع أمامنا، مشاهد عديدة، إن اختلفت فبعاملٍ من ظروف الحياة، ما بين معاناة، وتمتع أو فشلٍ ونجاح، وفق الأحوال التي مرَّ فيها صاحب السيرة، أما هذه «اللوحات»، أو تلك




د. عارف العارف


د. طه حسين

«القطع» فبلغت، الأربعة عشر عداً. وقد سبقتها كلمة بعنوان «إهداء»، جاء فيها قوله: «إلى جميع مُعَلّميّ، وأساتذتي من« شيخ الكتاب في الـز ارة «مسقط رأسه»، وانتهاء «بـدكـاتـرة باريس».

و«إلى جميـع أصدقـائي من العـرب وغـير العرب، الذين كانوا لي أهـلاً، يوم لم يكن لي أهـل، وكانـوا لي العينين المبصـرتين في ليـلي الطويل.

«إقـراراً بفضلهم، وإعـرابـاً عن شكـري ومحبتي» اهـ.

والآن سأقصر كلامي واستشهادي على بعض مـا جاء في الكتـاب حتى لا أقع فيمـا يزهّـد القارىء بالاقبال على قراءة الكتاب بنفسه، ليفوز بما فزت به أنا من متعة فكرية، بالوقوف على أبعاد حياة «طريف» الخُلُقية، والأدبية والعلمية، فأقول: ومما يدلنا على شفافية روح «طريف» وطيب مزاجه، أنَّ الكاتب يبدأ قصـة حياتـه «بقطعة» شاملة يضع بها، أمامنا، صورةً تمثّله خيَر تمثيل، وقد جاءت بعنوان: «ليس الظلم من شيم النفوس». وفي هذا منـه دليل: ١ - «عـلى رفضـه الرأي القـائل: إن الانسـان بطبيعتـه شرير؛ ٢ - «على أن أصحاب الـرأي الخاطىء إنمـا يأخـذون فيه عـادة، بمبـرر لأخطـائهم، اصطلحوا على تسميته: «القضاء والقدر». ليلقوا بذلك عن عاتقهم اللوم كـل اللوم عليـه وعمّا اقترفوه من ذنوب وما اجترحـوه من آثام، ويضعوه على عاتق الله، وهو سبحانه منـه في الحقيقة براء، ودونك ما جاء لصاحب الكتاب في هذا الشأن، حيث يقول: «ولعل أوضح برهان» على ذلك «قـول قائلهم في الشـرق، وهو أمـير المؤمنـين« المستعصم بالله»، يـوم غزا المغـول بلادَه: «تكفيني بغداد»، كلما قيل له: إن العدوّ على الأبواب، والبرهان الثاني قول قـائلهم في الغرب، وهو أبو عبدالله محمد بن علّي الأحمر، عند تسليمه مفاتيح قصره لفرديناند الخامس: «أيها الملك... هكذا قضى الله!».

ولعلـه يحسن الاكتفـاء بمـا علّق صـاحب الكتاب على هاتين الحـادثتين، فنضـع أمامـك ما ختم به «قطعته» قائلاً: «ما أشدَّ افتراء ابن الأحمر، وأمثاله من الحكام وغيرهم من الناس، على الله، باسم القضاء والقدر!».

أمـا في القطعة الثـانية التي جـاءت تحت عنوان «ألقاه في المجهول»، فيحدثنا عن طفولة «طريف» قائلاً: «حين حلَّ الربيع في «الزراة»، هاتيك القرية الوادعة بين الرُّبى، حمـل إليها هداياه: سماء زرقاء صـافية الأديم، وشمسـاً باسمة لطيفة، وطيوراً انطلقت تسبح في الفضاء، وتَتَنَقَّل بين غصون الشجر، وتحط على سطوح المنازل، مزقزقة، فرحةً، وأعشاباً تغطي الأرض، وأزهاراً ونسيماً يدغدغ الوجوه، ويبعثر الشعر، وبضعة أطفالٍ كان بينهم طريف».

وبعد هذه الكلمات التي إن دلّت على شيء فعلى ما تتأثّر به نفس «طريف» من عناصر مكوّنات الطبيعة، ينتقل بنا ليوقفنا على بعض معاناته من صروف الدهر، التي نغّصت عليه حياته، وكان أحدها وفاة الوالد، ثم انتقال الأسرة إلى قرية بعيدة عن «الزارة» حيث عاش بضعة شهور، نغّصت عليه الحياة فيها، وفاة الوالدة، ممّا حفزه على الرجوع إلى مسقط رأسه، ودخول «الكتّاب». وحفظه القرآن الكريم... ثم شاءت الأقدار أن ينتقل، بفضل شيخ جليل إلى طرابلس، ويدخل إحدى مدارسها، فكان له في بعض أساتذتها ومعلّميها «من قدروا ما فيه من نجابة ونباهة». وهنا يحدّثنا عن «معلم الدين واللغة العربية»، فيكشف لنا عما يكون عليه بعض من يتّخذون من التعليم مهنةً، لتشرفهم، فيسيئون إليها، وإلى ما يعتدون عليه من مواضيع يدرسونها؛ ولا يفوته، هنا، أن يذكر بالخير آخرين من الشخصيات، التي كان لها في تكوين التفكير عنده، الأثر البين، حتى كان منهم من وجّهه إلى بيروت ودخوله «الكلية الاسلامية»، التي كانت بإدارة المربّي الفاضل الدكتور بشير القصّار، والتي عقد فيها مع بعض الرفاق صداقاتٍ، كان له فيهم «إخوان صفاء»، وكم في حديثه عن مجالس عقدوها معاً، تخلّلتها مساجلات أدبية، ومطارحات شعرية إن تكشّفت عن شيء، فعمّا كان بين أولئك الرفاق من محبة وتوادد تربط بينها وشيجة الأدب شعراً ونثراً.

وهنا يطيب لنا أن نترك لمطالع الكتاب، أن يأخذ نفسه بمتعة السرد، وبراعة الوصف لما اختبره «طريف» في هذه المرحلة من مدة التحصيل، بفضل بعض الأخيار من الفرنسيين أعمدة الانتداب الفرنسي على البلاد، بينهم المسيوبونور مستشار المعارف في لبنان وسورية عهد ذاك، والأب بوتارد رئيس معهد الحقوق في جامعة القديس يوسف، التي انتقل منها إلى جامعة السوربون في باريس، حيث كانت له بعض مطارح الحب، وإن لم يكلّله النجاح.

وأخيراً لا يفوت المؤلف أن يحدّثنا عمّا عاناه من خبث بعض الشخصيات الرسمية وغير الرسمية، بعد عودته من باريس، متشوّقاً إلى بذل ما تقدّره عليه روحه الطيّبة في سبيل خدمة الوطن بتقديم بعض ما اكتسبه من علم ومعرفة وثقافة، تؤهله للقيام ببعض ما تتوق إليه نفسه. غير أن ما لاقاه من بعضهم جعله يتردد بين بعض العواصم العربية حيث علّم في بعض المعاهد، ريثما فتحت أمامه الظروف المؤاتية «فلبس الروب» وراح يبدع فيما أوكل إليه من قضايا حقوقية، نالت إعجاب بعض أصحاب النفوس الطيّبة، وخفّفت عنه بعض المنغّصات، التي سبقت من قلة التوفيق والنجاح.

وأخيراً يطيب لي أن أزفّ هذا الكتاب إلى المثقفين من إخواني العرب عامةً واللبنانيين من بينهم خاصة داعياً إياهم إلى أن يقبلوا على قراءة هذا الكتاب، ليقفوا منه بأنفسهم على ما يستطيعه بعضنا مهما قست عليه الأيام وباعدت بينه وبين التوفيق والنجاح - بعض ضعاف النفوس، ومرضى الضمائر - من التغلّب بفضل الجهد والجهاد والعمل الدؤوب في سبيل التحصيل، ووضع نتائجه في خدمة المجموع. ■

ورحم الله المتنبي حيث يقول:

«على قدر أهل العزم تأتي العزائم
وتأتي على قدر الكرام المكارم»

وشكراً للدكتور عارف العارف على ما قدّم من نتاج له، فيه المتعة والعبرة...

الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية

د. مسعود ضاهر

الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية ١٦٩٧-١٨٦١

د. مسعود ضاهر

التاريخ الاجتماعي للوطن العربي

كتبت هذه الدراسة في ظروف الحرب الأهلية التي دارت في لبنان. ولما كنا قد بدأنا بجمع موادها قبل الحرب، فإننا عجزنا في أثنائها عن الحصول على الكثير من الوثائق الهامة. لذا اعتمدنا بشكل أساسي على وثائق الأرشيف الفرنسي التي ينشر أجزاء منها الدكتور عادل اسماعيل، وأشرنا إليها في الحواشي بقولنا «الوثائق».

ونظراً لكثرتها كان لابدَّ من الاشارة إلى بعضها إشارات عابرة والاستناد إلى اخرى أثناء الدراسة. فهذه الوثائق تبلغ آلاف الصفحات ونعتبرها مدخلاً ضرورياً لفهم تطوّر المشرق العربي ككلّ، والمسألة الطائفية اللبنانية بشكل خاص، وهي تضم تحاليل بالغة الأهمية لموفدين فرنسيين رسموا آفاق المشروع السياسي الفرنسي بشكل يغاير أحياناً ما كانت تطرحه القنصليات الفرنسية من شعارات لاجتذاب الجماهير المارونية وتضليلها.

ونعتبر هذه الوثائق ضرورة علمية لفهم تطوّر هذه المرحلة. ويصعب الحكم على هذه الدراسة لمن يكتفي بموروثات تاريخية لقّنتنا إياها مؤلفات الآباء اليسوعيين، فهذه بحاجة لموقف نقدي يوضح الدسّ والتشويه اللذين لحقا بالكتابة التاريخية عن لبنان وقد تناولناها بالدراسة في مقالتنا «**الطائفية والمنهج في دراسة تاريخ لبنان الحديث والمعاصر**». أما وثائق الأرشيف الانكليزي والأرشيف الروسي فقد استندنا إلى بعضها عبر دراسات علمية جادة. وعززنا هذا الجانب ببعض المصادر الأصلية المنشورة حول هذه الحقبة.

ونعتبر هذه الدراسة مدخلاً علمياً لفهم المسألة الطائفية اللبنانية. وهي بحاجة لمزيد من التوسيع والتعليل لأن كل فصل يصلح لدراسة مستقلة ومطوّلة.

وقد اكتفينا بكتابة فصول متنوعة غنية تعطي من خلال طابعها الشمولي العام صورة كافية للتعريف بهذه المسألة التي دارت حولها مئات الأبحاث، ومابرحت بحاجة مع ذلك إلى عدة دراسات علمية، نظراً لتشابكها وتأزمها. ونأمل أن يكون هذا البحث حافزاً لمزيد من الأبحاث العلمية بعد أن بينّا أن المسألة الطائفية اللبنانية قابلة للتعليل واستنباط النتائج ويمكن إخضاعها لمنهجية البحث التاريخي الاجتماعي، وهي المنهجية التي أثبتت صحتها في تحليل تطوّر كل المجتمعات على أساس تبني وجهة نظر القوى المنتجة في هذه المجتمعات. وهذه الدراسة تتبنى تماماً وجهة نظر هذه القوى المنتجة، وهي جماهير جميع الطوائف، أي الجماهير الطائفية – الطبقية المسحوقة التي مابرحت تناضل للتخلص من طائفيتها وطبقيتها ولإزالة المجتمع الطائفي – الطبقي، وبناء المجتمع الديمقراطي

العلماني الذي يفتح الطريق أمام إزالة استغلال الانسان للإنسان.

كما اننا نعتبر أن للدراسات الدائرة حول المسألة الطائفية فائدة نضالية مباشرة، نظراً لما تثيره من نقاش علمي يقدم إضافات منهجية وغنى وثائقياً ولأنها ليست مجرد اسقاطات لأفكار موروثة؛ فدراستنا للمسألة الطائفية اللبنانية لا تعني نظرة ضيقة إلى المجتمع اللبناني المعزول عن محيطه المشرقي العربي والانساني بشكل عام، بل ضرورة علمية لرصد هذه الظاهرة ورسم تطورها، وآفاق تفجرها، وبُناها التكوينية التي جعلت منها قاعدة لا تهدد اللبنانيين فحسب بل تهدد مجتمعات عربية اخرى.

والمسألة الطائفية اللبنانية سمة أساسية من سمات تجزئة المشرق العربي على قاعدة تفكيك بُنى السلطنة العثمانية واقتسام ولاياتها. وقد حللناها على هذا الأساس، وبينّا ذلك التفكيك على مستويات مختلفة. وشددنا خاصة على تلك التي لها علاقة مباشرة بالتفجُّر الطائفي على الساحة اللبنانية. ونعتبر هذا التشديد شرطاً علمياً ينبع من السير بالعملية التاريخية من العامّ إلى الخاصّ ثم العودة إلى العامّ للإستنتاج. فالعامّ هنا هو الضغط الاستعماري لتفكيك بُنى السلطنة العثمانية عبر الامتيازات الأجنبية والتجارة والارساليات وتفكيك نظام الملل والغزوات الأوروبية المباشرة والهزائم العسكرية التي اصيبت بها عساكر السلطنة ومحاولات تغريبها عبر الاصلاحات السياسية، وعصيان الولاة وتمردهم، ومحاولات بعضهم احتلال السلطنة للحلول محلها...

أما الخاصّ أو المحلي فيجد رموزه التاريخية في تنظيم الكنيسة المارونية، وازدياد أملاك الأوقاف ودور الرهبانيات، وتأثير المدبرين الموارنة، وتنصير بعض القادة الحاكمين، ودور الارساليات الأجنبية وجامعاتها ومدارسها وملحقاتها ولغاتها وثقافاتها، وأثر النزاع المقاطعجي في إضعاف القوى المسيطرة الاسلامية وبروز قوى مارونية مكانها، والتزايد السكاني المتفجر، والأوضاع الاجتماعية ذات الانغلاق الطائفي الواضح، وكثرة الضرائب وما رافقها من زيادة في حدة التأزم...

وإذا نظر إلى هذا الخاصّ المتفجر، مقروناً إلى العامّ القابل للتفكيك والخضوع للسيطرة في إطار المشاريع الاستعمارية لبناء أوطان طائفية تكون ركيزة للاستعمار في المنطقة، اتضحت الأسباب العميقة للتفجر الصدامي ذي الوجه الطائفي في القرن التاسع عشر، وما ترتب عليه من بدايات عملية لإقامة أوطان طائفية منذ أواسط ذلك القرن حتى أواسط القرن العشرين.

وعلى قاعدة هذه الخلفية النظرية رسمنا كثيراً من سمات تلك المرحلة التاريخية التي امتدت قرناً ونصف القرن من الزمن أي من قيام الامارة الشهابية حتى المتصرفية عام ١٨٦١.

لكن هذه الدراسة ليست تأريخاً لهذه المرحلة. فقد تتبعنا خلالها تطور المسألة الطائفية من مرحلة نظام الملل العثماني إلى مرحلة الطائفية المتفجرة إثر تفكيك هذا النظام بفعل عوامل داخلية وخارجية متشابكة.

ونعتبر دراستنا للمسألة الطائفية نموذجاً لدراسة بعض معيقات الوحدة العربية وانعكاسات السياسة الاستعمارية على كثير من مجتمعاتنا العربية بشكل عام، والمشرقية منها بشكل خاص. ولا بد لأية دراسة وحدوية علمية من محاولة التصدي لهذه المعيقات ولا سيما الاقليمية والطائفية والعرقية وغيرها، للإنطلاق نحو العمل العربي الوحدوي الجماهيري على ركائز ديموقراطية تعيد للجماهير العربية دورها الطليعي في صنع تاريخها الانساني وإسهامها في إغناء النضال البشري كله.

■

● فتحت العالم كله بالسيف ولكن لم يبق لي منه إلا الحفرة الصغيرة التي دفنت فيها!

الاسكندر الكبير



ميشال اسطفان

هواية جمع الطوابع

ألى اصدقائنا هواة جمع الطوابع.

وردتنا رسائل كثيرة يسأل فيها اصحابها امدادهم بالارشادات التي تساعدهم على السير في هواية جمع الطوابع البريدية بالطريقة المثلى التي تُجنِّبهم الفوضى التي تتخبَّط فيها مجموعاتهم، والخسارة التي تصيبهم من سوء تدبّر الطوابع التي لديهم، والخيبة التي كثيراً ما تنتابهم لأنهم اقبلوا على هذه الهواية الآتية من الغرب، فباشروها على جهل بها، ومشوا اشواطاً بعيدة على غير هدى. وكثيراً ما يترك بعضهم هذه الهواية يأساً من بلوغ الغاية التي يرجوها منها.

لذلك، وبعد ان فرغنا من البحوث التاريخية المتعلقة، بالطوابع الاساسية في البلدان العربية، وجدنا من واجبنا ان نستجيب إلى رغبة اصدقائنا الهواة في العالم العربي، ابتداءً من هذا العدد.

ولنبدأ اليوم بالسؤال التالي:

- ما هي هواية جمع الطوابع؟
- كيف نشأت؛ ولماذا يجمع الناس الطوابع؟
- ما هي اصولها حتى يحصل الهاوي، إلى جانب المتعة، على اعلى نسبة من الاستفادة من هذه الهواية الرفيعة؟



هواية الشيء هي اكتشاف نواح جمالية في موضوع ما، فيُجذب المرءُ إليه ويميل بصورة عفوية إلى اقتنائه، دون ان يفكر موضوعياً بالغاية التي يرمي إليها من ذلك، لكنه يجد بعد حين، انه يحقق له شيئاً يبتغيه.

أما كيف بدأت هواية جمع الطوابع، فأنه جاء في بعض المنشورات القديمة، انه في نحو سنة ١٨٦٠، أي بعد عشرين عاماً من ظهور أول طابع في العالم، وهو الذي حمل صورة الملكة فكتوريا ملكة بريطانيا، قامت سيدة من عائلة انكليزية ثرية باحضار ما لديها من غلافات عليها طوابع بريدية، واعطتها لابنها المريض عصبياً، ليلهو بنزع الطوابع عنها والتسلّي بصفّها وترتيبها.

استهوت اللعبة الصبيّ المريض واصبح مولعاً بتلك الطوابع. وانتقلت العدوى إلى من زاره من اترابه، فانتشرت هذه الهواية في محيط

محدود اولاً في بريطانيا، ثم توسعت تدريجياً حتى شملت العالم.

لم تقتصر الهواية على الاولاد فحسب، بل تعدتها إلى الكبار أيضاً، لكن هؤلاء كانوا في البدء يخشون الجهر، لئلا يتهموا بالخفة والسخافة. فكانوا يجتمعون خفية كل مرة في بيت واحد منهم، ليتبادلوا الطوابع والآراء والاحاديث عنها، إلى أن اصبحت فيما بعد، هواية الملوك والامراء، والاغنياء والفقراء، وعادت لا تقف عند حدّ المتعة البسيطة فحسب، بل اصبحت بالاضافة إلى ذلك رياضة ذهنية وعقلية ونفسية وتربوية وتثقيفية، تحدو بصاحبها إلى الهدوء والتركيز الفكري وإلى النظافة والترتيب الذوقي وإلى الاستفادة المادية في آخر المطاف، لانها ولو بدأت بتجميع ضئيل أو محدود، بحسب امكانية الشخص، فانها ادّخار بسيط قد يصبح استثماراً حقيقياً يكبر ويزيد مع الزمن، وهي الطريقة الوحيدة التي تُمكّن الفقير وذا الدخل المتوسط من ان يحرز مدّخرات تصبح مع الوقت ذات قيمة عالية، وخصوصاً اذا تمكن من المواظبة ودرس شؤون الطوابع في البلاد التي يجمع طوابعها، وقد يسعده الحظ يوماً، فيقع على قطع ثمينة أو قد تُستهلك الطوابع التي لديه منها، فترتفع قيمتها. وبالمثابرة المتواصلة والحرص على اكمال مجاميع البلد الذي يجمع طوابعه يحقق الفرص الاكيدة للربح.

ولنبحث الآن اصول هذه الهواية التي يكتسبها الانسان بالاطلاع المرحلي.

– عليه ان يجمع كل ما تقع يده عليه، وان يشتري من البريد كل مجموعة تصدر بلا استثناء، عادية كانت أم جوية أم تذكارية ومهما غلت قيمتها، فالمجموعة الثمينة اصلاً هي التي يستفيد منها الهاوي في المستقبل، لأن عدد الصادر منها اقل من غيرها، ولأنه ليس بمقدور كل الهواة شراؤها، وهذه المرحلة يجب ان تستمر بكل دقة، مع الانتباه عند الشراء لحالة كل طابع من حيث تخريمه ووضعه العام، وهذه المرحلة نسميها مرحلة التجميع.

– أما المرحلة الثانية فهي ان تحافظ على ما تشتريه بعيداً عن العطب والرطوبة، وعدم وضع المجلدات التي تحوي طوابعك أفقياً، فتلتصق الطوابع من الثقل، بل يجب وقف المجلد عمودياً مثل الكتب في المكتبات.

خلال هذه «البرهة» التي تستمر سنوات، يقوم بين المرء وطوابعه نوع من الالفة التي تجعله مع مرّ الايام، يفضل بعضها على بعض، ويرتاح إلى بعضها أكثر من بعضها الآخر، وبما انها تكون قد اخذت تتكاثر عنده وتقتضيه زيادة من العناية والوقت والنفقات أيضاً، فيفكر عندئذ بان يتخصص بجمع نوع الطوابع التي يأنس بها أكثر من غيرها، فيصرف عناية إليها، ويوفر توظيفاته المالية فيها. اننا نسمي هذه المرحلة: مرحلة الاختبار، أي المرحلة التي سيختار فيها نوع الطوابع التي سيقتصر عليها في مجموعته، والغاية التي سيتوخّاها منها.

ليست عملية الاختيار بالامر الهيّن، ونحن سنساعده على ذلك، فننصح له بادىء ذي بدء بان يهتم في الدرجة الأولى بطوابع بلاده، وان يبذل لها ما يستطيع لكي يستكملها، وهذا يتطلب كثيراً من الجهد والبحث. واذا كانت امكانياته وفيرة، فينتقي طوابع احدى البلاد العربية الاخرى، التي تستهويه، من حيث الرسم الفني والالوان والموضوعات، إن كانت علمية أو فنية الخ. ولا ينسى أنّ عليه ان يخصص مبلغاً من المال شهرياً وباستمرار، سعياً وراء استكمال مجموعات البلد الذي يجمع طوابعه، وخصوصاً مجموعات بلاده.

واذا كان يميل في هوايته إلى الناحية الجمالية، فبوسعه ان يجمع إلى جانب طوابع بلاده، مواضيع شتى من مختلف البلدان، كالشخصيات السياسية أو الملوك أو العلماء أو اللوحات العالمية أو الطيور أو الرياضة أو الازهار أو علوم الفضاء، أو القطارات والبواخر والطائرات. فهناك عشرات الموضوعات موجودة على الطوابع، فيجمع الموضوع الذي يهواه، واننا ننصح بالاقبال على طوابع البلدان العربية، وكلما ازداد عدد الهواة المتخصصين بالطوابع العربية، وهي المحدودة الكمية بالنسبة إلى الملايين وعشرات الملايين من الطوابع الاجنبية، يزداد عليها الطلب وترتفع قيمتها ككل سلعة او سهمٍ تجاري أو حكومي، فعلينا ان

نشجـع انتاج بـلادنا أولاً لتكـون الاستفـادة بالنتيجة لنا.

– هنا تأتي المرحلة الثالثة والاخيرة، وهي مـرحلة الهـواية الـرصينة، فتتنـاول الطوابـع البريدية من عادية وبريد جوي ومستحق، وهي المجموعات «الستندار» أو المألوفة، اذ انها تكون موسّعة فتتناول البطاقات والطوابع غير المخرَّمة والاخطاء التي تمرّ في غفلة من المراقبة فتصير قيمتها ذات شأن، وهناك الاختام على الطوابع والغـلافات القـديمة، وهـذا يقتضي في جمعـه الاعتماد على القواميس العالمية للطوابـع، لانه ويا للأسف لم تصدر قواميس عربية بعد، سوى قاموس زهيري عن الطوابع المصرية فقط، في حيِّز التفاصيل التي ذكرنـاها في حـديثنا عن تاريخ الطوابع.

وهكذا عندما يتدرَّج الهاوي في جميع مراحل الهـواية، وتتحسن امكـانياتـه مع المـمارسـة بالشراء الصحيح والمبادلة مع الآخرين، يصير ركيزة قويـة وعضواً عـاملاً مفيـداً ومستفيداً للمجتمع الطوابعي، وكلما كثرت تلـك الركـائز ازدهرت الطوابع العربية واصبحت مرفقاً من مرافق البلاد، وقوة اقتصادية يُعتمد عليها مثلها مثل طوابع البلاد الغربية المشهورة والمطلوبـة عالمياً.

وقد تستغرب ايها الصديق الهاوي، عندما تعلم ان التقديرات لعدد الهواة الاجانب تشير إلى انهم يعـدّون بالملايين، وان كلّاً منهم يجمع طوابع بلاده اولاً، وهكذا تزدهر طوابع البلـد ويصير لها قيمة. وننقل هنا ما اوردتـه هيئة البريد المصرية في احدى نشراتها الخاصة، من انه في يونيو سنة ١٩٦٣ أنشىء مكتب خدمة هواة جمع الطوابع في ادارة البريد البريطانية، وخلال العشرة اشهر من تاريخ انشائه، تقدم إليه عشرة آلاف طلب لشراء الطوابع الانكليزية الصـادرة آنذاك، بمـا قيمته ٨٠ ألف جنيـه استرليني.

وان الاعضاء المشتركين في الاتحاد الاهلي لهواة جمع الطوابع في المجر، يزيد على ١٠٠ ألف مشتـرك، وللاتحـاد مجلـة تتكلم بـاسم الهواة ، تُصـدر ٧٥ ألف نسخة من الطبعـة الواحدة.

ويُقدَّر عدد هواة جمع الطوابع في الولايات المتحدة بستة عشر مليوناً سنة ١٩٧٨، حسبما جاء في كتاب «طوابع وقصص» الذي نشرتـه شركة سكـوت للنشر لحساب مؤسسـة بريـد الولايات المتحدة الاميركيـة. ويذكـر نكتة عن امرأة شابة انها كتبت اعلاناً في «لندن تايمز» سنة ١٩٤١، تقول فيـه انها مستعـدة لشراء طوابع مستعملة تكفي لتغطية حائط غرفة نومها!

ويذكر الكتاب ايضاً، ان نوادي هواية جمع الطوابع تكاد لا تُعد في الولايات المتحدة، وهي منظمـة بحيث تُعلِّم الهـوايـة رسمياً لطـلاب وطالبات المدارس كمادة رياضية، ويقول انه في نيسان ١٩٧٨، كان عدد الاعضاء في الـ ٢٤ ألف نادٍ مختلف في مدارس جنوب شرقي البلاد فقط، ٦٠٠ ألف طالبة وطالب، ويصل إلى ٧٥٠ ألف عضو في اواخر ١٩٧٨.

ويشير الكتاب إلى ان سرور الهاوي يتضاعف عندما يشـارك شخصاً آخـر في هذه الهـواية ويتبادل واياه الطوابع والآراء بشأنها، ويتعلَّم منه كما يُفضي إليه بما يعلم.

لذلك لا بد ان يشجع كل هاوٍ هذه التسلية المفيدة، التي تقي الشباب شر الأنحراف وتُنمِّي فيهم ملكة البحث والمثابرة، ويسعى إلى الدعاية لها ونشر معلوماته عنهـا وعن فوائـدها عـلى الصغـار والكبار، وأن يشجـع تـأسيس نـادٍ أو جمعيـة للهواة في المـدارس أو المجتمعـات الخاصة، فمثل هذه النوادي تخلق الصداقات بين الاشخاص مهما اختلفت معتقداتهم، وبين الشعـوب العـربيـة عن طـريق المـراسـلات والمؤتمرات الدورية الخاصة بالهواية، التي قد تنشأ في كـل بلـد، مثـل اشتـراك النـوادي الرياضية لكرة القدم وغيرها. أما للكبار، فانها أكبر تسلية تساعدهم على التمتُّع بوقت الفراغ وطـول ليالي الشتـاء، ويمكن ان نسمي هذه الهواية حقاً، هواية السعادة الفكرية والنفسية من المهد إلى اللحد.

واختم بحثي بحثِّ القراء والهواة عـلى الَّا يتـأخروا عن ابـداء رأيهم وارسـال سؤالاتهم واقتراحاتهم وايضاً انتقاداتهم الينا، لنباشر معاً تـأسيس علاقـة واتصال مستمـر عن طـريق

المجلة، فنمشي معاً الطريق بطوله في بناء المبادلة الفكرية، ونحن مستعدون للاستمرار في نشر المواد لهذه الهواية، كما نؤكد استعدادنا، بمساعدة القراء وتأكيدهم لتأليف قاموس عن جميع الطوابع العربية، يُنشر تدريجياً شهراً بعد شهر، ليكون كاملاً بعد فترة معقولة، ويكون منطلقاً لمنارة تُضيء للهواة العرب طريقهم التي طالما تخبَّطوا وضلُّوا فيها متعثرين في التجميع البدائي، وكانوا عرضةً كذلك لجشع الباعة غير المسؤولين هنا وفي الخارج، والذي يؤول بمعظمهم إلى نبذ الهواية نهائياً وخسارة ما انفقوا عليها من مال.

ومثل هذا القاموس، يكون الأول في اللغة العربية الشامل لجميع طوابع البلدان العربية، ولا يكلفهم المبالغ الباهظة التي يدفعونها ثمناً للقواميس الاجنبية. ■



اخبار الطوابع الحديثة

الجمهورية العربية السورية

نشكر المؤسسة العامة للبريد السوري التي لا تزال تواظب على ارسال نماذج الاصدارات الجديدة لطوابع سوريا، ونرجو لو تؤمن لنا تسلّم برنامج السنة الكاملة للاصدارات بجميع تفاصيلها مسبقاً، لكي نعلنه بدورنا إلى القراء والهواة، خدمة للمصلحة العامة.

كما نأمل لو تحذو المؤسسات البريدية للبلاد العربية الاخرى حذو سوريا، وتتحفنا مسبقاً بأخبار الطوابع لديها، حتى نصدرها في مجلتنا في حينه وبدون تأخير.

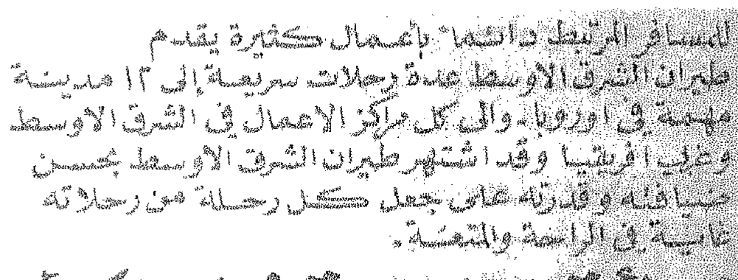
نسجل هنا اليوم اصدارات سوريا لسنة ١٩٨٠ مفصلة وبحسب تاريخ الصدور:

- ٦ طوابع ٢٥٥ قرشاً، معرض الزهور الدولي ١٩٨٠/١/٩.
- ٣ طوابع ١١٥٠ قرشاً، الندوة العالمية الثانية لتاريخ العلوم عند العرب ١٩٨٠/٣/١٥.
- طابع واحد ٤٠ قرشاً، الذكرى السابعة عشرة لثورة الثامن من آذار ١٩٨٠/٣/٢٥.
- طابعان ١٦٠ قرشاً، مكافحة التدخين ١٩٨٠/٦/٢٥.
- طابعان ١٠٠ قرش، العيد الرابع والثلاثون للجلاء ١٩٨٠/٦/٢٥.
- ٥ طوابع وبطاقة ٥٠٠ قرش، الاولمبياد الثاني والعشرون موسكو ١٩٨٠/٨/١٧.
- طابع واحد ٢٥ قرشاً، شهادة الاستثمار ١٩٨٠/١٠/١٤.
- طابع واحد ٣٥ قرشاً، القرن الهجري الخامس عشر ١٩٨٠/١١/٥.
- ٥ طوابع ٢٥٠ قرشاً، معرض الزهور الدولي ١٩٨٠/١١/٥.
- ٥ طوابع ٢٢٥ قرشاً، القصص الشعبي ١٩٨٠/١١/٥.
- طابع واحد ١٠٠ قرش، الحركة التصحيحية ١٩٨٠/١١/١٦.
- طابعان ١٤٠ قرشاً، عيد الام ١٩٨٠/١٢/٣٠.
- طابع واحد ٣٥ قرشاً، عيد العمال العالمي ١٩٨٠/١٢/٣٠.
- طابع واحد ٢٥ قرشاً، عيد الطفل العالمي ١٩٨٠/١٢/٣٠.
- ٥ طوابع ٢١٠ قروش، نماذج سيارات قديمة.



● مثل مَن باع بلاده وخان وطنه، مثل الذي يسرق من مال أبيه وأخيخ ليطعم اللصوص، فلا أبوه يسامحه ولا اللص يكافئه.

نابليون



للمسافر المرتبط دائماً بأعمال كثيرة يقدم طيران الشرق الاوسط عدة رحلات سريعة إلى ١٢ مدينة مهمة في اوروبا. وإلى كل مراكز الاعمال في الشرق الاوسط وغرب افريقيا وقد اشتهر طيران الشرق الاوسط بحسن ضيافته وقدرته على جعل كل رحلة من رحلاته غاية في الراحة والمتعة.

هذه الأرقام الهاتفية تفتح لكم أبوابَ السَفر إلى الشرق الأوسَط. أورُوبَا وأفريقيا

لمزيد من المعلومات الرجاء الاتصال بوكيل سفركم المعتمد أو بالرقم ٣٦٨٠٠٠ المكتب الرئيسي للمبيعات لطيران الشرق الاوسط، مركز جفينور او اقرب مكتب للشركة:

٢٢٦٠٢٢ (اوتيل الكسندر)، ٨٠٣٥٦٨ (شارع فردان)، ٤١٦٣٤٠ (جل الديب)

٩٣٢٧٦٥ (جونيه)، ٦٢٧٢٧٥ (طرابلس)، ٧٢١٤٦٠ (صيدا)

٨٣٢١٤٤ (مكاتب الحجز تفتح ليلاً ونهاراً)

368000

First Class

MEA

MEA

موقف السلطان عبد الحميد الثاني من الحركة الصهيونية

لقد شيد الإسلام بمنهجه الحركي الرائع «قلعة شامخة في التعامل الانساني - والأخذ والعطاء قلعة تنشر النور والهداية على الكون كله. غير أن هذه القلعة كانت ولا تزال وستكون دوماً مستهدفة وعرضة للضربات والطعنات الموجهة من الأعداء لتشويه الصورة الجميلة وحجب النور والهواء عن كل إنسان. وأشد هذه الضربات «الضربة الصهيونية»!!.

فالاعلام الصهيوني حاول تشويه صورة بعض المراحل التاريخية الاسلامية في محاولة يائسة للتشكيك، وخاصة خلافة السلطان عبدالحميد الثاني (١٨٤٢ - ١٩١٨). ومن هنا تبرز أهمية هذا الموضوع. فلقد راودت هرتزل - زعيم الحركة الصهيونية - أفكاره الجهنمية بانشاء وطن قومي لليهود وكما تجدد في نفسه الأمل في سيطرة يهودية على العالم وهو يستعرض أفكاره تلك فاستنفر جهوده وطاقاته نحو تحقيق هذه الأفكار، ورأى أنه مطالب بالحرب في ثلاث جبهات وهي: جبهة اليهود أنفسهم وإقناعهم بضرورة إنشاء وطن قومي لليهود، وجبهة الدول الكبرى وخاصة الاستعمارية مثل فرنسا وبريطانيا والمانيا وروسيا وغيرها.

والجبهة الثالثة - وهي موضوعنا هنا - السلطان عبدالحميد خليفة المسلمين؟! وهذه الجبهة تتضح فيها المواجهة بين خليفة المسلمين وزعيم الصهيونية. ومن خلال ذلك يبرز لنا الموقف العظيم الذي وقفه السلطان في هذه المواجهة. فلقد أجمعت معظم المصادر التاريخية على أن نشاط هرتزل اليائس على الجبهتين السابقتين ومحاولاته مع البابوية والحكام الأوروبيين إنما كانت تهدف للحصول على ضمانة دولية وعلى ضغط أوروبي سياسي على السلطان العثماني لإقناعه بالمشروع الصهيوني [١] ولكي ندرك البعد الحقيقي لنشاط هرتزل فسنقوم بمحاولة جادة للتتبع التاريخي لمحاولاته ومخططاته على النحو التالي: -

١ - **لماذا اختار هرتزل السلطان عبدالحميد؟**- لقد اختار هرتزل السلطان عبدالحميد في محاولاته لانشاء وطن قومي لليهود لأن فلسطين تقع ضمن ممتلكاته الأسيوية - والصهيونية ترى أن لها حقاً تاريخياً في فلسطين بصفتها «الأرض الموعودة» كما أنه استغل الوضع المتردي اقتصادياً وعسكرياً وسياسياً للدولة العثمانية.

٢ - **إتصالات هرتزل بالسلطان**: كان صديق هرتزل الصهيوني «لاندو» قد أوحى له منذ ٢٤ - ٩ - ١٨٩٦ بفكرة وصفها هرتزل بانها جيدة وهي ان يوسط مع السلطان صديقه نيولنسكي[٢] ناشر بريد الشرق - كما أن صديقاً آخر لهرتزل «صموئيل مونتاجو» أوحى له بفكرة أخرى... وهي فكرة رشوة السلطان

بمليوني جنيه مقابل الحصول على فلسطين ويمكن الحصول على موقف السلطان عبدالحميد من الاتصال الأول بينه وبين هرتزل عن طريق نيولنسكي بما أوضحه هرتزل نفسه في مذكراته حين قال «جاء نيولنسكي ليزورني وكنت قد اتصلت به تلفونياً وأطلعته باختصار على تطورات القضية وأخبرني أنه قرأ كراستي قبل ذهابه إلى القسطنطينية وتحدث عنها إلى السلطان وان السلطان قال انه لن يتخلى أبداً عن القدس. بل يجب أن يبقى جامع عمر بيد المسلمين دائماً»[٣] كما ذكر هرتزل في مذكراته أيضاً رد السلطان عبدالحميد على العرض الذي قدمه هرتزل وهو رشوة السلطان وقال نقلاً عن صديقه نيولنسكي: «قال لي السلطان إذا كان هرتزل صديقك بقدر ما أنت صديقي فانصحه ان لا يسير أبداً في هذا الأمر. لا أقدر ان ابيع ولو قدماً واحداً من البلاد وانها ليست لي بل لشعبي لقد حصل شعبي على هذه الامبراطورية باراقة دمائهم وقد غذوها فيما بعد بدمائهم وسوف نغطيها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منا لأي غرض كان - »[٤] وقد عبر عن هذا الموقف السلطان عبدالحميد نفسه فقال: «لن يستطيع رئيس الصهاينة - هيرتزل - ان يقنعني بأفكاره وقد يكون قوله - ستحل المشكلة اليهودية يوم يقوم فيه اليهودي على قيادة محراثه بيده - صحيحاً في رأيه. انه يسعى لتأمين أرض لاخوانه اليهود لكنه ينسى ان الذكاء ليس كافياً لحل جميع المشاكل».[٥] واذا كان موقف السلطان عبدالحميد جديراً بالتسجيل والاشادة، فان هذه الاشارة وذلك التسجيل يسترعيان الانتباه أكثر اذا أخذنا في الاعتبار الضغوط الداخلية والخارجية على السلطان عبدالحميد. ورغم المحاولات الكثيرة من جانب هرتزل للوصول إلى السلطان عبدالحميد التي باءت بالفشل الا أنها لم تقض على الأمل المنتعش في نفس هرتزل. فلقد وصل هرتزل إلى اسطنبول في ١٣/١٥/١٩٠١ وقابل السلطان عبدالحميد وسجل هرتزل في مذكراته وصفاً لتلك المقابلة وما جرى فيها حيث بدأ لقائه والحاخام اليهودي موسى ليفي مع السلطان بمقدمات مفعمة بالرياء والخداع ثم حاول الوصول إلى أهدافه بعرض المشاكل التي تعاني منها الدولة العثمانية، ولكن السلطان عبدالحميد - كما ذكر هرتزل في مذكراته - رد على هرتزل قائلاً: «انني أحب تطبيق العدالة والمساواة على جميع المواطنين. لكن إقامة دولة يهودية في فلسطين التي فتحناها بدماء أجدادنا العظام فلا - وذكر السلطان ان لو علم بأن هذا الاجتماع سيدور حول فلسطين دون القضايا المالية لاضطر منذ البدء إلى إلغائه»[٦]. وقد سجل هرتزل انطباعه عن السلطان عبدالحميد بما يلي: «انه رجل ضعيف وجبان ولكنه طيب القلب ولا أعتبره داهية ولا صارماً بل سجيناً تعيساً ترتكب بطانة طماعة رديئة باسمه أقبح رجس ولعل عار الارتشاء الذي يبدأ على بوابة القصر ولا ينتهي الا بعد قدم واحد فقط من العرش أسوأ ما في الأمر. فكل موظف لص»[٧] وإنصافاً لموقف السلطان عبدالحميد خلال هذه المقابلة فان الشعور بالانكسار والغضب الشديد الذي أخرج هرتزل عن طوره فسجل انفعالاته عن السلطان إنما هو في نفس الوقت اشادة بالسلطان. فهو ذلك السلطان الذي استطاع وسط جماعة من اللصوص وفي ظروف عصيبة أن يبحر بالسفينة إلى بر الأمان، وقد عبر هرتزل بنفسه عن هذه الحقيقة حين قال: «لقد تأثرت بأقوال السلطان التي تتسم بالحقيقة والفخر رغم أنها تضع في الوقت الحاضر نهاية لكل آمالي...» ولعله من العجيب لنا أن نتصور السلطان عبدالحميد كيف سيكون لو قبل المشروع الصهيوني انه لن يكون قطعاً - ويا للعجب - رجلاً ضعيفاً ولا جباناً بل سيكون داهية وصارماً على حد قناعة هرتزل وتصوراته الخاطئة.

ثم أصبح هرتزل يتخبط يمنة ويسرة بحثاً عن أي ثغرة يدخل منها إلى أهدافه الا أن موقف السلطان عبدالحميد كان حاذقاً ولم يستطع هرتزل ورغم الضغط المستمر منه ومن أعوانه المستعمرين أن يصل إلى تلك الثغرة غير أن هرتزل لم يكن متناسياً ولا ناسياً التفكير في إزاحة السلطان عبدالحميد عن طريق الانطلاقة الصهيونية... ومن خلال الاستقراء المتتبع للموقف الجاد الذي وقفه السلطان عبدالحميد

خلال مواجهة مع الصهيونية العالمية والاستعمار حيال استعمار فلسطين يمكن الوصول إلى أهم نتيجتين تركهما هذا الموقف: -

١ - تأخر الغزو الصهيوني لفلسطين. وهي نتيجة جديرة بالتسجيل ووسام شرف يمنح للسلطان عبدالحميد.

٢ - خلع السلطان عبدالحميد وإقصاؤه عن الحكم بعد أن عجزت الدول الاستعمارية والصهيونية مجتمعة أن تثنيه عن عزمه وبهذا حصلت المؤامرة التي انتهت بخلع السلطان وبالغاء الخلافة الاسلامية سنة ١٩٠٨. أما عبدالحميد فقد كان موقفه من عزله موقفاً شجاعاً أوضحه في رسالته إلى شيخ الطريقة الشاذلية حيث يقول: «هذا وحمدت المولى وأحمد. أنني لم أقبل أن ألطخ الدولة العثمانية والعالم الاسلامي بهذا العار الأبدي الناشىء عن تكاليفهم باقامة دولة يهودية في الأراضي المقدسة بفلسطين»(٨).

فهد عبدالله السماري

هوامش

(١) حسان حلاق - موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية - ص١١٢.

(٢) هو «فيليب مايكل نيولنسكي» (١٨٤١ - ١٨٩٩) صحفي نمساوي وعميل سياسي من أصل بولوني - عمل مسؤولاً في الادارة السياسية في السفارة النمساوية في القسطنطينية واصبح صديقاً للسلطان فيما بعد.

(٣) يوميات هرتزل - تعريب هيلدا صايغ أنظر ص(٣٥).

(٤) يوميات هرتزل - تعريب هيلدا صايغ أنظر ص(٣٥).

(٥) السلطان عبدالحميد - مذكراته - مؤسسة الرسالة ص٢٤.

(٦) يوميات هرتزل - تعريب هيلدا صايغ ص١٧٣ - ١٧٨.

(٧) يوميات هرتزل - تعريب هيلدا صايغ ص١٧٣-١٧٨.

(٨) مذكرات السلطان عبدالحميد - مؤسسة الرسالة - هامش ص٣٧.

سامرّا في عهد الخليفة المعتصم وحرسه

السر في بناء سامرا:

عندما تولى الخليفة المعتصم الخلافة بعد أبيه المأمون سنة ٢١٨هـ، أهمل العنصر العربي والفارسي معاً، واعتمد على الأتراك الذين اتخذ لهم حرساً له، يشبهه بروكلمان بالحرس البريتودي الروماني فكان المعتصم بذلك أول خليفة عباسي يستعين بالأتراك. ولم يلبث هؤلاء الأتراك أن أصبحوا آفة على أهل بغداد الذين عانوا من ظلمهم وتعنتهم الشيء الكثير، وتعرض العامة لأحداث كثيرة أشار إليها المسعودي والطبري لعل أقلها أن فرسان الأتراك كانوا يقتلون الأطفال والنساء تحت أرجل خيولهم. واجتناباً لفوضى الأتراك في شوارع بغداد، عزم المعتصم على أن ينشىء سنة ٢٢١هـ مقراً جديداً له ولحرسه التركي في سامرا.

موقع سامرا:

سامرا أو (سّر من رأى) تقع على الضفة الشرقية أي اليمنى من دجلة شمالي بغداد بحوالي مائة كيلو مترا.

الفن المعماري، وآثار سامرا:

لقد عهد المعتصم في بنائها إلى قائده «أشناس» التركي سنة ٢٢١هـ فأنشأ فيها قناتين متفرعتين من دجلة نحو الشرق، خلعتا على المدينة الجديدة بالاضافة الى النهر نفسه متعة الحصن البحري. ولقد شيد قصر الجوسق للمعتصم أولا حتى إذا ما جاء بعده خلفاؤه وكانوا سبعة حكموا طوال نصف قرن إزدان وسط المدينة بالقصور والمساجد الجديدة، وعلى الرغم من أنه

لم يبق لنا من هذه المنشآت الفخمة التي أقيمت خلال تلك الفترة القصيرة من الأزدهار إلا خرائب وأطلال. فالحق أنها تقدم لنا صورة عن فن العمارة في العصر العباسي تنبض بالحياة أكثر من تلك التي تقدمها لنا بغداد، حيث كشفت أيدي الأجيال المتأخرة عن آثارها. ولعل أهم العلماء الأثريين الذين كشفوا لنا عن فنون سامرا زارٍ (Sarre) » و«هرتسفلد، Herzfeld)»، والواقع أن المعماريين المسلمين اعتمدوا في الشرق كما في الغرب الاسلامي على التقاليد المعمارية القديمة، فقصر الخليفة المتوكل المسمى «بلكوارا» وهو أهم بناء لا تزال أطلاله محفوظة لنا في سامرا، إنما شيد على طراز قصور المدائن الساسانية من حيث التخطيط العام وتصميم المساحات وشكل الواجهات، وهو مستطيل يبلغ طول كل من جانبيه ثلثي الميل تقريبا، وعلى الجهة الغربية المنحدرة نحو النهر كانت تقوم ثلاثة عقود من الآجر تؤدي الى القسم المخطط للسكن وقاعات الاستقبال العامة، وكانت هذه كلها ذات تخطيط متعاقد حول أروقة داخلية ثلاثة يحيط بها عدد من غرف الاستقبال والحمامات وغرف الخدم، والى الشرق كانت تحاذي القصر حديقة ذات نافورات والى الشمال كانت بركة الماء العظيمة تتوسط السراديب والآبار. وحول القصر تقوم مساكن الحاشية وثكنات الحرس الأتراك. أما مهندسو الجامع الكبير في سامراء، فقد تأثروا كما يؤكد بروكلمان باحدى الأبراج البابلية وهي «الزاقورة» ذلك بأنهم بنوا مئذنة هذا الجامع في سامرا بسلالم خارجية ملونة فوق قاعدة طولها ٢٨ ياردة (٢٥,٥ متراً). والحق أن الموارد العظيمة التي كانت لا تزال في متناول هؤلاء المعماريين على الرغم من أن الامبراطورية العباسية كانت في ذلك الوقت قد أخذت في الانحطاط لتظهر لنا أوضح ما يكون الظهور في ساحة هذا الجامع الهائلة حقا فهو بمثابة مستطيل يبلغ ٢٦٠ متراً طولاً و١٨٠ متراً عرضاً تقريباً، ويحتوي حصنه الداخلي المتوزع على ٢٥ بلاطة ٧٧ ألف متر مربع. ولا يخفى علينا ما للكشف عن أنقاض سامرا من أهمية في دراسة الفنون الاسلامية فإن المصادر التاريخية ولا سيما اليعقوبي ذكرت لنا كيف أحضر المعتصم أشهر الفنانين من أنحاء الامبراطورية الاسلامية ليجعل من عاصمته الجديدة أكبر منافس لبغداد. وقد كشفت حفريات البعثة الألمانية من أنقاض القصور الملكية وكثير من دور الخاصة، وكلها تسود فيها الأوضاع والتقاليد المعمارية الايرانية، وقد لعبت الزخارف الجصية دوراً كبيراً في قاعات الأبنية وردهاتها بسامرا، ولاسيما في الأجزاء السفلية من الجدران التي يطلق عليها اسم «الوزرات» (Dados) وقوام هذه الزخارف المحفورة في الحجر بعناية ودقة عناصر هندسية ونباتية وأوراق وفروع العنب وعناقيده والورد والمرواح النخلية، وقد عثر الأستاذ هرتزفلد (Herzfeld) بين أنقاض سامرا على بعض صور حائطية كان أغلبها في حالة سيئة، كما عثر على امضاءات أغريقية، فيحتمل أن يكون بين الفنانين الذين رسموا هذه الصور بعض النقاشين الاغريق.

امزابي الحسين
المملكة المغربية

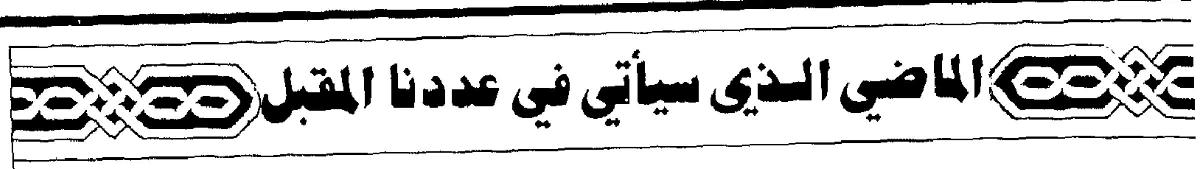
المراجع

١ - «تاريخ الشعوب الاسلامية» بروكلمان.
٢ - «مروج الذهب ومعادن الجوهر» المسعودي.
٣ - «تاريخ الطبري» الطبري.
٤ - «البلدان» اليعقوبي.
٥ - Sarre herzfeld, archeologische reise in Euphrat und Tigris Gebiet, 4 vols Berlin 1911-1920.
٦ - Herzfeld, Der Wands chmuck der Banten von S'amarra und selne Ormamentik. Berlin 1923.



● واجبنا نحن الزعماء ان نبث في الشعب روح الأمل والتفاؤل، فإن الشعوب الضعيفة المقهورة لن تقوى ولن تنتصر ما بقيت يائسة متشائمة، ولكن لا سبيل إلى ذلك إلا إذا ضرب الزعماء الأمثال على انهم في المقدمة والطليعة، جراءة وتضحية واقداماً.

جواهرلال نهرو



Le Petit Parisien

ÉDITION DE PARIS

1 franc — 5 heures

LUNDI 13 SEPTEMBRE 1943

LE DUCE EST LIBÉRÉ par des parachutistes allemands !

Berlin, 12 septembre. — Le quartier général du Führer publie le communiqué spécial suivant :

Des parachutistes allemands, des hommes du service de sécurité et de la S. S. ont effectué dimanche un coup de main pour libérer le Duce, tenu en captivité par la clique de la trahison. Le coup de main a réussi : le Duce est en liberté. Ainsi, sa remise aux Anglo-Américains combinée par Badoglio se trouve déjouée.

Réflexions pour les Français à la lumière des événements italiens

LA RIPOSTE ALLEMANDE EN ITALIE FAIT ÉCHEC AUX PLANS ANGLO-AMÉRICAINS

Tandis que les troupes du maréchal Badoglio abandonnent partout la lutte, les forces d'invasion se heurtent à Salerne et en Calabre, à une résistance renforcée

Le maintien de l'ordre intérieur et la protection de la population contre les bombardements

LA COTE DALMATE ET L'ILE DE RHODES sont entièrement sous le contrôle du Reich

LES ENDROITS STRATÉGIQUES SONT OCCUPÉS

LES CONDITIONS DE L'ARMISTICE

AU SUJET DU NOUVEAU SIGNAL D'ALERTE

UN DÉBARQUEMENT SOVIÉTIQUE DANS LA PARTIE OUEST DU PORT EST REPOUSSÉ A NOVOROSSIISK

Des combats se poursuivent à l'est de la base

EN OCÉANIE — LES AMÉRICAINS TENTENT UN COUP DE MAIN DANS L'ILE D'ARUNDEL

Carnet du prisonnier

RÉADAPTATION

Des formations navales britanniques sont dispersées au large de Cherbourg

Les bombardements anglo-américains

AU PORTEL : 400 MORTS

LA VILLE EST ÉVACUÉE

كيف انقذ سكورزيني موسوليني ؟

